

Twitter: @alqareah
18.5.2016
وول سوينكا
مات الرجل
ترجمة:د. راتب شعبو
التكوين
رواية
www.Maktbah.com

وول سوينكا

مات الرجل

رواية

ترجمة

د. راتب شعبو



Wole Soyinka

The man died

الطبعة الأولى 2015

هاتف: 00963 112236468

فاكس:00963112257677

ص. ب: 11418، دمشق. بيروت

www.attakwin.com

taakwen@yahoo.com

إلـــــى

نظيرة قادرة

أميّ..

المترجم

هذا الكتاب مهدى بجدارة إلى عليدي

الذي رفض المساومة وطالب بالعدالة

المنسيّون

بين سطور كتاب «الدين البدائي» لـ«باول راوين»، كما بين سطور كتابي «إدنري» توجد كتابات متعجلة هي أجزاءٌ من مسرحيات وقصائد ورواية وفصول من مذكرات السجن التي تشكل هذا الكتاب. وقد شوهتُ بالطريقة نفسها ستة مجلدات أخرى. وخشية أن أقدم دليلاً يمكن أن يؤدي إلى اضطهاد ضباط أبرياء، لن أذكر عناوين تلك الكتب، ولن أشير إلى الفترة من سجني التي هُربت إليّ فيها تلك الكتب واحداً واحداً. بعد متعة القراءة، المتعة الرائعة التي تفوق الوصف، كنت أشرع بملء الفراغات بين السطور بكتابتي الخاصة. هذه الكتب وصلتني من بين كتب عديدة أرسلت إلي من مصادر متنوعة بينما كنت في السجن. في البداية كان يتم منع هذه الهدايا وإعادتها فوراً «انظر الرسالة لاحقاً». فيما بعد صارت تترك ببساطة في مكاتب سجن لاغوس وسجن كادونا ليتجمع فوقها الغبار وشباك العناكب. الكتب والكتابة ترعب أولئك الذين يسعون إلى خنق الحقيقة. ومع ذلك وبالرغم من الإجراءات الأمنية التي فاقت في صرامتها أية إجراءات فرضت بحق أي سجين في تاريخ نيجيريا، إجراءات هدفت لمحاصرة عقلي وتدميره في السجن، فإنني أقمت صلة مع الخارج. ولكن مهما يكن السجين ماكراً، ومهما يكن عبقرياً (طبيعة السجين هي بالتعريف دُهَاء حيواني) فإن السلوك الخيّر الشجاع من قبل بعض سجانيه يلعب دوراً مفتاحياً في بقائه. رغم

ذلك فإنني لا أستطيع أن أرد الدين لهذا البعض باعتراف علني بجميلهم، وحتى بعد سنتين من الإفراج عني لم أجرؤ على الاتصال بأي منهم لمعرفتي أن القوة الأمنية الأضخم في القارة لا تزال تراقب عن كثب علاقاتي الشخصية. إنني أتوجه إلى هؤلاء وأمثالهم بالقول: صبراً، إن سداد هذا الدين يكون في استمرار الجهود لدحر وتدمير كل هذا الباطل.

وول سوينكا

السيد:

بخصوص وول سوينكا

المعتقل المدني

أتوجه إليك كي أشير إلى رسالتك التي تحمل تاريخ 24 كانون الثاني 1968، وأبلغك بأسف أن التراسل مع المعتقل المذكور أعلاه غير مسموح.

ولذلك فإنني أعيد لك رسالتك وكتاب «بنغوان» «أربعة شعراء إغريق» مرفقين مع هذه الرسالة.

بإخلاص

ي. أ. أجوني

نيابة عن مدير السجون

1

رسالة إلى أبناء وطن واحد...

يحفزني الآن مادتين مطروحتين على طاولتي. الأولى هي النسخة الأخيرة من مجلة (ترانزشن) التي أعيد إحياؤها مؤخراً في «أكرا» والأخرى برقية من البيت تقول ببساطة: «مات الرجل».

الرسالة السابقة هي التي خلقت لديّ صدمة كبيرة لم أكن أنتظرها وهي رسالة من أحد ضحايا الفاشية اليونانية الحالية. شيء صادم أن تقابل شخصاً آخر مرّ بتجارب تطابق تجاربك، خصوصاً تلك التجارب التي تولد ردود أفعال وأفكاراً وإحساسات وحتى تعابير متشابهة. ويكون الأمر مخيفاً إلى حد ما حين يتعلق بالتجارب الحسية العميقة. كلٌ منا متيقن بالطبع أن ثمة سلسلة متصلة من التجارب العصية على الانقطاع تعزز اليقين بعبور المحنة، اليقين الذي لا يني يزداد بمعرفة من سبقنا في هذه الدائرة، ذاك اليقين هو ما يشد أزر السجين في أقصى اللحظات وهو ما يحفز فيه، بعد خروجه من السجن، عهداً وواجباً تجاه كل ضحايا سادية السلطة في بلده وخارج بلده. كاتب هذه الرسالة هو البروفيسور في اللغة اليونانية «جورج مانغاكيس» وهو الآن أسير لدى الديكتاتوريين الفاشيين[1]. اقتطف بضعة مقاطع من رسالته كي ألحّ على بعض الحقائق البسيطة جداً في حياة السجين المعزولة والمحفوفة بالخطر.

---

(1) جورج مانغاكيس استعاد حريته الآن.

يبدو لي أن شهادة كهذه يجب أن تكون بمثابة تنبيه دائم للوعي العالمي البليد. لكي ندحر ونقتلع بالكامل أي مفاهيم أو مزاعم يمكن أن تسوغ بأي شكل جريمة انتهاك العقل البشري، يجب أولاً أن نفهم جيداً إلى أيّ مدى تصل هذه الانتهاكات. بعدئذ لن يبقى مكان للذرائع أو الجدالات. فقط سيترتب على كل فرد أن يقوم بعملية اختيار بسيطة: هل أقبل هذا الشيء أم لا؟

يكتب السجين اليوناني:

«من بين أشياء كثيرة أخرى فإن من عذابات السجين أيضاً حاجته العميقة للتواصل مع بشرٍ أصدقاء. إنها حاجة تخنق السجين أحياناً.

إنني أكتب دفاعاً عن النفس. بالكتابة أفلح في الحفاظ على ذهني تحت السيطرة، إذا أطلقت له العنان دون أن أضبطه في إطار الفكرة التي أكتبها فإنه يتوحش، ويضرب في مسالك مشؤومة غريبة وينتهي به الأمر إلى تفريخ مسوخ..

... نحتاج إلى عقل آخر يبقى على علاقة مع عقلنا. ونحتاج أيضاً إلى لحظات خالية من التفكير».

أشهد على المسالك المشؤومة التي يسلكها العقل في الحجز الانفرادي وعلى المسوخ الغريبة التي يولدها. لا شك أن السجانين والآسرين يعرفون ذلك ويخلقون هذه الشروط خصوصاً من أجل تلك العقول التي يخافون ومن ثم ينتظرون، بلا شك، أن تنهار. نحن لا نعرف سوى الناجين من هذا المعبر اللاإنساني، يجب أن نترك هذا في الذهن دائماً.

اتخذ هذا الكتاب أشكالاً وصيغاً عدة. ماذا أضمنه وماذا

أرجئ وماذا أحذف نهائياً، كل هذا خضع لتقدير الملائمة واستمرار قدرتي على التأثير بأحداث بلدي وعلى التأثير في التغيرات الثورية التي أصبحت مكرساً لها اليوم أكثر من أي وقت. كما خضع للتفكير بسلامتي الشخصية وعدم رغبتي في أن أكسر آخر الكوابح التي تلجم نظاماً أضطره شعوره بالذنب أن يبقى بالقوة في سلطة غير موثوقة... كل هذا ساهم في تغيير شكل وعنوان ومفهوم هذا الكتاب أكثر من عشر مرات. في الأسبوع الأخير فقط قسمته إلى جزئين، الأول أرجأته، كنوع من سيف «ديموقليس» ينتظر لحظة العقاب السياسي المناسبة تماماً. وكان حتى هذا الصباح لا يزال العنوان «القتل البطيء». وفي وقت لاحق من هذا الصباح وصلت المادة الأخرى، وهي برقية تحمل هاتين الكلمتين البسيطتين: مات الرجل.

صعقتني العبارة في بادئ الأمر، بدت غريبة ومع ذلك لها ألفة خاتمة حكاية تربوية، شعر هزلي «وكأن الكلب هو الذي مات» بطريقة نطق من يتعلم مبادئ اللغة. عينا الجراح فوق القناع، أو دهشة جلاد أخطأ في تقدير قوته العضلية. سمعت الصوت بنبرات مختلفة عديدة من الماضي والمستقبل وبدا لي أن هذا هو فعلاً الشرط الاجتماعي للطغيان: مات الرجل، مات الكلب، ماتت القضية. مات الإنسان[1] داخل كل من يبقى صامتاً في وجه الطغيان.

الكلب في هذا الموت القريب العهد كان صحفياً. تعرّض

---

(1) في اللغة الإنكليزية كلمة «رجل» هي نفسها كلمة «إنسان» وهذا يسمح للمؤلف بالتنويع على هذه اللفظة في عنوان روايته. م.

«سيغمون سويميمو» لضرب همجي مع زملاء آخرين له على يد جنود، بناء على أوامر الحاكم العسكري للغرب. السبب؟ إهمال مفترض. لكنه على الأقل كان محظوظاً. ساعدته نقابته. وحين تدهور وضعه، اضطر الحاكم أن يرسله بالطيارة إلى إنكلترا من أجل العلاج ـ على حساب الدولة، دولتي ودولتك، وليس على حساب الحاكم ورجاله كغرامة عقابية ـ غير أن الغرغرينا كانت قد توطنت وكان لا بد من بتر الرجل المصابة.

تابعتُ قضيته باهتمام. في لندن بحثت عنه ولكني اكتشفت أنهم أعادوه بالطائرة إلى نيجيريا. أرسلتُ إلى زميل لي كي يقتفي أثره ويرسل لي أخباره. وكان رده متضمناً في البرقية التي إلى جواري في هذه اللحظة: مات الرجل.

هذا المساء تعرفت في هذه البرقية على العنوان الوحيد لهذا الكتاب، وأدركت أيضاً أنني تخطيت المساومة منذ زمن بعيد، وأن هذا الكتاب يعبر عن الحاضر، وأن ما يجب أن يحذف منه هو فقط تلك الأشياء التي قد تشكل خطراً على أولئك الذين تعتمد عليهم الثورة الحقيقية داخل البلاد. وأنا فقط من يقرر في هذه المسألة اعتماداً على محاكمتي العقلية وتجربتي التي، وهذا يصعقني أكثر وأكثر، لا مثيل لها بين الخمسين مليون من أبناء بلدي.

يعكس مصيرنا الراهن، وفوق ذلك هو بمثابة علاج لي. إنه ينقذ الكلمات من التفاهة التي تلحق بها على يد السجانين، تفاهة شكلتْ، كما سيظهر القسم ذو الصلة بهذا الكتاب، أحد أخطر التحديات على بقائي الذاتي بعد قصة الهرب الكاذبة التي نسجها من أرادوا قتلي. عندما ابتدأت سراً أكتب في السجن لاحظت مثلاً كيف راح ذهني يشقى كي يجد بدائل لكلمة مُغيظة، حتى أني

لجأتُ إلى الحيلة القصوى فغيرتُ مقاطعَ بكاملها، ونتائجَ كاملة للحدث كي أتجنب استخدام مفهوم عاطفة مثل «الذل». هذه الكلمة «ذل» هي التعبير عن حقيقة العاطفة. في هذه اللحظة استُعيد واقعها وأُعطيه حقه في سياقه الصحيح، على أنه الشعور الجليل الوحيد لكل الذين لم يُحقنوا بهرمونات الخنوع والعبودية قبل ولادتهم. يكتب «جورج مانغاكيس»:

«حين تُفرض الديكتاتورية على بلدك فإن أول ما تشعر به من اليوم الأول بالضبط، وهو شعور عفوي تماماً في مباشريته ومتجرّد عن أي تطوير ذهني، هو الذل. إنك محروم من حق أن تعتبر نفسك جديراً بأن تكون مسؤولاً عن حياتك ومصيرك، وهذا الشعور ينمو يوماً بعد يوم نتيجة الجهد المتواصل للمستبد لكي يفرض على ذهنك قبول كل الابتذال الذي يؤلف العالم الذهني الجهيض للديكتاتوريين. تشعر كما لو أن عقلك وحالتك البشرية تتعرّض لإهانة عميقة كل يوم. عندئذ يحاولون أن يخيفوك كي يفرضوا عليك بالخوف قبول أفعالهم البربرية المتنوعة التي سمعت عنها أو شاهدتها فعلاً ترتكب بحق زملائك من الكائنات البشرية. وتبدأ العيش يومياً مع إذلال الخوف، وتبدأ بكره نفسك. عندئذ يتولد لديك، وأنت تشعر بجرح عميق في ضميرك كمواطن، التضامن مع الشعب الذي تنتمي إليه».

أنا أشعر بهذا التضامن فقط مع أبناء شعبي الذين عانوا ذل الطغيان هذا وأستبعد وأتجاهل البقية. مهما تكن العوامل التي استدعت الديكتاتورية كضرورة، فإن تلك العوامل اختفت والديكتاتورية الحالية هي عبء مخزٍ. وهي فوق ذلك مذلة لأنها، حسب علمي وعلمكم فاقت أسوأ تجاوزات حكومة المدنيين قبل

عام 1966 سواء من حيث الغطرسة الوحشية في القمع أو الفساد المادي أو التدمير المنظم لكل الأهداف الثورية الأصيلة. إنه اعتراف مخجل، ولكنها الحقيقة. أتوجه بهذا الكتاب إلى الشعب الذي أنتمي إليه وليس إلى النخبة الجديدة، وليس إلى تلك الشريحة العريضة من العبيد ذوي الامتياز الذين يسندون القصور الرخامية لطغاة اليوم. إنني أستمد شهادتي من تجربتي الشخصية، وأتهم بناء عليها هؤلاء بجريمة استغلال الحرب. لا أقصد استغلالاً بالمعنى المادي، فهذه حقيقة معروفة جيداً، وجرى امتصاصها بسهولة بالغة في آليات امتصاص الصدمة في المجتمع. هناك، على أي حال، شكل آخر من الاستغلال. إذلال أكبر، يظهر طفيفاً جداً فلا ترتاب به إرادة شعب أنهكته الحرب، أقصد استغلال السلطة للكارثة العامة والخسائر المتبادلة في الحرب. إن أعظم إهانة توجه إلى ذكاء الشعب هي حين يكون مستغلو السلطة هؤلاء، وهذا منتهى السخرية، متورطين في جريمة التسبب في الحرب نفسها. حسب شهادتي، من الواضح أن مستغلي السلطة هؤلاء مذنبون. ويبقى الجدال في درجة إجرام كل منهم فقط. إن تجاوزاتهم الحالية وتغاضيهم المتبادل عن الجريمة، جعل من الضروري أن يكون مضمون هذا الكتاب غير مساوم لأن الخطوة الأولى نحو إسقاط الإرهاب هي تفريغه من ادعائه الكاذب بالاستقامة، إنها الخطوة الأولى فقط. ففي أي شعب يخضع طائعاً «لإذلال خوف يومي» يموت الإنسان.

14 ـ 1971 كانون الثاني.

2

إنَّ اعتقالي والمكيدة التي دبرت لي قضيتان مختلفتان تماماً. كان الدافع لاعتقالي النشاطات التالية: إدانتي الحرب في الصحف النيجيرية، وزيارتي القسم الشرقي من البلاد، وسعيي إلى تجنيد مثقفي البلد في الداخل وفي الخارج لتشكيل مجموعة ضغط تعمل على حظر كلي لتزويد الأطراف المتنازعة في نيجيريا بالسلاح، وخلق قوة ثالثة تستفيد من المأزق العسكري الذي سينتج عن هذا الحظر من أجل رفض انفصال «بيافرا» وديكتاتورية الجيش القائمة على الإبادات الجماعية والتي تجعل الحرب والانفصال شيئين لا محيد عنهما.

أما المكيدة التي دبرت لي فكانت بسبب نشاطاتي في السجن. أعدوا لي مكيدة وأوشكوا أن ينجحوا في تصفيتي وذلك بسبب نشاطاتي في المعتقل. ذلك أني كتبت وهرَّبت من سجن كيري - كيري رسالة تتضمن البرهان الأكيد على سياسات الإبادة التي تتبعها حكومة «غوون». وقد اكتشف المذنبون أمرها فحاولوا ستر خيانتهم بمؤامرة إجرامية.

قلتُ في البداية إن اعتقالي والمؤامرة التي حيكت حولي قضيتان مختلفتان، وهذا صحيح فقط من حيث أنه منذ لحظة اعتقالي حتى تسريب تلك الرسالة إلى أيدي أولئك الذين تتضمن تلك الرسالة إدانة لهم، لم يكن يبغي آسريَّ أكثر من إبعادي من التداول. أما في العمق فإن الاعتقال والمكيدة، ينبعان من مصدر الفساد نفسه. أهم من هذا، فقد كانت الرسالة التي هربتها من السجن تشكل بالنسبة لي برهاناً على صحة موقفي السياسي الذي

أدى إلى اعتقالي. واليوم أتبين أن هذه الحقيقة الفاقعة، حقيقة التأكيد المتواصل والمباشر والصريح على عفونة السلطة في العمق، هي ما فرض عليّ واجباً إضافياً في أن أنقل إلى رفاقي خارج السجن، البرهان الأكيد على أخلاقية موقفنا، الأمر الذي استدعى منا التزاماً متواصلاً بالمثل الأخلاقية حتى في معمعان الحرب (مع غزو الغرب الأوسط نجد نفسنا الآن أمام واقع حرب أهلية أخرى سوف تخاض إلى النهاية). لذا من المناسب أن يكون نص تلك الرسالة مقدمة كتابي هذا، لأن الموضوع الذي تتناوله هو ما أدى إلى الانفصال وإلى الحرب، وهو ما ولّد المعدل الحالي من الغرائز البهيمية لدى شعب يتجمع الآن في مئات الألوف من نساء وأطفال ومتسولين وبلهاء نخبويين يتنزهون وسط الإعدامات العامة التي تطال مجرمين ثبتت إدانتهم أو لم تثبت. موضوع الرسالة الأساسي (العدالة) يستأنف جدلاً أخفي تحت قشرة رقيقة فقط من الدم، قشرة تتآكل يومياً تحت الدوس المتواصل من جزم القامعين. إنه يلخص الإخفاق الأخلاقي الهائل للأمة إخفاق أوصل إلى الانفصال والحرب. وحقيقة هذا الإخفاق هي ببساطة أنه عندئذ، كما الآن، عانتْ الأمة من الذل جراء خيانة دفعت إليها ودعمتها وأظهرتها قوى ليس لها من هدف أو إيديولوجية سوى الدوام الذاتي من خلال الإرهاب المنظم، إنه الإخفاق في: (امتلاك بعد نظر تاريخي وإدراك أن الأمم المُذلَّة مدفوعة لا محال إما إلى تفسخ كريه أو ذبول روحي وأخلاقي أو توق إلى الانتقام ينتج عنه سفك دماء وفوضى).

أقتطف من «مانفاكيس» للمرة الأخيرة. ما يلي هو نص الرسالة التي لا تزال مخبأة في الخزائن السرية لمنقذي الأمة الحاليين:

في الحجز (أيلول 1967)

عندما تم اكتشاف جثث ثلاثة من موظفي الحقوق المدنية، أحدهم أسود، في أقصى جنوب أمريكا البدائية وذلك منذ بضع سنوات، قاسينا كالملايين غيرنا من السود في كل العالم، من قناعتنا المقيتة أنه لولا وجود رجلين من البيض ومن الأغنياء لما جرى السعي الحثيث لاكتشاف مصيرهم ولتقديم المجرمين، عبثاً، إلى العدالة.

لقد دار الدولاب دورة كاملة بالنسبة لنا. دعوني أذكركم بقضية المصور «إيمانويل أوغبوندا»، من الإيبو، الذي اختطف من محله في «أودواونا» في «إيبادان» في السنة الماضية. قتل ثم ألقي في الأدغال على بعد عدة أميال. فيما بعد اتهم بهذه الجريمة جنديان من الكتيبة الثالثة هما «أمبروري أوكبي» و«غاني بيبان»، وتم تقديمهما إلى المحكمة في «إيبادان». حاولوا أن تتذكروا التأجيلات الغامضة في محاكمة هذين الرجلين، الإعاقات والمناورات المفتوحة التي تليق بمحكمة واقعة تحت تأثير «الكوكلوكس كلان» جنوب «آلاباما». وعندما أعلن النائب العام أخيراً أنه «بناء على التعليمات» لم يكن لديه من خيار آخر سوى سحب الدعوى، أصابتنا الدهشة لفترة وجيزة. سلطات الجيش قررت التعامل مع هذه المسألة بنفسها، كما قال. في تلك اللحظة كان علينا أن نرفع أصواتنا ونتصرّف غير أننا فضلنا كالعادة أن "ننتظر ونرى" ذاك المرهم الشائع لتسكين الضمائر الجبانة. بهذا الحادث دُمّرتْ ليس فقط محاكم العدل في المنطقة الغربية بل حتى مظهر القانون والعدالة في الاتحاد كله لصالح مذهب الإبادة المشروعة.

والآن اسمعوا التتمة، لمدة ستة أسابيع تقريباً عشت على صلة وثيقة مع اثنين من منتوجات ما وصفه «حنا أريند» في «ايتشمان في القدس» بذاك التعبير الغريب: ابتذال الشيطان. وجدت نفسي مودعاً هنا (هل هو القدر؟)ـ من بين كل زنازين السجون في نيجيريا ـ مباشرة إلى جوار الجنديين المتهمين مرغماً على الإصغاء والملاحظة، وقد تأكدتْ لدي، بما لا يدع مجالاً للشك، الاستنتاجات التي كانت تلح عليّ بشأن ما يحدث للكائنات البشرية وللأمة، أية أمة، عندما يُتخذ قرار ضمني برفع الحماية القانونية عن مجموعة ما داخل الأمة واعتبار دمها مهدوراً لأي رجل يحمل أدنى ضغينة كي يحيلها إلى قتل. لا أستطيع هنا أن أكون أكثر وضوحاً، خصوصاً فيما يتعلق بالاعتراف المتُّباهي والفخور بالذنب من قبل أحد هذين الرجلين. يكفي أن أقول إنه منذ ثلاثة أيام تم الإفراج عن هذين المتهمين، كما يجب أن نسميهما، من سجنهما الرمزي وهما يشعران بالانتصار.

سيُتاح لنا الوقت لاحقاً، إذا ما عمّ الهدوء ثانية، كي نتعامل مع هذا وغيره الكثير مما شاهدناه يحدث في هذه الأمة في غضون السنة الماضية. لكن ثمة أشياء يجب أن لا تنتظر لحظة واحدة أخرى. من الضروري حتى أثناء تواصل هذه الحرب اللامقدسة أن توجد بقعة تعارض بجرأة هذا المذهب المهلك الذي قد يتحول إلى وباء مبيد بالمعنى الحرفي للكلمة، بفعل طبيعة الصراع الراهن بالذات. أكثر من ذلك، علينا من الآن إرساء بعض الأسس الكفيلة على الأقل بإنقاذ صراعنا من البهيمية ومن ظاهرة القتل الجماعي الشائعة، إذا شئنا أن ننظر إلى مدى بعيد وأن نهتم بنوعية المجتمع الذي يجب أن ينهض على رماد هذا المجتمع. لا بد من بداية في مكان ما، إذن لنبدأ نحن في القسم الغربي. بالطبع يجب أن تتوقعوا إساءات تفسير متعمدة من

قبل هؤلاء القتلة يوافقونهم عليها في المنطقة الغربية ويوافقهم عليها حلفاؤهم الملطخون بالدم في المناطق الأخرى. عاجلاً أو آجلاً سيجدون أنه لا بد لهم من اتباع مثال واضح كهذا.

أولاً: وقبل كل شيء إعلان استقلال السلطة القضائية في الغرب. لا أعلم ماذا يعني هذا في علاقتنا مع المحاكم الفيدرالية ولست أبالي بذلك عملياً. إنني فقط أطالب أن تضع السلطة القضائية في الغرب نفسها، بطريقة أو أخرى، بعيداً عن متناول أية سلطة من داخل المنطقة أو من خارجها لكي لا تتدخل هذه السلطة بالإجراءات القضائية وتحيل القضاء، بالتالي، كما هو الحال اليوم، إلى شريك في تسويغ الإبادة الجماعية وذلك بالتخلف عن مقاضاة المجرمين.

ثانياً: سنّ قانون في المنطقة يجرّم أي رجل أو مجموعة تضايق أو تتدخل بأي شكل في شؤون شخص أو مجموعة أخرى لأسباب عشائرية، أو تمارس أي شكل من أشكال التمييز القائم على أساس عشائري «ويمكن أن نضيف ديني وغيره إذا شئنا أن نجعله قانوناً شاملاً».

دعوني أكرّر إن ما حدث في حالة إيمانويل أوغبوندا ليس إلا مثال من آلاف حالات الإبادة المريعة التي تتم بموافقة من الجهاز القضائي في الغرب[1] وبدعم من قوى وسلطات أخرى يجب

---

(1) بعد إطلاق سراحي اكتشفت أن السلطة القضائية في الغرب احتجّت بعبارات شديدة اللهجة وجّهتها إلى غوون بشأن قراره تجنيب المتهمين من حكم العدالة. أنا أعتبر هذا الحادث جديراً بالمقارنة (سوى أنه أسوأ بمئة مرة) مع قرار ريتشارد نيكسون بإطلاق سراح كالي، القاتل الجماعي في ماي لاي، من الحجز أثناء مثوله أمام محكمة الاستئناف.

تسميتها وإدانتها وإجبارها على المثول أمام المحكمة يوماً ما، قوى تقتل فلسفتُها الأملَ بمستقبل هذه البلاد، وتحكم على جزء كبير من شعبها بالقتل والتشويه المقصود، كل ذلك باسم الوحدة. كونوا صادقين واسألوا أنفسكم ما الجدوى من وجود دستور للسلوك عندما يكون الجيش موبوءاً بقتلةٍ يتباهون بكونهم قتلة حين تكون ضحيتهم من الإيبو، ويُعاملون، حتى في الفترة الوجيزة من حجزهم، معاملة السجناء فائقي الأهمية، يخرجونهم فترات تنفس نظامية تحت ذريعة (التحقيقات) ويحضون بالاهتمام والامتيازات حتى من أعلى موظفي السجن؟ (دستور سلوك) ضد عشرات الآلاف من الحالات المتباهية من هذا النوع؟ جنود أميون في معظمهم؟ أنا أسمي ذلك نفاقاً!

ومن أجل التنويع اخترت مادة إخبارية من صحيفة نيونيجريان بتاريخ 30 كانون ثاني 1967. العدد 330، نيونيجيريان، الاثنين 30 كانون ثاني الصفحة الخامسة.

الشنق لرجل والسجن لثمانية آخرين بجريمة قتل طفل.

حكمت المحكمة العليا في سوكوتو على رجلٍ بالإعدام وعلى ثمانية آخرين بينهم رجل شرطة محلي بأحكام سجن تتراوح بين عشر وثلاث سنوات بجريمة قتل طفل والقيام بتجمُّع ممنوع في سكوكوتو العام الماضي خلال الاضطرابات. الرجال هم ماي لابي إعدام، ليبامامات وعثمان سوكوتو عشر سنوات لكل منهما، ألكالي تانغازا ودونيا ماماني ودورنو والتيني وزاغي خمس سنوات لكل منهم بلارايلي داجي ثلاث سنوات. عثمان كان رقيباً في البوليس المحلي.

وفقاً لجهة الإدّعاء حدث بين 29 أيلول والأول من تشرين الأول السنة الماضية أن هاجم ماي لايي وآخرون بيتاً في حيّ غايو في سوكوتو حيث يقطن خفير في سجن حكومي هو السيّد يوسف أوشي من قبيلة إيغالا. ويقول الادعاء أن ماي لايي وعصابته اعتقدوا أن أوشي من قبيلة الإيبو، وحين لم يعثروا عليه بل على أخيه الأصغر أوجيبو أوشي الذي كان نائماً، قام ماي لايي بضربة على رأسه وذبحه بالسكين.

تعتقد المحكمة أن الرقيب عثمان لم يشارك غير أنه كان حاضراً على الحادث حسب اعتقاد المحكمة.

أخبر القاضي السيد جوستس هولدن الرجال أن باستطاعتهم الاستئناف إذا شاؤوا. انفضّتْ المحكمة العليا إلى إشعار آخر.

إن تجاور هذين الحدثين النموذجيين في هذا السياق المرعب الفظيع، سياق التعامل مع شعب بوحشيَّة لا شبيه لها في ذاكرة القارة السوداء؛ دمَّر كل محاولات التنصّل المرائية التي يقوم بها النظام. يقول هذا التجاور حقيقة بسيطة واحدة: على الأقل كان هناك جهاز عدالة أثناء وبعد المجازر الشمالية، وإن نقص عمل هذا الجهاز أو تعطيله كان قراراً مدروساً وانتقائياً من جانب حكومة غوون. إما أن هذا القرار يمثل إرادة الشعب النيجيري أو أن حكومة غوون مُدانة بالتآمر من أجل هدم إرادة الشعب. من جهتي أنكر الحالة الأولى. الأمر الذي لا يترك أمامي سوى خيار واحد هو اتهام يعقوب غوون وحكومته بالخيانة وتزييف إرادة الشعب النيجيري.

لكن ربما انتهى الموضوع أو أنه لم يحدث قط. ربما لم

يتعرض حوالي 50.000 نيجري للذبح والوحشية، ولم يتزح مليون ونصف المليون من السكان، ولم تحدث مجازر أو أن المجازر إذا حدثت إنما حدثت دون تخطيط. ربما لم تتوفر الآلية الكفيلة بوضع حد للمجازر، كما أن الحرب الأهلية التي نتجت عن ذلك ربما لا تعود في جزء منها إلى تدمير آلية العدالة والمساواة تدميراً متعمداً من قبل القيء التاريخي الذي استولى على السلطة. وربما أن هذه الإبادة الجماعية لا علاقة لها على الإطلاق بانفصال الإيبو.

وأخيراً ربما أن هذه الإبادة الجماعية لا يمكن أن تحدث ثانية، ومن البداهة أنها لن تتكرر أبداً.

على كل حال أنا أفضّل اتباع ملاحظتي الخاصة فيما يتعلق بالدوافع البشرية، لا أن أعمي نفسي عن حقائق التاريخ الذي يفرض علينا كاتالوغ تكراراته الوحشية. إن كلمات دي يد أستور في الذكرى السنوية لانتفاضة غيتو وارسو تلامس الجرح: «ترتبط الإبادات الجماعية نفسها بحالات قتل أقل فظاعة، حين تفهم المقدمات التي تقود إلى قتل شخص ما دون أية محاكمة فسوف تدرك على الأرجح المقدمات التي تقود إلى انحرافات أكبر بالمعنى الأخلاقي.. هذه الدراسة الواسعة يمكن أن تهيّئنا وتهيئ أولادنا لدحر الأعراض المستقبلية لهذا المرض بأي شكل ظهرت فيه.. . علينا أن نتعلم المزيد من آلية التفكير المخيفة والقاتلة التي تجعل الناس يشعرون أنهم ليسوا فقط محقين بل من واجبهم قتل الآخرين. لا نستطيع معرفة ما الذي يمكن أن يثير هذه الآلية في السيكولوجيا الجماعية. قد لا يكون الشكل التالي منها عرقياً أو دينياً، قد يكون سياسياً (كما حدث من قبل في أوقات الثورة والحرب الأهلية...).

إندونيسيا... أزابا. ماي لاي. باكستان... أزابا![1]

غير أن هذا الكتاب ليس في موضوع الإبادة الجماعية، إنه يدور بالأحرى حول حالة قتل أبسط. وبالأهمية النسبية فإن كل ما يستدعي القول في هذا الموضوع متضمّن عملياً في هذا القسم، باستثناء ما يمكن اعتباره اعترافاً بالذنب من جانب عصابة القتل. والباقي في معظمه محاورة خاصة مع حفنة من الأفراد ـ ذاك التجمع المتوالد من الضحايا الذين وجدوا أنفسهم وسيجدون أنفسهم أيضاً في معركةٍ ليس دفاعاً عن فكرة يؤمنون بها بل أساساً من أجل البقاء في تعايش مختلط. كما أن هذا ليس كتيِّباً عن البقاء، إنه سجلٌ خاص لأحد الباقين. لربما ساهم على الأقل في طرد النعاس عن ضمير العالم الراضي بوجود آلاف الأرواح ترزح تحت سلطة فاسدة، سلطة تحتاج، لكي تبقى، أن تحقن نفسها بأعمال لا إنسانية.

---

(1) والآن بوروندي.

3

بعد عودتي مـن اينوغـو[1] تعرّضـت لمطـاردة حثيثـة نظمتـها المخابرات العـسكرية والغـستابو مـن لاغـوس. أخـيراً اسـتـسلمت للاعتقال على يد رجل شـرطة نظـامي علـى مـدخل جامعـة إيفـي ضامناً بهذا ألا أقع في يد أيٍّ من ذينـك الجهـازين. بعـد الاعتقـال شغلني شاغل أساسي هو أن أؤخّر ترحيلي إلى لاغوس أطول فتـرة ممكنة بغية تنظيم عدد من التدابير الوقائيـة الأوليـة. المُـشادّة علـى حيازة جسدي ابتدأت بسرعة أربكت وأغضبت لاغوس، ثم تـدخل الحاكم العسكري للغرب، وهكـذا كـسبت أربعـاً وعـشرين سـاعة ثمينة من التأخير ولكن أخيراً وبعـد مفاوضـات هاتفيـة ومراوغـات وضمانات تمّ الاتفاق على نقلي إلى لاغوس برفقـة ضـابط بـوليس رفيع المستوى كي أقابـل غـوون. هـذا الاتفـاق عُقِـد بـين الحـاكم العـسكري للغـرب وغـوون. سـوف نمـضي بالـسيارة مباشـرةً إلى ثكنـات دودان وهنـاك سيـسألني غـوون سـؤالاً أو سـؤالين حـول نشاطاتي وفي اليوم نفسه يعيدونني إلى ايبادان.

سبق لي أن زرتُ الفرع ـ ي ـ وذلك أثناء سعيي الـدائم وراء جواز سفري الذي أنشأت شرطة الأمن معه علاقة وسواسية عقـب مناوشاتي البسيطة مع الحكومات منـذ حـوالي 1962. ومـع الـزمن تولدت بيننا علاقة ثلاثية كالعلاقـة بـين الـزوج والزوجـة والعـشيق ménage atrois.

(1) انظر القسم 23.

بعد أن أعلمهم نيَّتي بالسفر قبل فترة كافية وفي مقابل تصريح عن النوايا وتفتيش دقيق في المطار يصل حتى الخصيتين ،كان يُسمح لي باستخدام هذا المُزعج الخنوع المدعوك الذي ألححت دائماً على أنه حقي الثابت. لم يكن هذا التعايش يسير دائماً على ما يرام. هناك شيءٌ من غطرسة السلطة الذي لا تكاد تخفيه الوجوه العارفة في الفرع - ي . قادر على توليد العدوانية حتى في أكثر القرارات برودةً. الحيل السيكولوجية كانت واضحة للغاية حتى فيما يفترض أنه غرف انتظار حيادية حيث انتظرتُ الضابط المسؤول عن حالتي. في الغالب ليس للضباط هنا أسماء. فقط س7 أو ي5 ومع ذلك فإن هذا الكائن الرقميّ له هيئة بشرية، كلٌ ما فيه مُعَدٌّ لكي يفتن، كي يتظاهر بالجهل، كي يلتمع فجأة بفتاتةٍ سخيفة من المعلومات يتوقع منك أن تنكرها. مع ذلك تبقى دائماً تجهل لماذا وفي خدمة أي هدف هذا الإزعاج، طالما أن أي مخرّب سياسي يمتلك من الفطنة ما يمنعه من حمل وثائق تدينه في المطار، وما يمنعه من أن يحمل على جواز سفره أختام دخول وخروج إلى بلاد محظورة، أي شيوعية- ويعرف جيداً أن أفضل عنوان وراء البحر يمكن أن تقدمه إلى الفرع - ي - هو أي عنوان في المملكة المتحدة العجوز الطيبة. لكن هذه لم تكن سوى تمهيدات مفيدة: العجز الشالّ والمبدّد للذهن الذي تولّده هذه المقابلات، معرفة أن بإمكان فرد واحد أن يُمسك بالسلطة لكي يقيّد حركاتك كما يشاء دونما حاجة لتبرير سلوكه أمامك أو أمام المجتمع الذي تنتميان كلاكما إليه، وأن سلطة كهذه وجدت لكي تفسد حياتك الخاصة بالتضييق على تحركاتك وتعريض حياتك للخطر.

أُغلق الحاجز الصامت للفرع - ي - ورائي واقتادوني إلى مكتب كي أنتظر. كان ثمة حركات. لقد شعرت مباشرة لدى دخولي بصدمة ذاك الفرع. ثم سمعت أصواتاً تبيّن لي أن المفوَّض

القادم من إيبادان يتلقى التوبيخ من مخلوق تعرفت عليه جيداً فيما بعد. كان المفوض يعيد التأكيد على بنود مهمته في حين كان رجل لاغوس يخبره أنه لا يتلقى أوامر من أي شخص كان في إيبادان مهما كانت مرتبته. كان الصوت عنيفاً ومفعماً بإحساسه الخاص بالسلطة. عندئذٍ بُترت الأصوات مع صوت إغلاق بابٍ بعنف.

بعد ثوانٍ نظر رجلٌ قذرٌ له هيئة الغوريلا إلى داخل المكتب حيث كنت أجلس. تفحصني ملياً كما يتفحص المرء حشرة من أجل التثبيت بالفورمول وهو لا يزال مهتاجاً بتأثير سلطة انتصاره وإجهازه على رجل إيبادان. لم يكن عندي أدنى شك أن هذا هو صاحب الصوت المتغطرس. لم يتفوه بكلمة. ربما كان سمُّ لقائه مع رجل أيبادان لا يزال يتحلّب ويحتاج إلى موضوع ما كي يفيض. ربما خطر له أن يقليني على جمرات حنقه وهي تموت. بسرعة فائقة فتح الباب بعنف وراح يتفحص وديعته الطائشة وهو يتشبث بقبضة الباب ـ ربما نوى فعلاً أن يلينني بتلك التكتيكات المعروفة التي تعتمد زوبعة مفاجئة من العنف تطير الصواب: كل هذه الإمكانات كانت موجودة في دخوله الحاد. الظهور المخيف في مباغتته ـ وقد كان فعلاً يشبه غوريلا حانقة منفلتة، هذا الظهور المتجسِّد يقف في المدخل ويحدِّق. سيطرتُ على جفلتي اللاإرادية ولم يكن أمامي فرصة سوى أن أحدِّق فيه بالمقابل أولاً بطريقة متسائلة، لا حاجة لأن تثير عداوة هذه القرود، ثم، بعد أن واجهت سمّة في النهاية، تغيرت طريقة تحديقي فجأة إلى تعبير رجوتُ أن يوصل إليه أنني أقبل أيَّ تحدٍّ يشاء عرضه. وبنفس السرعة التي دخل بها اختفى ملوِّحاً بذراعيه المشعرتين، اختفى في مروحة السقف حسبما اعتقدت. بالتأكيد هناك قوةٌ ما ساقته إلى النسيان أمام عينيّ، كان عسيراً أن تتخيل أن سرعته تلك كانت ذاتية.

فيما بعد عرفت اسمه: ييسا أويجو، مفوض مساعد.

ثم دخل مفوض إيباداان بادياً عليه الأسف. لم نكن ذاهبين إلى ثكنات دودان. يبدو أن الأمر خرج من يديه... وراح يحكي ويحكي كلاماً ضعيف الترابط بفعل الإجهاد العاطفي. أكدت له أنني خمنت كل ذلك من الأصوات.

واثقٌ من نفسه مثل ديك، قدَّرت من النظرة الأولى أنه أحد الأغرار الذين حلوا محل الإيبو الذين تركوا مواقعهم المهنية. وهاهو يريد تأكيد ذاته، لا ريب في ذلك. أسلوبه مع المفوض، فوقيته مع مختلف الرتب كانت متعجرفة على نحو مدروس: استفسرت من هذا المخلوق الجديد لماذا أنا في فرع الأمن بدلاً من أن أكون في ثكنات دودان. رفع حاجبيه كأنه لم يسمع بهذا التعبير من قبل قط. كررت احتجاجي فرد عليّ بنزق.

- وماذا عندك تقوله إلى رئيس الدولة؟ هل تعتقد أنك تستطيع طلب مقابلة الرئيس بهذه البساطة؟

- عندي موعد معه. إنه ينتظرني الآن.

ـ ليس لدي علم بذلك. مطلوبٌ مني أن أوجه له بضعة أسئلة. باستطاعة أي شخص أن يأتي إلى هنا ببساطة ويقول إن لديه موعداً مع رئيس الدولة.

التفتّ إلى المفوض. استفاق هذا من الدوخان الذي كان لا يزال يغمره وتمتم مؤكداً كلامي. اكتفى الضابط الشاب أن كرَّر:

ـ قلت بألا علم لي بهذا. بإمكان أي شخص أن يدعي أن لديه مواعيد مع رئيس الدولة.

هنا اغتظت من فظاظة الرجل وقلت له:

- هل تريد أن تقول إن متقدِّمك يكذب. لقد أخبرك للتو إنني فعلاً على موعد مع الرئيس.

نظر (د) متسائلاً وهو يتصنع الجهل، كان هذا واضحاً. عندئذ فقط أقحم المفوض نفسه وقصّ الحكاية بالكامل بأسلوب مضطرب جعلني أسأم المشهد. غمغم الديك الشاب بسماجة نوعاً من الاعتذار... كان من المألوف لديهم في الفرع ـ ي ـ ألا يعرفوا وجوه المفوضين في المنطقة وقد كان هذا المفوض خارج البلاد لفترة من الزمن ـ كل هذا بتنازل عارض. نظرت بملل إلى هذا المفوض الوكيل... أوه. اذهب يا رجل. اذهب إلى زوجتك وعائلتك... غادر أخيراً وهو يشعر بالأسف والذنب حتى اللحظة الأخيرة بسبب تغيير البرنامج.

- هوِّن عليك، فقط تعاون معهم ما بوسعك وأنا واثق أنك ستجد نفسك في أيدٍ أمينة.

شعرت تجاهه بالأسف.

بدا أن الشاب عمل بالنّصيحة فقد (هوَّن على نفسه) حتى أنه اعتذر عن المشهد الأخير وشرح كيف أن الأوامر الرسمية تتداخل أحياناً. كان الأمن قد طلب مسبقاً من بوليس إيبادان العثور عليَّ وإحضاري بهدف الاستجواب، وهكذا فإن موضوع ثكنات دودان كان تطوراً يفترض أنهم لا يعرفون عنه شيئاً. وعرَّف بنفسه (بالمناسبة اسمي (د)) ووعد أن يتصل بمساعد غوون ليعرف حقيقة الأمر. راقبت كوميدياه الصغيرة في الاتصال الهاتفي، طبيعة أن مساعد الرئيس غير موجود ولكن بالطبع تُركتْ له رسالة كي يتصل مع (د) حالما يصل. (شيءٌ سعيد) لاحَظ (أعرفه شخصياً. في الواقع أتوقعه هنا في أي وقت من بعد ظهر اليوم).

لم تنتهِ الاعتذارات على أيّ حال. (د) يعتذر أنه لم يقرأ كتبي بعد، مع أنه سمع عني كثيراً (هذه وظيفة كريهة تكاد لا تملك وقتاً للراحة والقيام بأشياء لمجرد الاستمتاع بها. بالإجمال نصف ساعة جيدة قبل الشروع بالعمل. سجائر؟).

ـ أفضل دخاني المحلي (مورادا).

يشعل (د) سيجارته ويقدم لي ولعة ثم بشكل طارئ:

- بينما نحن ننتظر تلك المكالمة من مساعد الرئيس أقترح أن نتكلم في شيء أو شيئين، متى قابلت أوجوكوو آخر مرة؟

- منذ حوالي ثمانية أيام

دخل الموضوع في التكنيك (المباغت) الأسهل. الصمت ثم اللعثمة التي تلت جوابي ما كان لهما من سبب سوى دهشته. من الواضح أنه توقع مني الإنكار أو على الأقل نوعاً من المراوغة. أعطى نفسه الوقت كي يعيد النظر في أسلوب ولوجه الموضوع تاركاً الاستجواب ينحرف عند أول فرصة في قنواتٍ فرعية اعتباطية. ثم عاد إلى الموضوع.

ـ لماذا ذهبت لمقابلته؟

ـ شيء واضح. أليس كذلك؟ لا بد أنك قرأت مقالتي في الصحف.

ـ (أوه صحيح) يفتح درجاً في المكتب ويخرج مصنفاً مليئاً بالقصاصات (نعم قرأتها وقرأت الردود أيضاً. ما رأيك بالردود التي جاءت على مقالتك؟).

تكلم بنبرة تلذذ. بنبرة فيها نغمة (أظهر إعجابك بنا. ألم تكن بارعة تلك الردود؟) النغمة التي تبيَّن معناها بعد لحظات.

- يبدو أن هذه الردود جاءت من آلة دعائية شديدة التعصب. كل الأسماء المرتبطة بتلك الرسائل مزيَّفة .75% من الرسائل مكتوبٌ من قبل المجموعة نفسها من الكتّاب المأجورين.

- ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك إلى هذا الحد؟

- صعقني تشابه الأسلوب حتى أنني عرفت أصحابه.

- أوه. صحيح طبعاً. أنت رجل أدب.

- أجل. الأسلوب الأدبي بالنسبة لي مثلما هي البصمات بالنسبة لك أو طريقة اللص في تنفيذ عملياته. في الواقع نفس اليد الجماعية كانت واضحة في الرسائل المكتوبة ضد سولارين[1] أيضاً. هل أخبرك من هم الذين كتبوها؟

- من؟

ذكرت له المجموعة اسماً اسماً. ابتسم مبُعِداً المصنف.

- لا بأس. لا أستطيع قول أي شيء بهذا الشأن، ليست مشكلة على أي حال...

لكنها كانت مشكلة. لم يكن لدى ملازم (د) ما يكفي من رباطة الجأش في تلك المرحلة كي يتحمل حتى أبسط الصدمات التي يسببها وجود ثغرة في الأمن. كان التعبير الذي انطبع على كامل وجهه يقول: كيف عرفت؟ وماذا تعرف أيضاً عن نشاطات هذه المجموعة في خدمة النظام العسكري؟ شعرتُ أن من الأفضل أن أتركه في حالة تخلخل توازن لفترة قصيرة أيضاً. كان تفوّقاً

---

(1) واحدٌ من قلة من كتاب الزوايا الثابتين الصريحين في الصحف النيجيرية ومدير الثانوية الفريدية (زهرة أيار) في إيكيني. وهو (زبون دائم) على البوليس.

صغيراً مؤقتاً في المناوشة لكنها كانت لحظة مناسبة أجسُّ فيها نقاط الضعف الحقيقية والموهومة، هل لدى الخصم ضميرٌ مثقل بالذنب أم طموح، وإلى أيّ حدّ مثلاً كان (متورطاً) وإلى أي حدّ كان ملازم (د) مهماً في مجمل نوايا الرجال الذين أرادوا اعتقالي، وربما ما هو أسوأ من الاعتقال؟

- قل لي لماذا كانت لاغوس راغبة جداً بتصفيتي؟

- ماذا تقصد؟

ـ أرسلوا جنوداً إلى إيبادان لاختطافي والتخلص مني. كانوا مأمورين بالقبض عليَّ مهما كان الثمن.

ـ ما الذي يجعلك تظن أن الجيش يريد قتلك؟

ـ (قابلت صديقاً لي من الضباط الذين أرسلوا من لاغوس. هو الذي حذَّرني) كَذبتُ.

ـ (كلام صديقك فارغ. الذي حدث أننا طلبنا من الجيش أن يعتقلك وهذا كل ما في الأمر). قال (د) مستثاراً.

ـ هل كان يقتضي الأمر إرسال فريق خاص من لاغوس؟

ـ (ليست لدي أية فكرة إذا كان قد تم إرسال فريق خاص من لاغوس أم لا. طلبنا اعتقالك وقد يكون هذا هو ما سمعته أنت. ما حاجة أي شخص كان إلى قتلك؟) وبإيماءة قوية استبعد الفكرة على أنها منافية للعقل. (مهما يكن، أنت معنا هنا بأيد أمينة).

ـ (آمل ذلك) قلت وراقبته وهو يشعر بحدود دوره حيث لا يُسمح بأي انزياح مهم في المضمار المرسوم له سلفاً. لكنني نجحت في إطالة حالة الأدوار المعكوسة لبعض الوقت أيضاً.

ـ حيكت المؤامرة بتنسيق جميل. ابتدأت بهذه الردود «العفوية» على مقالتي. اثنتان من الرسائل تتهمانني مستخدمتين العبارات نفسها بالحرف، بأنني أدعو الجيش في القطاع الغربي جيش احتلال. أعلم أن لديكم هنا دفتر سميك من القصاصات يحتوي كل ما سبق لي أن كتبتُ، وكل ما يُزعم أنني قلت. قل لي إن كنتُ قد أعلنتُ مثل هذا الشيء؟

ـ الناس يكتبون أشياء من كل الأنواع. أقصد لا بد أنك أغضبت كثيراً من الناس بمقالتك.

ـ إدخال تلك الكذبة في متن الرسالتين كان عملاً مقصوداً يهدف إلى إثارة كره الجنود والضباط الشماليين. ما أوقح تينك الرسالتين في الإشارة إلى إدانة الإبادة الجماعية في الشمال! كنت أحسب أنهم سيسعدون بنسيان الأمر، لولا أن الهدف المباشر كان أكثر أهمية بالطبع.

بشكل غير منتظر اعترف (د):

ـ لم يكن ثمة مؤامرة. ليتك رأيت الأشياء الأخرى التي كانت معدة للنشر. بعضها كان أكثر إثارة للقرف حتى. شيء فظيع. ذهبتُ إلى «بريد الصباح» بنفسي وأخبرتهم أن هذا شيء زائد عن الحدّ. كانت معدَّة للطباعة ولكننا طلبنا إلغاءها.

كان هذا تطوراً أجهله، الغستابو يشرفون حتى على «رسائل القراء». تساءلت ما إذا كان اعترافه هذا يفترض أيضاً اعترافاً بتلك الأكاذيب. أحياناً تصبح عيناه داهيتين، ينظر إليك بجفون مسدلة وهو تربكه أفكارٌ سوى هذه الأشياء الآنية. لم أستطع تخمين أي شيء حتى انفجر فجأة، كما لو أنه يبذل جهداً لإقناع نفسه بعدالة تكتيكه:

ـ ولكن ما الذي يعطي أفراداً مثلك ومثل تاي سولارين الحقّ في أن يعتبروا أنفسهم يعلمون كل شيء؟ ما الذي يجعلكم تعتقدون أنكم في أبراجكم العاجية تمتلكون حلولاً لمشكلات

البلد؟ عندما تضع الحكومة سياسة معينة، ما الذي يجعلكم تعتقدون أن لديكم ما هو أفضل؟ أنتم مثقفون تعيشون في عالم من الخيال ومع ذلك تحسبون أنفسكم أكثر علماً من رجالٍ رازوا العديد العديد من العوامل كي يخرجوا بقرار.

ـ لا، بل أنتم في هذه القلعة ذات الطوابق الستة من ليس لديه علمٌ بالواقع. المثالان اللذان تتهم، تاي وأنا، وغيرهم، أكثر قرباً إلى الوقائع الصلبة من أي نظام أو موظفين يعيشون نصف أيامهم في الخوف من تحول الشعب ومن الانقلابات العسكرية.

ـ لكنكم أنتم على خلاف أيضاً مع مثقفين آخرين. ثمة مثقفون يدعمون موقف الحكومة.

ـ مثل من؟

ـ تردَّد: حسناً، لجنة العشرة. إنهم مثقفون مثلكم.

ـ حقاً؟

ـ ولم لا؟

ـ إنهم ليسوا مثقفين فهم يفتقدون أي نوع من القناعة أو الالتزام ما عدا بالطبع اللهو في أروقة السلطة. لماذا تأخذ مثل هذه المواضيع على محمل الجد؟

ـ وما الخطأ الذي ارتكبوه؟

ـ تفّهوا عقولهم على صغرها. هذا كل ما في الأمر. منذ أيام العجوز أكينتولا. هل تنسى دورهم خلال تلك الفترة؟

ـ ذاك زمنٌ مضى وانقضى. الجميع الآن يتجمعون ليضعوا قدراتهم في خدمة البلد. أحدهم الآن عضو في الوزارة.

ـ أجل اخترتم أقذر من في العصبة. أليس كذلك؟

ـ فيمن أوكونو؟ ماذا لديك ضده؟

ـ هل أنت جاد؟

لكن فاته تماماً أن يلاحظ الاحتقار في صوتي.

ـ بالطبع. يهمنا أن نعرف رأيك ليس فقط بالسياسات الرسمية وإنما أيضاً بالناس الذين يضعون وينّفذون هذه السياسات.

ـ هل هذا جزء من الاستجواب؟

كان احتجاجه قوياً (لا. لا. تخطئ إذا اعتقدت أن كل هذا استجواب. يهمنا أن نستطيع فهم أمثالك. أتمنى أن نخوض نقاشاً حقيقياً. سيساعدني ذلك. لماذا تكتب ما تكتب؟ لماذا تتخذ هذه المواقف؟ ما رأيك بالمسار الذي يختطه البلد؟ وما شابه. أريد أن أعرف رأيك بشخصيات الأمة: كبير القضاة مثلاً أورلوو، إيناهورو، تاركا، وحتى غوون).

ـ أنا لم أقابل غوون بحياتي.

ـ لا بأس قد تقابله قريباً. في الواقع أنا على ثقةٍ تامة أنه يرغب في مقابلتك وهذا يعتمد بالتأكيد على نتيجة نقاشاتنا.

زلّ لسانه عَرَضاً، ولكن ليس عرضاً إلى درجة أن يفوتك قصده كما أنه ليس مباشراً إلى حدّ المساومة.

ـ المهم أنك لم تخبرني فعلاً بما لديك ضد لجنة العشرة.

مِلْتُ برأسي وقلت: دعنا نقل ببساطة إنني لا أحبّذ بغايا السلطة.

ـ فهمت. إذن من هم المثقفون الذين تحبّذهم؟ أمثالك وأمثال تاي سولارين؟

ـ تاي لا يزعم أنه مثقف. إنه متعلّم ومصلح اجتماعي متفانٍ، لديه تفكير أصيل لكنه مشوش في بعض الأحيان. البلد بحاجة إلى الكثير الكثير من أصحاب التفكير المشوش لكن الأصيل أمثال تاي.

ـ لكن البلد ليست بحاجة إلى أمثال اكونو؟ برأيك أنَّ تاي يجب أن يكون في المنصب بدلاً من أوكونو؟

تنهدتُ ثانية.

ـ قل لي، هل تعلم شيئاً عن فيمي أوكونو؟ هل تعلم شيئاً عن البورجوازيين الانتهازيين الشباب من نمط أوكونو؟

ـ لا، أخبرني أنت.

مِلت برأسي:

ـ ستكتشف مع الوقت.

ـ لا، أريد أن أعرف منك. نحن نسألك عن آرائك.

ـ (لا. أفضل ألا أتكلم عنها) كررتُ (دعني أقلْ فقط إنكم حين تختارون رجلاً من هذا النمط ليكون جزءاً من فريق لصياغة السياسات الوطنية فلا غرابة أنكم تنتظرون وتريدون من المثقفين أن يكونوا إمّعات.

وفجأة سأل.

ـ ماذا تعرف عن القوة الثالثة؟

من الواضح أنه لن يكون ثمة المزيد من الاستطراد بعد ظهر ذلك اليوم.

4

أجلس في مكتب شاغر في الطابق الذي فوق مكتب الاستجواب. ملازم (د)، محققي، يتكلم بانفعال:

ـ ما أريده منك يا سيد سوينكا هو ببساطة أن تدوّن الأشياء التي قلتها لي. كل شيء عن نشاطاتك من أجل إيقاف الحرب. كيف بدأت وإلى أي حد وصلت والناس الذين تكلمت معهم أو تنوي الاتصال بهم... أنت تعلم كل التفاصيل وأي شيء قد تكون غفلت عنه. أنا متأكد أن قضيتك ستنتهي حالاً، فقط ساعدني ودوِّن كل شيء ومن ثم قد نعالج نقطة أو اثنتين فيها..

ـ هل لي بآلة كاتبة؟ خطي رديء للغاية...

كانت فكرتي الأولى في الأمر: يجب أن لا أكتب أي شيء بخط يدي، وأن لا أوقع على أي شيء. حتى دون التفكير باحتمالات الخطر الممكنة، كان يمكن تجنب كل المجازفات بأن أجعل للخط حيادية الآلة. تحرّك ملازم (د) بسرعة ذهاباً وإياباً بين المكاتب وبعد فترة قصيرة عاد، لم يستطع أن يجد آلة كاتبة إضافية. (لا يهم) قلت له وأنا أقول لنفسي (وكيف لا يهم؟) كل هذا المقدار من خط اليد يشكل مادة عمل وافرة بالنسبة لمزوّر خبير. أنا لا أفكر هنا ولو من بعيد بالتزوير من أجل الاستهلاك العام لكنني أفكر بخدعة بوليسية رخيصة: أن يبرزوا جزءاً من (الاعتراف) لشخص أصابه اليأس وأن يكسروا معنوياته بتلك الطريقة... (هاك، اقرأ بنفسك، لقد اعترف عليك في مذكرته، لماذا لا تخبرنا أنت بدورك؟).

الحذر. حتى التنفس يجب أن يكون حذراً ومدروساً. من الآن فصاعداً كل شيء محسوب. نظرة سريعة في أرجاء الغرفة بحثاً عن ميكروفونات مخبوءة أو فتحات تلصّص. ميكروفونات! ولكنك تجلس بمفردك يا رجل! ولكن قد يدخل عليك شريك زنزانة (متعاطف). لا بأس، فتّش عن الميكروفونات عندئذٍ. في هذه الأثناء فكّر في تركيب إفادتك. نظّم أفكارك. اختر ما تريد قوله ودوّنه. لا تشطيب بعد الكتابة، ذلك من شأنه فقط أن يثير الشكوك. ما الذي شطبته؟ ولماذا؟ الجلسة الأولى مع ملازم (د) تعتبر، كما هي، مخططاً أولياً. لا وجود لشيء اسمه محقق (متنوّر). فقط الأساليب تختلف. أي جهاز يعتمد الآلية السرية ضد الفرد، ذاك هو أسلوب الغستابو. عقل الغستابو يؤمن بالاعتقال أكثر مما يؤمن بالإفراج، وبالإدانة أكثر من العدالة. هذا البناء هيئة أركان للغستابو. ليس ثمة عبارة أخرى، ليس ثمة وجهة نظر أخرى. ومن أجل البقاء... بدأتُ أكتب.

في الوقت المناسب جاء من يذكّرني. للتو دخل إلى الغرفة ثلاثة رجال اعتقدت في البداية أنهم أخطأوا الطريق لأنهم كانوا يحملون أصفاداً وسلاسل ثقيلة لم أرَ لها شبيهاً إلا في متاحف تجارة العبيد. بدوا بُلهاء ومُرْبكين، انتظرت منهم أن يستديروا وينصرفوا مع اعتذار على الاقتحام لكنهم توقفوا وراحوا يحدقون إلي. أحدهم تنحنح وتلعثم بالخبر، لقد كانت لديهم أوامر بتقييد ساقيَّ بالسلاسل.

- هل أنتم متأكدون؟ وضعوني هنا لكي أكتب إفادتي!

لم يكن هناك أي خطأ مع أن ملازم (د) غادر منذ ربع ساعة فقط. لم يكن قد ذكر لي شيئاً عن السلاسل بالطبع. مددتُ ساقيَّ. قيدوهما بالأصفاد. ناءت ساقاي بثقلهما الجديد.

لم يكن الجلوس مرة أخرى شيئاً سهلاً. كان الشعور بالسلاسل شيئاً غير مألوف لم أستطع التأقلم معه مباشرةَ. نظرت إلى الأسفل إلى هذه الأشياء الغريبة بفضول حياديٍّ تماماً، رفعت ساقيٍّ ثانية لأستشعر وزنهما، حاولتُ المشّيَ وقمت بمئة تجربةٍ أخرى. المشي كان ممكناً وبتحديد أكثر لم يكن مشياً بل جرجرة أقدام. مرة أخرى موجةٌ من اللاواقعية، أعتقد أنني ضحكت بصوت مرتفع عند ذلك. انحنيت والتقطت السلسلة السائبة ورفعتها بيدي بقدر ما يسمح طولها الذي لا يتجاوز نصف المتر.

عشتُ تناقضاً حياً في كل هذا، تناقضاً في كياني، في وعيي الذاتي البشري وفي تعريفي الذاتي. في الواقع يمكن القول إن تعريفي الذاتي لم يتضح لي بهذا النقاء أبداً حتى هذه اللحظة حين رأيت هذه السلاسل على كاحليَّ. وكان تعريفاً سلبياً. عرّفتُ نفسي على أنني كائنٌ لا وجود للأصفاد بالنسبة له، على أنني في النهاية كائنٌ بشري. بمقدار ما يمكن القول إن الجوهر البشري يتخذ في بعض الأحيان طبيعة ملموسة، يمكنني القول إنني تذوقت وأحسست هذا الجوهر داخل تناقض تلك اللحظة. لم أكن شيئاً جديداً، يمكن إحساس هذا التناقض بالنيابة أو بالفكر أو من الذاكرة العرقية، إنه أمر محسوسٌ بحيويةٍ تكفي أن تولد ثوريين متّقدين من وسط أكثر الحيوات رَغَداً. القيود الثقافية والمجرَّدة مرفوضة أيضاً بنفس الحماس، لكن في التجربة الملموسة لا يقف المرء وحيداً، وعلى وجه الخصوص الرجل الأسود. بدا لي أنني قد أحسست ذلك منذ مئات السنين، كما أعتقد أنني خبرتُ انطلاق لحظةٍ، لا شك أنها تجسيد متجدد، حين لأول مرة رأيت في المدرسة نقوش مسيرات العبيد في كتب التاريخ. حتى عندما رأيت المجانين للمرة الأولى تحت رعاية معالجيهم التقليديين

والأغلال في أقدامهم لتلجم عنفهم، فإن درجة رفضي مثل هذا العلاج لامست على ما أعتقد حدود الذاكرة العرقية. بكل تأكيد لا يمكن لهذا أن يكون تجربة شخصية حصراً.

غالباً ما تعود إلي تلك اللحظة عندما دار المفتاح في الأقفال. أنا أجلس على كرسي ذات مسند ظهر مستقيم، ينحني الرجل على قدمي ليثبت الأغلال، الرجل الثالث يراقب الحيوان الخطر تحسُّباً من أن يهاجم. وقد دار في خلدي، ليس آنئذٍ، لا، الآن فقط بينما مشهد التكبيل يجري أمام عينيَّ، أننا جميعاً سود، وأن ملازم (د) هو الآخر أسود قد أعطاهم الأمر وهرب وأنني لم أكن (مُداناً) وسط مجموعة من السجناء المكبَّلين بسلسلة واحدة في جنوب ألاباما أو في جوهانسبرغ، ولكن لهذا العيب البشري قانونه في المكتب العصري من ناطحة سحابٍ عصرية في لاغوس الكوسموبوليتية في سنة 1967.

لا بأس، لأن الحالة كانت حقيقية، ولأن الحقائق الأخرى مثل الذهاب إلى المرحاض أو بسط ساقيَّ وأنا نائم أو تحريكهما لا إرادياً بعنف من لسعة بعوضة في الليل، لأن كل عوارض الحياة مثل هذه تُبرز وتقوي إحساسي بالحِليِّ التي في قدميَّ؛ ابتدأتُ دون أي مناقشة داخلية إضراباً عن الطعام. لقد كان أحد الترياقات الفعّالة لمزاجٍ ثائر، نصف ساخر ونصف جاد: أوغون، صديقي، اشهدْ كيف يقلّدون معدنك على نحو ساخر! حسناً، كان الجراحون القدماء يفصدون دم الإنسان السريع الغضب. وأنا تعلمتُ أن أُميت عنفي جوعاً حتى الهدوء.

نجح العلاج. مجرد اتخاذ القرار بالامتناع عن الأكل جعلني أسيطر حالاً على نوبة الغضب اللامجدية وعلى الارتعاش. كان ذهني يعمل ببرود مرة أخرى. الهدف المباشر. الهدف البعيد. الطارئ. ما الأثر الذي يجب توليده في ذهن الغستابو. ابتدأت

أصوغ إفادتي، موضوعٌ جديد يسيطر عليَّ الآن: توقُع محاكمة وقلب الأدوار المعهود. رؤىً من كتاب كاسترو «سيبرئني التاريخ». جاءت إفادتي تأكيداً كثيفاً على دوري في تنظيم مجموعات ضغط بهدف وقف تزويد كلا الطرفين المتقاتلين بالسلاح. كتبتُ بطريقة تحثهم على تقديمي إلى محاكمة على أساس أن نشاطاتي كانت معادية للحكومة. في غضون ساعتين أو ثلاث أكملت كتابتي وتحوّلت إلى كرسي بذراعين، ألقيت نظرةً أخرى على السلاسل وحاولت أن أستسلم للنوم.

خَبْطة. إنه الطبَّاخ المتعاقد مع الغستابو لإطعام مئة نزيل لا يزالون تحت التحقيق، يقوم بجولته. شكراً لا أريد. ظنَّ الحارس في الخارج أنني أريد وجبة (أوروبية) يفترض أنها الإطراء الأقصى لأهمية سجين أو معتقل. لا؟ لا تريد حتى علبة سردين؟ خبز؟ حليب؟ قلتُ: من المجازفة أن تطعم الحيوانات المكبَّلة، أنت تعلم. قد أكتسب قوةً وأكسر هذه الحليّ الناعمة.

مساء. كان الفرع - ي - شديد الازدحام. جميع المكاتب، غرفة المكتبة، وحتى بسطات السلالم استخدمت بمنزلة غرف استجواب. طوال اليوم كانت اعتقالات الإيبو والمتعاطفين المشبوهين تجري بالمئات. كان الاتهام سهلاً ومألوفاً. أعدادٌ كبيرة جيء بها إلى الفرع بناءً على همسةٍ إلى البوليس. بعضهم، من غير الإيبو على الأغلب، جاء وقد هزمهُ الإرهاب سلفاً، منهكاً يستجدي فرصة ليدافع عن نفسه. على مدى المساء كنت أسمع أصوات وصول دفعات جديدة، رجال ونساء. للكلمات وتيرةٌ واحدة، احتجاجات واتهامات مضادة (لم اقل هذا الكلام أبداً. لست بكاذب. أنا لا أقول مثل هذا الكلام).

ليل. مقابلة قصيرة غريبة. غلبني النعاس. فجأةً انفتح الباب صفقاً وانقذفتْ امرأة إلى الداخل (ابقي هنا واخرسي). وأعطى الضابط أوامر بحجز أناس آخرين في مكاتب مختلفة. عرفت من لهجتها أنها من الإيبو. لم أشهد في حياتي قبل ذلك مثل هذا الرعب في امرأةٍ. انقضى بعض الوقت قبل أن تدرك حتى أن هناك كائناً آخر في الغرفة. في البداية ظنتني ضابطاً أو ربما الجلاد المكلف بها، فأخذتها الصدمة إلى الزاوية الأخرى من الغرفة، ومن هناك راحت تحدّق إليّ بعينين كبيرتين مرعوبتين وحنجرة مرتشعة توشك أن تُفلت صرخة. ثم انزلقت عيناها إلى الأسفل فرأت السلاسل. رأيت جسدها يلين ويتعاطف تقدَّمتْ تتلمس بيدها الطاولة كما لو أنها تتأكد من ماديّة الأشياء. راقبتها بصمت. لم تعد بحاجةً إلى تطمينٍ آخر مني، رؤية سلاسلي فعلتْ ما لم يكن بمقدور الكلمات أنْ تفعل لها، هدّأتها. ولكن عندئذٍ رأيت تغيراً جديداً في وجهها. فجأة توقفتْ كالصنم غير مصدّقة. عرفتني. علمتُ ذلك حتى قبل أن تتكلم. ألستَ... ألستَ وولي سوينكا؟ أومأتُ برأسي. من وجهي إلى ساقيَّ ثم ثانية إلى وجهي. وقفة قصيرة لاستيعاب الأمر، ثم انهارت باكية.

لا بد أن الحارس غادر في هذه الأثناء للمساعدة في تدبير التدفق البشري الجديد، حين عاد نظر إلى الداخل لحظة ثم قال لاهثاً: (ماذا تعمل هذه هنا؟) وصرخ في الممر طالباً الضابط المناوب. يفترض ألا يكون أحد في الغرفة مع ذاك المشبوه! حين اندفعوا جميعاً إلى الغرفة كانت المرأة قد كفت عن البكاء. الضابط المناوب كان كلُّه أسفاً. لم يكن يعلم أن ثمّة أحداً هنا. أخذوا المرأة وهي أكثر هدوء وقوة. عند الباب التفتت ونظرت إليَّ بطريقةٍ تريد أن تتأكد إذا كنتُ قد لاحظت وعلمت أنها لم تعد مروَّعة بعد

الآن وأنه لا شيء سيرعبها ثانية أبداً. قدَّرتُ التفاتتها وتساءلتُ ما إذا كانت قد أدركت أيَّة قوةٍ اكتسبتُ من لقائها.

عاد (د) متأخراً في الصباح التالي.

ـ لماذا أنت مضربٌ عن الطعام؟

ـ أنا لست مضرباً؟

ـ (لا؟) بدا حائراً (أخبروني أنك لم تأكل ليلة الأمس ولم تأكل هذا الصباح).

ـ أوه، تقصد هذا! لقد أسيء فهمي. إنه ليس إضراباً عن الطعام على الإطلاق.

اهتمامه الفوري كان مؤثراً:

ـ ماذا بك؟ هل أنت مريض؟

ـ لا. أنا بخير. مجرد إجراء احترازي بسيط هذا كل ما في الأمر.

منفعلاً الآن:

ـ أنت تخشى أن نسمِّمك.

ـ لو تسمح لي بتوضيح الأمر. إنها هذه السلاسل ـ كلا أنا لا أمانع بهاـ إنها مريحة تماماً في حالة الجلوس. لسوء الحظ لا يستطيع الإنسان تجنب مشوار الذهاب إلى المرحاض، أنا أتجنب ذلك كما ترى. أو أقلل ذلك بالامتناع عن الأكل.

ـ ولكن لا يمكنك الاستمرار دون طعام.

أشرتُ إلى كأس الماء على الطاولة:

ـ فقط كأس ماء في اليوم كافية تماماً. بعد ذلك قد لا أحتاج إلى الذهاب أبداً. الإفادة على الطاولة.

أخذ كتابتي وانصرف:

ـ أرى ما يمكن عمله.

لا شيء جديد في ذلك اليوم. بقيت السلاسل لليل الثاني على التوالي. الصباح الثالث جاء (د) لطرح بعض الأسئلة كما قال. دخل مبتسماً:

ـ أرجو أن تكون قد بدأت تأكل الآن؟

ـ لا. لم يتغير في الوضع شيء.

نظر إلى قدميَّ فرأى أو تظاهر أنه يرى السلاسل لأول مرّة استدعى الحارس بغضب، أو بغضبٍ مزيّف، وسأله لماذا لم ينزع عني السلاسل. شرح له الحارس أنه لم يتلق أية تعليمات بهذا الخصوص.

ـ اذهب وأحضر المفاتيح وأزلها في الحال!

اختفى الحارس.

ـ «أنا آسف لهذا وولي» وولي، نعم منذ هذا الصباح صار يخاطبني بوولي (الليلة الماضية أعطيتهم تعليمات بنزعها عنك. حالما تنزع عنك وتتناول بعض الطعام أودّ أن ندردش مرة أخرى سأرسل أحداً لإحضارك).

أزيلت السلاسل ولكنني كنت قد عبرت تلك المرحلة الحرجة التي أحبّ أن أسميها معركة جراثيم البطن. ما أن زال ذاك الشعور الواخز حتى تحوّل الصيام إلى عَوْم. جعلني التمرين في حالة انتظام هادئ ولا مبالاة فقررت أن أستمر بوتيرة أخفض، أن أشرب علبة حليب مخفقة بالماء كل يوم. أرسل الحارس أحداً لإحضارها.

لم أشرب الحليب أبداً. بعد ساعة دخل (د) كالعاصفة غاضباً.

ـ كيف حصل أن الصحف الأجنبية تحمل نبأ اعتقالك؟

حدّقت إليه بانشداه:

ـ وما علاقتي؟

ـ كيف أمكن لهم أن يعرفوا؟ ولماذا كل هـذه الدعايـة؟ فهـم منذ الآن يلمحّون إلى أنك تتعرض لمعاملة سيئة. آمل أن تـدرك أن هذه الدعاية لا تفيد قضيتك في شيء. إنهـم بكـل بـساطة يجعلـون وضعك أكثر خطورة.

ــ أي قـضية وأي وضـع بالـضبط. إذا كنـتُ بريئـاً مـن كـل شكوككم بي فما الفرق الذي تدخله الدعاية الأجنبيـة أو المحليـة؟ أم أنك تعترف الآن أنكم تسلّمون سلفاً بأنني مذنب؟

ـ نحن لا نسلم بأنك أي شيء....

ـ اسمع. أنا لست مغموراً. حتى اللـصوص المغمـورين ينـشرون حادثة اعتقالهم، أم أنك تزعم امتيازات خاصة للغستابو النيجيري؟

ـ لا أحد يزعم أي شيء.

إما أنه لم يسمع أو أنه تجاهل وصمة الغستابو.

اضبط نفسك.. اضبط نفسك.. يبدو أنه هـو أيـضاً يـسدي إلى نفسه النصيحة نفسها.

ـ انظر وولي، نعلم أنك شخصية لها شهرة عالمية، لكن هذه الصحف الأجنبية مولعة بالأذى بشكل طبيعـي، أي فرصـة لفـضح السلطات...

شاب وانفعالي ومتردِّد وضحية معضلات منصبة. استمر يحدث نفسه تحت وطأة عدم فهمه ما يجري. كان قد اندفع بعد كل شيء إلى الغرفة بنبرة اتهام وإدانة وشيء من الابتزاز.

(لا أدري في الواقع ما الذي تنتظره مني) تذمّرتُ (لا أستطيع أن أخرج وأتكلم إليهم. بالطبع تستطيع دائماً أن ترتب مؤتمراً صحفياً وتقدمني....).

بعد ساعة أعطى الأوامر بترحيلي إلى سجن كيري كيري.

5

فضول. حيرة. اهتمام خاص. عيون السجناء تقتات على القادم الجديد. كنت قد قضيت وقتاً في زنازين البوليس، في حجوزات انتقالية، لكني لم أكن أبداً في مجمَّع كامل يدعى سجناً. التلاؤم كان لا واعياً، إيقاع جسدي متراخٍ سلفاً، فجعلته أكثر تراخ أيضاً.

ـ أنا في حاجة ماسّة لإرسال مبلغ من المال إلى عائلتي. هل يمكنكم أن تؤمنوا لي الحصول على شيك؟

ـ لا. أنت معتقل. علينا أن نأخذ موافقة البوليس قبل أن نقدم على أي شيء، إنهم صارمون جداً في هذا.

ـ كتب؟

ـ يمكنك الحصول على الكتب التي جلبتها معك إلى هنا. كما أن هناك نوعاً من مكتبة في مكتب المدير.

لا شيء أسهل من التحوُّل إلى روتين السجن. تشابهه العام مع الحياة الخارجية تجعل القبول أسهل في الأسبوع أو الأسبوعين الأولين. مثل الذهاب إلى مأوى أو دير (لأسبوع أو أسبوعين مرّة ثانية) هناك تنوع بشري لكني لا أريد الصحبة، فقد كنت بحاجة ماسة إلى الانعزال مع أفكاري. لقد احترموا حاجتي هذه وقدَّروها باستثناء واحد فقط.

مبنى صغير، عشر أو اثنتا عشرة زنزانة. عدد السكان لا يتجاوز الثلاثين كثيراً. كان يعرف باسم (الزنزانة الخلفية) وهو في الواقع مبنى العقوبات. ولكن منذ أن درجت موضة السجن بلا

محاكمة وتضخم عدد نزلاء السجون صارت زنازين العقوبات في كل البلاد مبانٍ للمعتقلين الخاصّين. كان بين النزلاء معنا مجموعة من (عمالقة) جماعة العمل السابقة الذين تلقوا تدريبهم في غانا. بتلك السذاجة السياسية الشائعة لدى البلهاء الذين يحلون كالأوبئة في جثة السلطة في القارة الإفريقية، قام النظام الجديد في غانا بإرسال صورهم ومعلومات شخصية عنهم إلى الأمن النيجيري بعد سقوط نيكروما. وجرى تجميعهم في نيجيريا ولهم الآن أكثر من سنة في المعتقل. أصيب أحدهم بخلل غريب في رأسه، يتكلم مع نفسه طوال الوقت ويتلفظ بشتائم فاحشة ضد أعداء لا مرئيين. ذات يوم أصابه سُعْار...

وكان معنا أيضاً أحد المدانين مسؤول سابق في (الحزب الديمقراطي القومي النيجيري) وهو مُدان بالاختلاس في مكتب عام للإحسان والمعروف، خاص به. سجين من طبقة خاصة ومخبرٌ أيضاً. اكتشفت ذلك حتى قبل أن يرى الآخرون ضرورة تحذيري.

وكان هناك / تايغر بدرو/ وهو متحرّش جنسي يعترف بذلك صراحة. كان يصرُّ على أن يروي لنا قصة حياته. عندي عضو حسَّاس، كان يقول ليست غلطتي، الله خلقني هكذا. أنا أعرف ضعفي...

ما عدا المختلس من (الحزب الديمقراطي القومي النيجيري) كان هناك نزيلان آخران من طبقة خاصة. جنديان معتقلان أحدهما رقيب والآخر عريف. منزلتهما في ذاك السجن أثارت فضولاً مباشراً. كان لهما وضعاً خاصاً، يعاملهما موظفو السجن بعناية كسجناء بالغي الأهمية. كان ينظر المعتقلون والسجناء إليهما

بارتياب ولكن مع ذلك بحسد وبشيء من التودّد. فقد كان هذان الجنديان يفتحان رسائل غير مراقبة ويعودان من (تحقيقات) تستمر طوال اليوم. تفوح منهما رائحة المشروب وهما ينكشان أسنانهما وجيوبهما تطفح بالسجائر وجوز الكولا ومئة مادة مهربة أخرى كما أنهما يتنمّران على موظفي السجن ويتذمَّران من التقصير بالكثير من امتيازاتهم.

استفسرت من أحد الخفراء ما إذا كانت هذه هي المعاملة العادية مع المعتقلين العسكريين، كان جوابه: لا. فهناك معتقلون عسكريون آخرون في سجن كيري - كيري كما في سجن / الأمن الأقصى/ ولم يكن أحدٌ منهم يتمتع بمثل هذه الامتيازات باستثناء الضابط. ولكن هذين الجنديين هما الجنديان اللذان انتُشلا من محاكمتهما في جريمة قتل في إيبادان بأوامر من أعلى السلطات العسكرية.

بعد ثلاثة أيام كان الغستابو مستعداً لي مرة أخرى.

6

أصبح ملازم (د) جائعاً لمعرفة الأسماء، أسماء، أسماء، الأسماء بضاعة مغرية جعلته نهماً نمطياً على حين غرة.

ـ أجل، أجل النقاط التي كتبتها لنا مهمة للغاية ولكنك مُقصّر جداً بخصوص الأسماء. أليس كذلك يا سيد سوينكا؟

صححت كلامه بلطف مشيراً إلى الأسماء الستة التي ذكرتها في إفادتي.

ـ آ. لكنهم جميعاً خارج البلد.

ـ على الإطلاق. أنت قلت إن أمينو[1] وصل الآن إلى البلد.

ـ صحيح، ولكن تلك هي النقطة الأخرى. فكل الأسماء التي قدَّمتها لنا هي أسماء أناس لم يفعلوا شيئاً في الواقع، على الأقل وفقاً لكلامك. إنهم أناس جنّدتهم أو حاولت تجنيدهم في حركتك هذه ولكن، وفقاً لما تقول، لم يتم إنجاز شيء. هل أفهم منك أنه لا وجود لنيجيريين مقيمين هنا في لجنتك هذه؟

ـ لو أتيح الوقت، نعم. ولكنكم اعتقلتموني قبل أن أبدأ. اندلعت الحرب وأنا في الخارج.

---

(1) أمينو عبد الله، شمالي، كان أحد النيجيريين الذين حاولت تجنيدهم في لندن من أجل الحركة المضادة للحرب. أرسل إلى نيجيريا من قبل إحدى المنظمات بغرض السعي لإطلاق سراحي. أثناء نقاشاتنا في لندن عَرَض أن يذهب بنفسه إلى أوجوكوو لكننا رأينا أن ذلك يعرضه للخطر على اعتبار أنه شمالي وأن الحرب كانت قد اندلعت فذهبتُ بدلاً منه.

ـ مع ذلك فإنك تحدثت إلى أناس هنا.

ـ بالطبع. تناقشت مع أناس من كل الأصناف.

ـ لم تذكر أسماءهم في تصريحك.

ـ لا أجد ذلك ضرورياً. أنا أشير هنا إلى نقاشات طارئة.

ـ لا بأس. أعطنا بعض الأسماء.

ـ لا أفهم كيف يمكن أن أعطيك أسماء كهذه. فأنا أناقش أي موضوع مع أيّ كان واعبّر عن نفسي بصراحة مع أي شخص. في الواقع قيل لي إن ذاك يشكل إحدى مشكلاتي.

ـ لكنك لا تعبّر عن نفسك بصراحة معنا الآن.

ـ ابتدأت أعتقد أنني كنت صريحاً معكم أكثر من اللزوم بكثير طالما أن ذلك يجعلك تلحّ علي كي أجرّم أناساً بريئين.

ـ لم أطلب منك فعل ذلك.

ـ النتيجة واحدة. أليس كذلك؟ أنا أعطيك اسماً واحداً وأنت تعتقد أنّ من واجبك أن تعتقله: ماذا ناقشت مع وول سوينكا في اليوم الفلاني؟ ولماذا؟

ـ (سيد سوينكا) عدنا إلى سيِّد (أخشى أنك لست متعاوناً تماماً).

ـ بل أنا أكثر من متعاون.

ـ لا. لستَ متعاناً. سأعطيك مثالاً آخر. تقول هنا إنك شكّلت لجنة لشنّ حملة على الصعيد العالمي ضد استيراد نيجيريا للأسلحة. أنت تدرك، بالمناسبة، أن ذلك عملاً خيانياً تقدم عليه؟

ـ أنا أرفض هذا.

ـ ألا تعتقد أن ذك يساعد المتمردين. كيف يمكن خوض الحرب بدون سلاح؟

سيستخدم المتمردون نفس الحجة، بعدالة، ليثبتوا خصوصتي لقضيتهم.

ـ عملياً نحن لا نكترث بآراء المتمردين.

ـ أنا أكترث. سبق أن أعلنتُ أن هذه الحرب غير مبررة أخلاقياً.

ـ هل أنت من دعاة السلم؟

ـ بالتأكيد لا.

ـ أنت تقبل بعض الحروب الأخرى؟

ـ لا بأس. ودائماً كملاذٍ أخير.

ـ ما نوع الحروب التي تدعمها على سبيل المثال؟

ـ أي حرب دفاعاً عن الحرية.

ـ وما رأيك بشعب الأنهار الذين اقتيدوا مرغمين إلى ما يسمى بيافرا؟ ألا تعتقد أنَّ من واجبنا إعطاءهم حريّتهم؟

ـ أنا لا أدعم انفصال بيافرا، أنا أدعم بوضوح نظام الولايات فيما يخص الأقليات.

ـ كيف تريد إذن وضع حدّ للانفصال؟

ـ ليس بهذا النوع من الحرب.

ـ كيف؟ هل لديك أفكار على الإطلاق سوى مجرد القول إنك لا تدعم هذا وأنك لا تدعم ذاك؟

ـ لو لم يكن لدي اقتراحات عملية وملموسة لما طلبت مقابلة غوون ولما ذهبت للتحدث إلى أوجوكوو.

ـ حسناً تفضّل ما هي هذه الاقتراحات؟

ـ سأقولها إلى غوون حين أقابله.

ـ أخشى أنه لا يوجد ضمانة لذلك. إذا تكلمت عنها الآن يمكنني أن أنقل رسالتك ولا أشك أنه سيرغب بلقائك.

ـ قلت لك أنا أمثل مجموعة مستقلة. رسالتي موجَّهة إلى غوون وأوجوكوو. أنا غير مفوض إطلاقاً في بحث الموضوع مع البوليس.

ـ لا بأس يا سيد سوينكا، دعنا نعود إلى حملتك الهادفة لحرمان الحكومة الشرعية من وسائل إنهاء الانفصال الذي تقول إنك لا توافق عليه. هل أنت فعلاً تدَّعي لنفسك الحق بأن تأخذ على عاتقك الشروع بدبلوماسية عالمية على هذا المستوى؟

ـ تجربتي أصلاً تجربة عالمية.

ـ فهمت. الرجل الذي تذكر أنه أول من أوحى لك بالفكرة له اسمٌ غريب.

ـ إنه برازيلي.

ـ وتقول إنه نيجيري؟

ـ ولد ونشأ في لاغوس.

ـ أنا أقول لك إنه غير موجود.

ـ بل إنه موجود.

ـ فإذن هذا الرجل يسمع أنك في نيويورك ثم يهتف لك. إنه رجل مجهول تماماً...

ـ سبق لي أن قابلته.

ـ آ. صحيح. هكذا تصرّح هنا. رجل أعمال، كنت أظن أنك كاتب. هل لديك مشاغل كثيرة مع رجال الأعمال، خصوصاً الفاسدين أمثال هذا؟

ـ فاسد؟ كنت أحسب أنك ستكون ممتناً له ولي. كان باستطاعته أن يدعم البيافريين لكنه لم يفعل.

ـ إذا كان صادقاً.

ـ أنا قبلت كلمته. لماذا يكلّف نفسه الاتصال بي لو لم يكن صادقاً؟

ـ ربما يعلم أنك تدعم المتمردين.

ـ هل تراني أدعم المتمردين؟

ـ ذلك ما أريد معرفته. هذا الرجل يأتي إليك ويخبرك قصة ما أنزل الله بها من سلطان حول أن البيافريين طلبوا مساعدته في موضوع التسلُّح وأنه يرفض بالرغم من فرصة تحقيق ربح جيد. تريد أن توحي إلي أن رجل أعمال أمريكي يمكن أن يدع فرصة ربح تفلت من يديه؟

ـ إنه غير أمريكي.

ـ إذن تربية أمريكية. له أعمال في الولايات المتحدة أليس كذلك؟

ـ أعرف الكثير من الوطنيين النيجيريين الذين يرفعون أصواتهم بالجمل الطنَّانة وهم على استعداد لبيع السلاح إلى البيافريين لو تتاح لهم الفرصة.

ـ ربما كان صديقك واحداً منهم. فهو نيجيري أيضاً. أليس كذلك؟

ـ منذ شهر كان أمريكياً.

ـ أو برازيلياً. من يعلم؟ قل لي يا سيد سوينكا هل اتصل هو بك أم أن المبادرة جاءت منك؟

ـ سبق أن أخبرتك. ظهرت صورتي في النيويورك تايمز في مقابلة صحفية وكنت هناك في شأن يتعلق بأحد الأفلام. استعلمَ عن فندقي واتصل بي.

ـ لماذا؟

ـ قلت لك للتو كي أرى صديقاً قديماً لمناقشة هذه المقابلة مع وكلاء بيافريين.

ـ أراد أن يعرف رأيك؟

ـ أجل. وأنا أعطيته رأيي وهو قَبِله. وكنا متفقين على هذه النقطة الوحيدة، وهي أننا نرغب لو أن هذه الحرب تُخاض من قبل جميع الأطراف بالأقواس والنشاشيب. اتصلت مع بعض الأصدقاء في الأمم المتحدة وانضمُّوا إلى النقاش وشكلنا مجموعة ضغط لإعاقة أي تزويد بالأسلحة لكلا الطرفين. الوقائع موجودة في إفادتي.

ـ آ. أجل هذان الاسمان غير مذكورينماء أناس، لا يمكن الوصول إليهم، إما أنهم غير نيجيريين أو أنهم لا يقيمون في البلد.

ـ ولكن. لماذا تريد الوصول إليهم؟. أترى ماذا أقصد يا سيد سوينكا؟ أنت لا تتعاون. كلما وصلنا إلى موضوع الأسماء لا تقدِّم لنا سوى أس.

ـ لماذا؟ ألا تريد أناساً يستطيعون تأكيد قضيتك؟

ـ قضيتي؟! لكنك لم تتهمني بشيء. إذا كان العمل ضد الحرب جريمة فأنا اعترفتُ بذلك، فما الذي سيؤكدونه؟

ـ لا يمكنك أن تقول جاداً أنه ليس لديك متواطئون نيجيريون.

ـ متواطئون يا ملازم (د)؟

ـ أنت تفهم قصدي: رفاقك.. أنصارك.

ـ أخشى أنه ليس لدي منهم أحدٌ هنا.

ـ إنك تصعّب الأمور على نفسك. أنت لا تتعاون على الإطلاق.

يدخل، وفق الدور المرسوم له، خصمٌ قديم هو أوغوي، النائب العام في محاكمتي المؤجلة في قضية محطة إذاعة 1965. كان صوته ذا طبيعة باكية وكانت تنبثق طيبته من إيمان مسيحيّ أصيل، مع أنه بالطبع يمكن أن يكون فظّاً وقاسياً كما تقتضي مهنته. راقبته وهو يدخل ويخرج من كونه رجل بوليس، وبدا لي أنه لم يفقد البتة نوعاً من إنسانية قريبة من الورع. قد يكون من النوع الذي لم يسبق له أن كان خسيساً في التعامل مع المتهم (في لحظة من الاضطراب اليائس، اضطر (د) أن يعترف أنه فعل ذلك أحياناً). استند أوغوي إلى الباب مُصغياً إلى بضع دقائق أخرى من استجواب روتيني. واضح أن دخوله كان توقيت مدروس وأنه كان ينتظر فقط العبارة الصحيحة كي يبدأ في أداء دوره. كان ليّناً في البداية بصورة طبيعية وراح يتكلم بشعور صديق حميم، عاطفياً إلى حدٍّ يثير البكاء. طلب مني مطوّلاً أن أكون (متعاوناً) مذكّراً إياي بعائلتي وأطفالي وأخيراً انتقل إلى الهدف الحقيقي من زيارته، ملامساً بنعومة إمكانية (المكافأة) مثل وزارة في الحكومة[1].

---

(1) اتخذ هذا العرض فيما بعد شكلاً أكثر صراحة وأكثر مباشرة في زيارة ليلية غريبة قام بها ضابط كبير زعم أنه قادمٌ من القمّة مباشرة ومُخوّلٌ بعقد الصفقة. دوري في الصفقة أن أوقع على تصريح بأنني أرسلت إلى إينوغو من جانب سياسي معين، كان في الوزارة المدنية. لا يسعني إلا أن أسرد هذه الجلسة كاملة، مع العنف الذي مُورسَ عليَّ نتيجة الإحباط الحيواني الذي واجهه ذلك الضابط، أو أن لا أسردها على الإطلاق. الخيار الأول مستحيل سياسياً في هذه اللحظة. فكرة تلك المساومة أن يتمّ على إثرها إجبار ذلك السياسي على الاستقالة وإجراء تعديل وزاري وإحداث حقيبة للثقافة من أجلي.

كانت موعظة بكائية طويلة، ورعة وذات مغزى، مليئة بالإشارات إلى النشاطات الخيانية الأخيرة التي قام بها البيافريون في مجيئهم إلى منطقة الغرب الأوسط، منطقته هو، زارعين الدمار. تركني مع هذه الأفكار النبيلة التي بنبرتها، أشعرت (د) أيضاً، أنه يجب أن أرتاح قليلاً فأرسل من رافقني إلى زنزانتي. ولضمان ألا أنسى الموضوع المطروح للتأمل دخل الغرفة ثلاثة أشخاص مألوفين. السلاسل.

- ما هذا مرة أخرى؟ اعتقدت أن مسألة السلاسل سوّيت.

- لدينا تعليمات بتكبيلك يا سيد.

- ولكن ملازم (د) وافق على نزع السلاسل نهائياً.

- أخشى أنَّ هذه هي التعليمات.

- تعليمات من؟

- الضابط المناوب. وهو يقول إن هذه هي تعليمات مُلام لك. أن تبقى مكبلاً بدءاً من المساء.

عضّت الأقفال على كاحليّ وقبل وصول (د) في الصباح التالي أزالوا السلاسل عني. سألته: ما الهدف من كل هذا. بدا مندهشاً:

- هل حاولوا تكبيلك؟

- أجل. من المساء.

- أوه. ولكن أ. أ.... أنا اعتقدت أنك فهمت. يجب إبقاء السلاسل بدءاً من المساء. متى قيَّدوك؟

- الساعة الخامسة والنصف.

ـ غير معقول. سأتدبر ذلك بحيث يتأخرون في تقييدك. الخامسة والنصف وقت نهاري.

ـ فقط أخبرني، لماذا تجد من الضروري أن تقيّدني.

ـ تلقينا معلومات تفيد أنك قد تحاول الهرب.

ـ الهرب؟ من الطابق الخامس من هذه القلعة؟ وعبر أي منفذ؟ ثم من أين لكم هذه المعلومات؟

ـ هذه معلوماتنا.

ـ في هذه الحالة أنا أستأنف صيامي.

ـ كما تريد. أنا لا أنصحك، فذلك لن يفيدك بشيء.

الهرب! حتى في تلك المرحلة ابتدؤا بإرساء الأساس.

استمرَّ الاستجواب الفظّ يومين آخرين متصاعداً في قسوته. أسماء! أسماء! أسماء!! قائمة الأسماء المُعدَّة مرت بتتالٍ سريع. متى قابلت (س) آخرة؟ بماذا تكلمتم؟ قلت من قبل بأنك قابلته آخر مرة في لندن. لا لم أقل ذلك. يتفحص (د) الإفادة أو يتظاهر بذلك ويعتذر بجفاف حتى أنَّه يعترف مرة أو مرتين أنه ابتدأ يتشوش. نصف الحقيقة فقط النصف الآخر من الوقت ينغمس في تزجيته عبر تصيُّد عَثرات المشبوه. تلفيقات متعمدة وإصرا على الرواية الملفقة، ثم إذعان.

أظهر التكتيك التشويش الذي كان قد تدرّب عليه، لدى كل حيلة، تكنيكاً ميكانيكياً يمكنه مع ذلك أن يكون فعّالاً إذا كانت الضحية نفسها تلعب ألاعيب التملُّص والتمويه. أنا لم أدخل في عملية تمويه بل على العكس. مرَةً أخرى وأخرى كان (د) يسقط

في الأفخاخ التي نصبتها، رَسَم الكثير من الممرات المزيّفة إلى حد أنه لم يعد يعرف ما هو الطريق الذي زعمت أنني طرقته. راقبت تشوشه المتزايد وحذّرت نفسي من منزلق كنت أدرك وجوده نظرياً فقط. التعاطف.

ولكي ألغي هذا الخطر، خطر نمو التعاطف المتبادل بين المدَّعي والضحيَّة، تفحصت عن قرب علاقتي مع (د). أعترف أنني شعرت تجاهه بالتضامن الحميد لجيلنا. كان شابّاً يفتقد الثقة بالنفس وكان يحاول أن يعوِّض عن ذلك بانفجارات من التأكيد والغضب التسلُّطي، ولعجزه عن التحليل العميق تمسَّك بنوع صلب من الدوغما الجوَّانية مزدوجة الرافعة، دوغما السلطة داخل البوليس السري ودوغما السلطة داخل الحكومة. أنا لم أستطع أن أحسم البتة أي الداخلين كان أقوى، دوغما الكوزانوسترا[1] داخل السلك السري أم تلك الهالة المحتضرة من السلطة التي مثلتها في الواقع الحكومات المتعاقبة التي كانت تحت قيادة الشمال التي لسوء الحظ أيضاً تتشبث بالكثير من الشباب الشماليين في مثل سنه (ربما كان أمينو هو الشمالي الوحيد الذي أعرفه من جيلي الذي كان متحرراً تماماً من التفكير في هذه الجوَّانية، جوَّنية السلطة السماوية).

تساءلتُ ما إذا كان التشوش السياسي عند (د) ملائماً للمباشرة معه في مرحلةٍ لاحقة بعمل حريض يهدف إلى نسف ولائه، حيث تذكرت كيف أنه، ذات مرة، أمسك رأسه بين يديه فجأة وقال:

---

(1) جماعة سرية للجريمة المنظمة نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية على غرار المافيا وانضمت إليها. م.

ـ وولي، نحن نضطر أحياناً أن نقوم بأشياء... أشياء نحن نعرف أنها خاطئة. سيئة فعلاً، ولكن هذا هو الوضع. كما تعلم أنا ابتدأت بالإدارة، أرسلتُ إلى إنكلترا لدراسة الإدارة ثم بطريقة ما تم تحويلي إلى البوليس. ربما أعود حين تنتهي الحرب. لقد رأيت هنا أشياء تجعلني لا أؤمن بوجود شيء اسمه عدالة.

النضال ضد الاستبداد في بداية الستينيات تلقى دعماً كبيراً من رجال بوليس وضباط أفصحوا عن مشاعر كهذه أو أحسوا بها. بعضهم ممن كانت مناصبهم ذات أهمية بالنسبة للنضال، لم يشعروا بأكثر من وخزة قلق، فمهمة تحويل الوعي (أو التخريب من وجهة نظر المؤسسة) نجحت في كسب حليف آخر أيضاً وفتح ثغرات أخرى في الهيكل العفن لذلك النظام. في الفترة الأخيرة صارت مثل هذه المكاسب تحدث تلقائياً. لكن احتمال نجاح النضال بات مرجحاً مما ولّد الحاجة لضمان الأمن عبر الانضمام إلى مجموعة معادية للحكومة. ولكن بقيت جماعة من الغيريين السّاعين وراء العدالة في صفوف البوليس والجيش والخدمة المدنية. وهؤلاء يشكلون أساساً مستقلاً راسخاً من الجسارة داخل اللحم الشهواني للحكومات المتعاقبة، فهم حين لا ينشغلون بإنقاذ أرواح أفراد عبر تهريب تفاصيل مؤامرات محكمة مبيَّنة لتصفيتهم، فإنهم يجمعون ملفات الجرائم والوحشيات والفساد المادي المتفشي في هرميّةٍ مغرورة متبجّحة. وغالبيتهم يقوم بذلك بدافع ذاتي وبغيريّة يحثهم فقط قرفهم مما عرفوه، وإيمانهم أن مهنتهم تستحق أكثر من أن يكونوا مجرد ذراع للمافيا النيجيرية. إنهم ينتشلون أفراداً لا يعرفونهم إلا بالاسم، عن حافة مضايقات صغيرة ومؤامرات شيطانية في مستويات يفترض أنها نزيهة وحتى

عن حافة قتلٍ مُدبَّرٍ. وحين يفشلون يسجلون ذلك بانتظار اليوم الذي يمكنهم فيه نشر كل هذه الملفَّات.

في حين أعطيتُ كل انتباهي للخصائص المختلفة لـ (د)، أفكاره غير الناضجة، مثالياته المترددة، وحاولتُ أن أصل إلى روحه الداخلية من خلال ما بدر منه، ومُدركاً العقبة الهائلة التي تقف في وجه طموحه الشخصي، ابتدأتُ أفكر بانتقام لذيذ ممكن من خلال كسب رجل المؤسسة هذا حالما تنتهي الحرب ويُستأنف الصراع من أجل الثورة الداخلية. كانت فكرة غنيّة، وقد انشغلت بتخيّل عملية إعادة تثقيفه وتحويل وعيه بينما أنا جالسٌ تشلّني سلاسلي ليلة أو ليلتين.

أكّدت لي الأحداث التالية على الفور أنه لم يكن نافعاً. سوف يستمر ملازم (د) إلى الأبد حصناً للكوزانوسترا في الكوزانوسترا.

7

في الصباح جاء أحد الضباط بمشبوهٍ جديد، نسخة ذكرية من تلك المرأة التي أقحمت إلى غرفتي خلال الفترة الأولى من إقامتي في المكتب. كان مريضاً ومُحبطاً يدخّن بلا انقطاع وأصابعه ترتجف. رماد السجائر يعلو كامل جسده. من حين إلى حين كان يختلس النظر إليّ بحذر لكنه لم يقل شيئاً. في الخارج كانت الممرات ترتجْ في هياج الحركات. إن رؤية كائن آخر يعاني، تحرض فيك قوتك الخاصة وتُميت، ولو مؤقتاً، قلقك بشأن وضعك الخاص. قررت أن أتكلم إليه وأن أبعد عنه خوفه البائس:

ـ لماذا اعتقلوك؟

كان طبيباً من مشفى التعليم الجامعي في لاغوس وهو من الغرب الأوسط اعتُقل بعد ثلاثة أسابيع فقط من عودته من موسكو بصفته طبيباً مؤهلاً. في البداية واجه مشكلات هائلة كونه درس في موسكو ثم، من بين أشياء أخرى، وضعه المشفى تحت سلطة مديرية المشفى بدلاً من أن يعامله كطبيب مقيم. لم يستكن لذلك، فساءت علاقته مع المديرة. كان له اسمٌ مركبٌ، لا أستطيع تذكره الآن ولكنه يوحي بأنه من الإيبو لذلك ذكّرته المديرة في إحدى مشاحناتها معه بأن وضعه خطير للغاية. وأخيراً اشتبكا في مشادّةٍ كلامية أمام الجميع. هو يقول إنه ألغت تعليماته بشأن أحد المرضى. في الليل التالي جاءه البوليس. التُهمة: هناك من نقل عنه قوله إنه لن يعالج أي جندي على اعتبار أنهم جميعاً قتلة.

الطبيب (س) أقسم أن المديرة هي التي أبلغت عنه وبالطبع رفض البوليس أن يكشف المخبر الذي تمَّ اعتقال الطبيب اعتماداً على إخباريته، أو أن يواجهه مع متَّهميه. زُجَّ بهذا الطبيب في سجن إيكوْي حيث مرض ورُوِّع وبعد عدة أيام سُمِحَ لرئيس قسمه بزيارته. إمَّا عن طريق رئيس قسمه أو عن طريق شخص آخر، أرسل هذه الطبيب تعليمات إلى عائلته كي تنشر إعلاناً في الصحف يتضمّن تغيير اسمه إلى اسم لا يوحي أنه من الإيبو.

ـ أجل، نصحوني أنه ليس أمامي سوى هذا الطريق. من المفترض أن يصدر ذلك في الصحف اليوم أو غداً.

لم أستطع إخفاء اشمئزازي.

ـ غيَّرت اسمك بسبب هؤلاء الخنازير؟ أنت طبيب، رجل عقلاني. تحوَّلت عيناه مباشرة جهة الباب.

ـ اعذرني، أفضّل ألا أواصل هذا الحديث. أنت تفترض أنني ضد الحكومة.

ـ لا يهمني ماذا أنت. أنا ضد أية حكومة تسمح، تحت غطاء حالة الطوارئ، باضطهاد رجال أبرياء.

ـ حسناً، هذا أنت أما أنا فلم أقل شيئاً ولا أريد فعلاً مواصلة هذا الحديث. عندئذٍ فهمت مشكلته وضحكت.

ـ أوه، فهمت أنت تظن أنني مزروعٌ هنا لأسمع ما تقول؟ أنا لست مُخبراً.

لم يقل شيئاً، واصل تدخينه بتوتر.

ـ (ربما صادفت اسمي خلال هذه الأيام القليلة الأخيرة). عرَّفت بنفسي.

كانت ردّة فعله متوقعة.

ـ أوه، آسف. أنا لست رجلاً سياسياً على الإطلاق ولا أهتم بالسياسة. لكني أعرف اسمك. لا تنزعج مني ولا تبالي بما أقول. قلت ما هو أسوأ للمدَّعين عليَّ. إنهم لن يصدقوني لو قلت أو تصرّفت بشكل آخر.

كان ثمة صمت قلق آخر، بعدئذ انفجر:

ـ كنت مريضاً للغاية. في البداية رفضوا أن يأخذوني للمعالجة. لم أستطع تناول الطعام. أظن أنني التقطت فيروساً ما. كنت أتقيأ باستمرار. وباستمرار كانت درجة حرارتي مرتفعة. اليوم أحضروني للاستجواب. كان المحقق رجل جديد. رأى كم أنا مريض فقام بإجراءات من أجل نقلي إلى المشفى.

ـ لا تغيّر اسمك.

ـ أوه. لكننا دائماً كنا نريد تغييره في العائلة. أنت ترى نحن في الحقيقة لسنا من الإيبو. نحن من عائلة (....) ولكن كما ترى انتقلت عائلتنا واستقرت مع قبيلة (.....).

أصغيت إلى التاريخ الكامل للقبيلة، الرحيل، المنازعات على الأرض، الزواجات البينيّة... آلمتني أذناي.

ـ (لا تغير اسمك) كررت (انتظر لحظة أكثر مواتاة. أنت ترى أن هؤلاء الناس يحتقرون المثقفين. إذا غيَّرت اسمك فإنك تتملق ذواتهم البهيمية...).

دخل مفتش إلى الغرفة.

ـ (استعد إذا سمحت. سوف يعيدونك إلى السجن) ثم استدار إلى شريكي (السيارة هنا، نأخذك إلى المشفى بعد أن نوصل السيد سوينكا إلى كيري ـ كيري).

بدا ذلك جيداً ولكن ليس بالقدر الكافي. فلو استطعت أنا أيضاً أن أذهب إلى المشفى ستكون لي فرصة للاتصال بالعالم الخارجي. وقد أتمكن حتى أن أتحدث إلى عائلتي عبر الهاتف. قلت:

ـ ولكن أنا أيضاً سجلت من أجل الذهاب إلى المشفى.

ـ لا. فقط هذا الطبيب. أما أنت فسنأخذك إلى كيري ـ كيري.

ـ لا بد أن هناك خطأ ما. يستحسن أن تسأل ملازم (د) فأنا أيضاً على أساس أن أؤخذ إلى المشفى ومن ثم إلى كيري ـ كيري.

(ملازم (د) لم يكن هنا هذا الصباح). قال عقبان.

ـ بالأمس قال إنني سأقابل الطبيب اليوم. أنتم ستأخذون هذا الرجل إلى المشفى الجامعي أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ حسناً. إذا ذهبتم في البداية إلى المشفى أستطيع أنا أيضاً أن أرى طبيباً.

هزّ المفتش كتفيه بلا مبالاة، «هيَّا».

صليت ألا يختار ملازم (د) تلك اللحظة ليأتي.

كنا على وشك الدخول إلى السيارة عندما رأيت الغوريلا يترجّل من سيارته الخاصة ويتحرك باتجاه المدخل.

اندفعت بسرعة إلى داخل السيارة وغصتُ في زاوية المقعد بينما وثب المفتش وزميله في حالة انتباه. حين انطلقنا وتجاوزنا خطر التفتيش سألت:

ـ من كان هذا الشخص المهم؟

أجابني ذو الرتبة الأدنى.

ـ من؟ تقصد كينغ كونغ؟

ـ هكذا تدعونه؟

ـ أوه. أجل.

ـ لا بد أنه على مستوى عالٍ. من هو؟

ـ (المفوض المساعد ييسا أديجو) ثم أضاف: (آمل ألا يكون هو المسؤول عن قضيتك).

ـ لا. لماذا؟

ـ نحن نسميه مفوض التعذيب أو كنغ كونغ. في الواقع لديه من الألقاب أكثر مما لدى غوون. على كل حال لن يوكلوا قضيتك إلى شخص كهذا. فهو أمّي.

ـ (اخرس) قاطعه المفتش بسرعة (أنت وكلامك الفالت، ستقع في مشكلة ذات يوم).

ـ أوه. خلِّصنا أوغا! أنت تعلم أن ما أقوله صحيح. هو وسلمان ذاك جاءا من الأم نفسها.

في المستشفى رأيت طبيبي الخاص كوكو أديديفوه. لم يفارقنا المفتش. شكوتُ إلى كوكو أنني لاحظت أعراض شكاية قديمة. كنت أعرف الروتين، سيأخذ عينات ويطلب إليّ أن أعود إليه ثانية، وهذا كل ما كنت أبغيه. إقامة علاقة مع الخارج.

كما توقعت، طلب مني أن أحضر إلى عيادته بعد ثلاثة أيام. هذه المرة رتّبت سلطات السجن الزيارة. بعد عشر دقائق من وصولنا نزل فرع الأمن إلى العيادة بتوقيت مضبوط.

حين نظرت إلى الأعلى رأيت في الممر ملازم (د) وشرطياً آخر والمفتش. نظرت إلى الخارج فرأيت هناك، في موقف السيارات، سيارة (ستيشن) ملأى بشرطة الأمن. شعرت بألم نفسي حقيقي حين ابتدأ العناصر يلحّون على كوكو أن يذهب معهم. ثم رأيته في صحبة الطبيب المذعور المتخرج من موسكو. لقد كان عبئاً من الذنب لا يحتمل.

في البداية تكلموا مع كوكو في مكتبه. بينما أنا أنتظر في الخارج لا حول لي ولا قوة. بعدئذٍ خرج الاثنان ودخلا المرحاض الملاصق للعيادة. فتّشاه ونظرا من خلال النوافذ حول البناء ثم عادا يوبّخان ضابط السجن لأنه لم يبقَ معي في مكتب كوكو. أجابهما بتحدٍّ بأنه يعرف عمله جيداً، وبأنه ليس من شأنهما تعليمه كيف ينفذه. (كانت هذه المصادفات الغريبة التي حدثت لي، فالضابط كان شقيق إحدى عضوات مجموعتي المسرحية وهو من أبناء الغرب الأوسط من غير الإيبو) تجادلتُ مع ملازم (د) بشأن تعسّفهم في إزعاج الطبيب ورجوتهم أن يتركوه وشأنه. لكن عبثاً. سمحوا له أن يأتي بسيارته مع سائق وانطلق موكب السيارات باتجاه الفرع ـ ي ـ.

تحوّل مزاجي من الشعور بالذنب إلى الشعور بالغضب. لا معنى للأسف على حقيقة أنني أنا الذي ورطت الطبيب كوكو بمعنى ما في هذه المشكلة. كل شيء الآن تمحرق على هذا الإزعاج الغليظ لرجلٍ بريء. وقبل مغادرة المشفى اصطحبوا الطبيب أداديفوه إلى غرفة عمليته الجراحية واستولوا على كل ملاحظاته التي دوّنها حول حالتي السريرية وعلى العيّنات والسلايدات. لم يكن تقرير المخبر قد انتهى بعد لكنهم أخذوا الطبيب إلى المخبر وطلبوا التقرير واستلموه ثم أخذوا كل هذا إلى الفرع ـ ي ـ.

حالما انفتحت أبواب المصعد وخطونا إلى الطابق الرابع واجهنا لجنة استقبال عنيفة تتقدم إلينا على هيئة الغوريلا. وفي الحال راح ينبح الأوامر بأعلى صوته. كان الرجل ممتلئاً وهاهو الآن يطفح إحساساً بالسلطة وممارسة لها. اندفع الرجال ذوو الملابس المدنية في مئة اتجاه لتنفيذ الأوامر التي لم يستطع أحد منهم فهمها بدليل أن الغوريلا صرح ولعن عدة مرات. ألطف الشتائم التي كانت تملأ الفراغ «ليس هناك يا حمار!». تعثروا ببعضهم البعض، يفتحون أبواباً فقط كي يعيدوا إغلاقها. سقط ملازم (د) وزميله في شعور الخنوع هذا، يتجهان في مئة اتجاه وينتظران منا أن نساير خطوهما التائه الطائش الأعمى. لو لم أرَ وجه ييسا أديجو يزبد ويرغي وعلى وجوه رجاله تعبير الخنوع لاعتقدت أن ذلك لم يكن إلا مناورة مدروسة لدفع المشبوه القادم إلى الجنون. لقد كان هرجاً ومرجاً تحكمه أو تسيء حكمه كتلة من اللحم البشري المخبول. عند نقطة معينة، انجرفت مع ضابط السجن إلى أحد المكاتب فقط لكي ينفتح الباب مصفوقاً بعد لحظة واحدة ليدفعوا المسكين أو كوتي باتجاه آخر مقيّدين يديه إلى الخلف. ولم تكد تمضي دقيقتان حتى انصفق بابي مفتوحاً ودخل شرطيٌّ يقول: (عليك أن تأتي معي).

نهضتُ بكل ما أستطيع من تمهل وتبعته بمشيتي الطبيعية. الباب التالي كان باب المكتبة، وما أن انصفق الباب حتى انفتح ثانية وانقذف إلى الداخل شرطي كي يبقى معي. وجد لنفسه كرسياً بمواجهة النافذة وتمتم إلى نفسه شيئاً بغموض. وقبل أن ينغلق الباب تماماً، سمعت الصوت الفريد، صوت كينغ كونغ وهو يستثمر القدرة الصوتية الهيسترية نفسها التي استخدمها مع مفوض إيبادان.

ـ أنت ارتشيت. أنا أعلم أنك ارتشيت. لو كان لدي هنا بندقية لقتلك. أجل، لقتلك دون عاقبة.

كنتُ متأكداً أن هذا الصراخ موجه إلى المفتش الذي أخذني إلى المشفى المرة الأولى. غمغم الشرطي الذي معي (مسكين...) ثم نهض ومضى إلى الباب وراح يصغي. بعد حوالي 15 دقيقة انفتح الباب، نظرت، فإذا هو الوحش نفسه! كرر تحديقه الطويل ذاك الذي اعتقد أنه سيستهلكني به من المقابلة الأولى. هذه المرة نظرت في وجهه قليلاً ثم أدرتُ له ظهري.

ارتج البناء بتأثير صفقة الباب.

لم تكد تمضي خمس دقائق حتى دخل ملازم (د) الغرفة. (تعال من فضلك). تنهدت ولحقته. نزلنا بالمصعد ثم خرجنا باتجاه الباب ثم، لدهشتي، تابعنا عبر البوابة إلى العالم الخارجي. انتظر كي تخفّ حركة المرور ثم عبرنا الشارع إلى البناء المقابل لبوابات البوليس. المشفى الخاص الذي يديره الطبيب (....) وهو الطبيب الذي نال شهرة حين صار شاهد دولة ضد تراكا، إيناهورو، أوولوو في محاكمة الخيانة عام 1963. ما هي اللعبة الآن بحق السماء؟

الطبيب الحبّاب كان بانتظارنا. خرج ويداه ممدودتان واعتذر لأنه اضطر أن يتركنا ننتظر قليلاً إلى أن ينتهي من أمر المريض الذي بين يديه. لم يسبق لي أن قابلته من قبل ودُهشتُ من الألفة التي خاطبني بها. نظرت إلى وجه الرجل، وجهٌ تافهٍ مطواع. فشعرت باشمئزاز فوري. بينما كنا ننتظر في الخارج وجدتني مساقاً إلى التأمُّل كيف راحت مقابلاتي تترابط بعناد. فقبل اندلاع الحرب وجدت نفسي على طائرةٍ واحدة مع أخيه، أحد معارفي القدماء

وهو رجل أعمال. دعاني أثناء الرحلة للإقامة في طابقه في ساحة دولفين. خلال نظام بولوا، دفعتنا بعض المصادفات الغريبة جداً إلى أن نشك في أنه كان يعمل لصالح الحكومة. إما كجاسوس أجنبي أو ببساطة لصالح الأمن الداخلي. ذات مرة وصلت إلى حد الاقتناع أن وجوده في بلدٍ معين حين كنتُ تحت المراقبة الدائمة للبوليس، لم يكن مصادفة في الطائرة. طلبت منه بإلحاح أن يقرَّ بشغله الحقيقي. أكّد لي أنه ليس جاسوساً بل رجل أعمال. قبلت دعوته ومكثت بضعة أيام في طابقه يدفعني الفضول بشكل أساسي. كل زائريه كانوا من رجال الأعمال الساعين إلى إقامة شركات في نيجيريا. ذلك لم يثبت شيئاً ولم ينقض شيئاً. إذا كان جاسوساً فإنه يبقى بالتأكد رجل أعمال كبيراً أيضاً ومن النوع المضياف. لقد استمتعت بإقامتي القصيرة في ساحة دولفين.

والآن أجد نفسي في عيادة أخيه، أنتظر من أجل ماذا؟ لم أستفسر البتة من ملازم (د). فقط انتظرت. خرج الطبيب (....) ودعاني إلى الداخل.

- حسناً وولي، علامَ كل هذا؟

حدّقت إليه. ما هذه الوقاحة بمناداتي وولي!

بلا هيبة، لم يكن من ابتسامته إلا أن عرُضت صارت أكثر زلقاً، كان وجهه تغضينة واحدة من الشحم. لوَّح بيدين كسمكتين مفلطحتين بدتا كأنهما بلا أعصاب أو عظام.

- كل هذا. لماذا يضايقك البوليس هذه المرة؟

- من الأفضل أن تتوجه بالسؤال إليهم. أم لا؟

- حسناً. ماذا فعلت؟

ـ ألم يخبروك؟ انظر! فقط أخبرني لماذا أحضروني إلى عيادتك؟

ـ لا أدري. طلبوا مني أن أفحصك. هذا كل شيء.

ـ تفحصني؟ لماذا؟ لدي طبيبي الخاص.

ـ أوه. كما ترى أحياناً أقوم ببعض الفحوصات من أجلهم...

ـ هم! من هم؟

ـ البوليس.

ـ (فهمتُ. لحظة!) نهضتُ وخرجت كان (د) لا يزال ينتظر بجوار الباب. قلت له: (أريد أن أتحدث إليك).

ـ هل انتهى؟

(لم يبدأ. هل يمكننا أن نبتعد قليلاً) اصطحبني مذهولاً (لا أريد لذاك الرجل أن يفحصني).

ـ ما المشكلة؟ هل تعرفه؟

ـ (لا أريده حتى أن يلامسني. لا أريده أن يضع يده عليّ إطلاقاً. هل تفهم ذلك؟) في الحال تغير أسلوبه.

ـ آسف. إنه طبيبنا. أنت تقول إنك مريض وعلينا أن نجعله يفحصك.

ـ لا بد أن هناك أطباء حكوميين غيره. إذا كنتم تخشون طبيبي لأي سبب بإمكانكم أخذي إلى مشفى حكومي، أخضع فيه للفحص.

ـ هذا ... هذا غير ملا ... غير ملائم ... الطبيب (......) هو من يجب أن يفحصك.

ـ إذن أنا لن أتعاون. اصغِ (د) لقد تعاونت جيداً جداً حتى الآن. أذعنتُ لسلاسلكم ولكنني لن أدع هذا الرجل يفحصني.

صار (د) فظّاً تماماً.

ـ هذا سيئ للغاية. إذا لم توافق على الفحص فستجعل الأمور معقدة جداً. ضحكتُ.

ـ بالنسبة لي؟ وكيف يكون ذلك برأيك؟

ـ كنتُ لطيفاً بما فيه الكفاية معك. والحقيقة أنني عاملتك معاملة حسنة ولكن إذا ابتدأت ترفض التعاون الآن فستجعل الأمور معقدة جداً.

كررتُ.

ـ لا أعبأ بما تفعلون. لن أخضع لفحص ذاك الرجل.

ـ الأمر لا يتعلق بك وحدك. ستجعل الأمور معقدة على الجميع.

نظر إلى عينيّ نظرة خاطفة ثم راح يحدق بعيداً وهو يكرّر (ستجعل الأمور معقدة على الجميع).

كان قصده مفهوماً ولكنني أردتُ أن أسمعه بلغةٍ صريحة.

ـ هل تلمّح إلى طبيبي؟

ـ أنا فقط أكرر ما قلت. في المشفى قلت: إنك لا تريد أن تسبب المشكلات لطبيبك. لا بأس، الأفضل لك أن تتعاون.

كما لو أنه بتوقيت مدروس، وصل شرطي في تلك اللحظة تماماً وسلَّم ملازم (د) بطاقة المشفى الخاصة بي وتقارير المخبر.أخذها ملازم (د) وانتظر قراري. استدرت وسبقته إلى مكتب الطبيب حيث كان الرجل الرخو ينتظر كي يرحّب بي بذاك الاستقبال الزلق السيَّال:

- اخلع ملابسك إذا سمحت.

خلعت ملابسي وعيناي لا تفارقانه، لا تفارقان يديه والأدوات التي كان يتناولها. وحين كان يخبط بسماعته على كل أنحاء صدري واصلتُ أراقبُ حركة يده الأخرى. قرّر أن يأخذ عيّنة من الدم فراقبتُ المكان الذي تناول منه الدبوس. بعد الوخزة انتظرتُ أي إحساس بالدوخة وعيناي على المشرط الذي قررت أن أشق به حنجرته لدى أول علامة خيانة. لقد ولّد إحضاري إلى هذا الرجل، والابتزاز الذي مُورسَ على طبيبي الخاص بارانويا متزايدة في داخلي ولكن الفحص انتهى بسلام.

- (ارتدِ ملابسك إذا سمحت) ثم (الآن قل لي هل تريد شيئاً؟ أنت تعلم إني طبيبهم. حين يأتي الأمر مني عليهم أن ينقذوا. هل هناك حمية خاصة ترغب أن أصفها لك؟ أي شيء على الإطلاق؟ أنا هنا للمساعدة. أنت تعلم).

نظرت إليه ولدي شعور أنني أريد أن أبصق في وجهه لكنني أخيراً ابتسمت.

- لا حاجة بي للطعام. أنا أصوم نصف الوقت. أحتاج إلى ملابس على أي حال ليس لديّ سوى هذه الملابس وأحياناً يكون المساء بارداً.

كما لو أنني أعطيته هِبة. غمغم (حسناً، حسناً، حسناً) وابتدأ يكتب بنشاط.

- أي شيء آخر؟ أمتأكد أنك لا تريد طعاماً خاصاً ما؟

نهضتُ. في الشارع في الخارج وقفت ونظرت إلى (د)

ـ أريدك أن تعلم أنني خضعت إلى ذاك مرغماً. بالنسبة لي كانت تجربة مُذلّة إلى أقصى حدّ. أوشكت أن أتقيّأ لدى خضوعي للفحص تحت يدي ذاك الرجل وأنا أحتجُّ ضد إذلالٍ كهذا.

ـ إذلال؟ لماذا تسميه إذلالاً؟ إنه طبيب مؤهل أم لا؟

ـ في الوقت الحالي يتركز اهتمامي الأكبر على طبيبي. هل ستفرجون عنه أم لا؟

ـ لا تقلق بهذا الشأن سيكون بخير.

ـ هل ستفرجون عنه الآن؟

ـ أجل.

في حالات معينة تصبح اللمسة شيئاً شخصياً وحميمياً وروحياً وسياسياً وعاطفياً وفكرياً. أن يلمسك مخبرٌ تحميه يافطة طبية وخصوصاً حين يكون شخصاً من ذاك النوع المقزّز جسدياً، أن يلمسك ويجسّك ويفحصك بأداةٍ كهذه فإن ذلك يعني تجربة من التفسّخ. لا بد أن ردّة فعلي القوية على لمسته ولّدت انطباعاً قوياً بالمقابل عند ملازم (د) لكي تعلق الكلمات في ذهنه أو في ذهن رؤسائه من الضباط الذين لا بد قد سلّمهم تقريراً عما جرى. قد لا يكون مصادفة أن العبارة نفسها تقريباً قد استخدمت فيما بعد في قصّة الهرب الشهيرة.

من المتوقع أن رعباً قد مسّ البوليس (والحكومة) بعد حادثة المشفى التي جرت على الملأ، فاندفعوا إلى الصحافة في اليوم التالي ونشروا بيناً يقول (إنه ينام جيداً ويأكل جيداً ويُسمح له بزيارة طبيبه الخاص...).

8

استقرّيت على رتابة كيري ـ كيري التي استقرت بدورها على روتين قراءة ـ مشي ـ أكل ـ قراءة ـ نوم. لم يعد ثمة استجواب على حد علمي. كتب؟ بشكل أساسي هناك روايات رخيصة على رفّ صغير في مكتب المدير. لم يكن هناك مكتبة بمعنى الكلمة. سألت ما إذا كان بإمكاني الحصول على الكتب من المكتبة الرئيسية في المدينة غير أنَّ حادثة المشفى لم تكن منها في النهاية إلا أن سبّبت تضييقات أشدّ على المعتقلين في السجن. أصدر الغستابو توجيهات همجية ولا إنسانية تقضي، تحت اسم الأمن، بحجز المعتقلين في حبس أكثر إحكاماً وردّ اتصالهم مع العالم الخارجي إلى الصفر المطلق. وقد شمل هذا حتى المعتقلين القدماء، هؤلاء الذين يقبعون في السجن منذ نظام إيرونسي مثل (العماليق). المدير، بعد وقفته الجريئة في موضوع اختطافي من المشفى، أذعن متذكّراً أنه ينتمي إلى قبيلة مشبوهة. الاستثناء الوحيد كان هذين الجنديين المتهمين بقتل المصور من قبيلة الإيبو. فقد استمرا يستقبلان الرسائل والصحف والزوار ويخرجان في الصباح من السجن ولا يعودان حتى المساء، في أي وقت يتمكن موظفوهما من تأمين الوقت والسيارة لاقتيادهما إلى (التحقيقات). كان شيئاً مألوفاً أن نراهما يقفزان مختطفين بعض الملابس ويندفعان إلى الخارج أنصاف عراة من أجل النزهة وهما يصرخان (أكيد، أكيد)، ردّاً على طلبات المعتقلين الآخرين من سجائر وبضائع ممنوعة أخرى.

وهكذا ذات يوم، كما هو محتوم، جاء قرار الإفراج عنهما. قفز معتقلون آخرون يربتون على ظهريهما ويصرخون (تهانينا). كان السجناء صامتين تخلو وجوههم من أي تعبير. أحد المعتقلين سأل الرقيب المُفرج عنه:

ـ (أراهن أنك كسبت ترقية ما)، أوقف جاك بالانس عمليات التنظيف التي يقوم بها وأضاف بحيوية:

(بالتأكيد يجب أن يرقوه. تخيّل كل الوقت الذي قضاه هنا!).

بقيت في زنزانتي مصعوقاً، بينما راحت كل صرخات التهنئة هذه تتابع من حولي غير قادر أن أصدّق أن ما سمعته حقيقي. السجناء الباقون الذين يقطنون الزنزانة الخلفية بسبب مخالفات متنوعة جلسوا محدّقين. حين خبتْ الضجّة وصرّت البوابات وهي تنغلق على رحيلهما، خرجت كي أنظر في وجوه صانعي المرح هؤلاء. كان لدي فضول لمعرفة مستوى الإخلاص. هل يمكن أن يكون الإفراج عن شخص واحد قد أطلق الأمل بالحرية في صدورهم؟ وجدتهم يجلسون جميعاً حول الباحة بوجوه فارغة. لقد بُترت العاطفة تكلُّفاً كما برزت تماماً. أحدهم همس (خنزيران قاتلان) وعاد إلى زنزانته. آخرون هزّوا رؤوسهم كما لو أنهم لا يستطيعون تصديق ذلك. إذن لماذا؟ لماذا هذا الاستحسان الزائف؟ ذلك يمكن أن يعني شيئاً واحداً فقط: نشر هذا القاتلان قوّة أثناء اعتقالهما وقد منحهما الإفراج اللاطبيعي واللاعادل والفاسد سلطة بحيث أن كل معتقل في ذلك المبنى أحسَّ غريزياً أنهما، بعد أن باتا حرّين، قد يضعان كلمة طيبة بحقه. وهم حين صرخوا استحساناً للإفراج، إنما كانوا يعلنون لهذين الأداتين من أدوات السياسات الحكومية في الإبادة الجماعية، إنهم مواطنون صالحون وموالون للحكومة.

بعد ثلاثة أيام شرعت أكتب الرسالة إلى زملائي وأنا غير قادر على قبول هذا التمييز بين السجناء: أنا أستخدم كلمة (زملاء) مفضّلاً إياها على الكلمة الأخرى (رفاق) لكي أميّز المواقف إزاء حالات الصراع. أقصد لكي أميز بين من يعتقدون أن السجن - كي أستعير هذه الحالة المباشرة - هو نوعٌ من الأرض المقدسة حيث يتوجب على النزيل ليس فقط أن يطيع قوانين الإدارة، إنما عليه أيضاً أن يمتنع عن أي انخراط آخر في النضال، وأن يتصرف على طول الخط بالأسلوب الذي يمكن أن يسرّع قدر الاستطاعة في الإفراج عنه؛ وبين من يعتقدون أن السجن ليس إلا مرحلة جديدة لمواصلة النضال وأن السجن، وخصوصاً السجن السياسي، هو أكثر من مجرد بناء مشيّد يتوجب تحدّيه وإظهار عجزه، وأنه يجب على السجين النضال ضد اللاعدالة داخل السجن وضد سلطة السجن التي هي استمرار للسلطة الفاشية، وهذا يشكل أساس نضالات السجين، بل من الضروري أن يعمل السجين، بفضل وعيه الاجتماعي، على الالتزام بالمُثل المطلقة، وأن يناضل من أجل مجتمع عادل دون أن يجعل من السجن عذراً يعفيه من النضال.

في حين كان زملائي يتفكّرون في مطالب هذه الدعوة المجدَّدة من أجل العدالة، علم أحد جواسيس الحكومة العديدين في الهيئة الأكاديمية في إيبادان بوجود الرسالة، فسعى للحصول عليها وصوّر منها نسخة ومرّرها، بشعور بالواجب، إلى (معلّميه) العسكريين.

كان قد اتخذ قرارٌ بالإفراج عني قبل الرسالة. فبناءً على تقرير من ملازم (د) وآخر يدعي تشينكافي لم يتخذ قرار بالإفراج عني فحسب، لم أكن بعد معتقلاً من الناحية الرسمية، بل كان المكتب الصحفي للبوليس قد سرَّب هذا الخبر قبل الأوان وقامت إحدى المجلات فعلاً بنشر الخبر.

مأساة موظفي النظام الشباب والمتحمسين أمثال ملازم (د) هي أنهم يتخيلون أنفسهم على دراية شاملة بالدوافع المتنوعة التي تحرك السلطة. عندما يسمحون لأنفسهم بأن يُستخدموا لغايات قذرة فإنهم يعتقدون أن أفعالهم هي في حقيقتها أفعال حفاظ على الذات طالما أن الضحية تشكل خطراً على وجودهم في السلطة. بكلمة واحدة إنهم يعتقدون أنهم في الشرط الأكثر داخلية والأكثر سرية في السلطة، وأنهم يعرفون كل شيء. ولا يعود قراري الإشارة إلى ملازم (د) بالحرف الأول من اسمه فقط، مع أني الآن أمتلك الدليل على تورطه في المكيدة، إلاّ إلى شبابه وسذاجته وإلى الإمكانية المتاحة بعد لإنقاذ أمثاله، أما البقية، إيسا أديجيو وكيم سالمن وفيمن أوكونو وريمي أيلوري والطبيب... الخ. فهم أنواعٌ ميئوسٌ منها لا يختلفون فيما بينهم سوى في درجات الحيونة ومدة الخدمة.

حين وصلت الرسالة إلى أحد أعضاء المجلس العسكري الأعلى، دخلتْ قضيتي في طور جديد كل الجدة. لقد أصبحت هذه المرة، أكثر من أي وقت فات، قضية حياة وموت. عادةً كانت المعلومات المزيّفة التي تصل البوليس عن نشاطاتي، تصلني إلى داخل السجن، لقد كانت متاحة بسهولة، فمن بين أسباب أخرى كثيرة كان يجب أولاً اختلاقها ثم مناقشتها ثم إخضاعها رسمياً إلى الغربلة والتمحيص والتقييم على يد قسم الدعاية والاستخبارات. أفواهٌ عديدة انفتحت، غير مشكورةٍ، تحت تأثير الشعور بالسلطة والمشاركة في الأحداث التاريخية، وفي الحال وصلت هذه الوثيقة الخطيرة إلى أعلى قمة الهرم، وأدرك البوليس وحتى الأمن فجأة أن ثمة قوى أخرى غيرهم تنشط.

الآخرون أمثال ملازم (د) وطوني إيناهورو أدوات جاهلة مسكينة، أدوات هم اليوم كما سيكونون دائماً في أيدي سلطة تفتقد إلى أية مبادئ أخلاقية.

ذات صباح وصل عناصر الأمن إلى السجن، اقتادوني إلى أحد المكاتب، ولدهشتي، أخذوا بصمات أصابعي. في الواقع انتابني في لحظة غباء أمل أنهم سوف يوجهون لي تهماً رسمية ويقدمون أوراقي قريباً إلى المحكمة. لكنهم اكتفوا بأن حزموا لفافة الحبر وغادروا ببصماتي. بعدئذٍ، في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم أخبروني أن أتهيأ لزيارة، لقد كانت زوجتي. تحادثنا حوالي الساعة، ليس على انفراد بل بحضور ملازم (د) وثلاثة آخرين من موظفي السجن. جرى اللقاء في مكتب المدير.

في اليوم الثاني نشر طوني إيناهورو بياناً صحفياً.

الصنداي بوست الصادرة في 29 تشرين الأول 1967 نقلت ما يلي:

(في ظل قانون الطوارئ جرى اعتقال السيد وولي سوينكا الكاتب المسرحي النيجيري الشهير ورئيس قسم الدراما والمحاضر بالإنكليزية في جامعة لاغوس.

لقد كان السيد سوينكا على صلة مشؤومة بالنشاطات التجسسية لزعيم المتمردين أودوميغورا أوجوكوو ضد الحكومة العسكرية الفيدرالية.

أكّد المقدم إيناهورو أنه مُخوّل بنقل هذا الخبر نيابة عن الحكومة العسكرية الفيدرالية. وتابع المفوض قائلاً: إن تحقيقات البوليس قد أظهرت أن سوينكا كان في إينوغو في السادس من آب مع زعيم المتمردين أوجوكوو وأن السيد سوينكا اعترف في

تصريح له أنه توصل إلى اتفاق مع السيد أوجوكوو للمساعدة في شراء طائرة نفاثة لصالح القوى الجوية للمتمردين وأن السيد سوينكا اعترف في التصريح نفسه أنه غيَّر رأيه في الموضوع منذئذٍ.

وأضاف المفوض إلى الصحافة أن السيد سوينكا كان في التاسع من آب في بنين مع الكولونيل فيكتور بانجو ووافق على المساعدة في إسقاط حكومة غرب نيجيريا وفوق ذلك وافق على إسقاط الحكومة العسكرية الفيدرالية تالياً).

إنه اتفاقٌ متقنٌ إلى حدّ الجمال. المكافأة غير المنتظرة بالسماح لزوجتي بمقابلتي من شأنها أن ترسم في ذهن القارئ الصورة التالية: مقابل «اعترافه»، سُمحَ لزوجة الخائن التائب بزيارته. إنه سعيد وراض ومرتاح ومسرور بعد أن أزاح العبء الثقيل عن صدره. لقد كان لدى الآلة العسكرية خبراء ذوو تأهيل عال في السيكولوجيا العامة يعملون على قضيتي.

9

ساد الكتمان على كل شيء داخل جدران السجن. أمر الغستابو بقطع أي صلة لنا مع الخارج قبل المؤتمر الصحفي لإيناهورو. ذلك أن أي ردّ على التصريحات سيكون ليس فقط محرجاً بل وخطيراً يثير الشكوك حول أية رواية رسمية بشأن تنفيذ الخطوة الأخيرة. ففي يوم المؤتمر لم تصل ولو صحيفة واحدة إلى مبنى السجن حتى أنه لم يتم توصيل أوامر الاعتقال الروتينية، ففي العادة يُقدَّم للمعتقل ورقة من قبل ضابط بوليس متقدم يرافقه المدير عادةً، يقوم الأسير بتوقيع إيصال بالأمر ويحتفظ بنسخة، ربما أنني لم أعتقل البتَّة بما أن توقيعي حتى على هذه الوثيقة لا يزال مفقوداً! الحجاب المهترئ من التعمية التي حسبوا أنهم غلّفوني بها، لم يستطع في أي حال أن يحجب عني ما يجري، إذ أنه عدا عن روابط التواصل الخاصة بي، فإن للسجن مجسَّات طويلة. بحلول الظهيرة علمت بالنبأ. ليس هذا فحسب بل إنني أمسكت قصاصة الجريدة بيدي ورحت أتأمل جسامة الوضع. اتصالي الخاص كان عبر شخصين موثوقين يقيمان في موقع عسكري مجاور للسجن ويستخدمان اسمَي «دان» و«سوجو»، يقضيان معظم ساعات اليوم في حانةٍ تقدم خمر التمر، يسكران هناك مع الجنود ويقابلان خفر السجن أثناء الخدمة وخارجها، وكانا يتصلان بسهولة بالسجناء الذين يعملون خارج جدران السجن في جزّ الحدائق أو دهن جدران مكاتب ضباط السجن المتقدمين.

كل يوم يلتقي أحدهما أو الآخر مع صديق مشترك، هو ضابطٌ في الجيش ذو واجبات غريبة وغير محدَّدة. كنا ندعوه (ج). إنني أدين بحياتي إلى يقظة هذا الثلاثي.

عصر يوم نشر الاعتراف تلقيت هذه الملاحة من (دان):

سوف يتحركون بك هذا الليل. يُتوقَع وصول طائرة إلى المهبط قبل حلول الليل تماماً. الجهة الرسمية هي جوس، ولكن سراًّ ليس ثمة جهة. أتفهم؟ يقول (ج) إنه يستطيع تدبر الأمر ولكنه يحتاج إلى وقت. هامش الأمان ضيّق جداً الآن. هل تستطيع خلق هَيَجان ما، أي هيجان؟ شغب عام إذا أمكن. حاول أي شيء جماعي لكسب الوقت. بالمناسبة من هو بيتر؟ إنه رجلهم في الداخل لا تدعه يقترب منك.

بيتر؟ إذا كان هو فعلاً فقد أحسن الاختيار. بيتر وأنا نَبشُّ ونبتسم أحدنا للآخر كل يوم، غير أني كنت أعرفه جيداً. كان العناصر دائمي الحديث عنه وكذلك السجناء ولكن العناصر بشكل خاص كانوا مستاءين من أسلوبه المتعالي وصعوده النيزكي و(اتصالاته). مستوى صف سادس ابتدائي. ابتدأ كنجار في مصلحة السجون ثم تمّ اختياره، لا لأية ميِّزة فيه، للتدرّب في إنكلترا على فن إدارة السجون. لدى عودته رُقِّي مباشرة إلى ضابط مُرَشَّح ثم، بدفعات سريعة، إلى منصب مساعد المدير. كان العناصر يتكلمون بمرارة حول المحاباة القبائلية خلف صعوده. من جهتي لاحظتُ على الرجل ملاحظتين فقط: المكر والقدرة اللامعقولة على السادية. راقبته ذات مرة في حالة الفعل في زنزانة مجاورة مع سجناء جلبوهم بغرض التحقيق. يسميّه السجناء (الوجه السمين). ويزعم السجناء والمعتقلون على السواء أنه بتأثير

طموحه إلى المنصب دبّر مطاردة موت غير رسمية لمدير السجن على يد جنود فارّين من قبيلة اليوروبا والشماليين القاطنين أغبومالو أثناء غزو الغرب الأوسط. عندما هرب مدير السجن إلى الأدغال لمدة ثلاثة أيام تولّى هو خلالها إدارة السجن، وكانت هذه الفترة كافية كي توحّد العناصر والسجناء معاً ضد احتمال تولّيه هذا المنصب، وقد سعدوا لعودة الهارب الآزابي.

كان ردّ فعلي الغريزي الأول أن أطلب مقابلة مدير السجن. سألت العنصر أن يبلغه ويؤكّد له على إلحاحية الأمر. ذهب العنصر وبدأت أفكر بما أقول للمدير كي أجعله في الحال، ينفذ طلبي في الانتقال المباشر من ذاك المبنى. غاب العنصر حوالي عشر دقائق وعاد برفقة خفير متقدم. لا، ألححت، هذا شيء لا يمكنني مناقشته سوى مع المدير الأول. ما رأيك بمساعد المدير؟ لا. لا. بالتأكيد لا أرغب برؤية بيتر.

وعد الرجل بالبحث عن المدير في بيته. في هذه الأثناء كتبت ملاحظة سرية أنكر فيها ذلك التلفيق الغبي وسلمتها لأحد الأصدقاء المعتقلين من أجل (جمع البريد) التالي.

صارت الساعة السادسة والنصف ولم يظهر المدير. لم يتبق سوى نصف ساعة على إقفال الأبواب. رحت أفكر بعدئذ بشخصية مدير السجن. هل يمكن أن يقبل حقيقة أن حياتي في خطر؟ خلفيته: أحد أفراد إيبو الغرب الأوسط. فكرت. إذا كان هذا يضعه في صفي أم لا. الجواب: لا. ذلك أن إيبو الغرب الأوسط كانوا أكثر النيجيريين عرضة للأذى في ذاك الوقت وخصوصاً بعد غزو الغرب الأوسط. فمنذئذٍ تعرضوا للمطاردة والأسر والقتل واعتبروا خطراً على الأمة أكثر من متمردي الإيبو أنفسهم. يوم الغزو التجأ كلا

رئيس الخفر ومدير السجن إلى الغابات المحيطة بالسجن لمدة ثلاثة أيام بانتظار أن تخمد شهوة الدم، ولكي يبرهن إيبو الأزابا على أنهم كائنات بشرية كان عليهم أن يقوموا بعشرة أفعال بارزة من الولاء مقابل فعل واحد من بقية أفراد الأمة. وكان السبيل الوحيد أمامهم لتأمين العيش والبقاء أحراراً أو أحياءً أن يطمسوا أنفسهم ويقصروا حركتهم على الانتقال من البيت إلى العمل بهدوء وأن يمشوا الحائط الحائط وينفذوا الأوامر بالحرف دونما استفسار.

في السابعة إلاّ ربعاً علمت أنه لن يأتي. وكنت واثقاً من أنه إذا طُلِبَ منه البقاء في البيت والتوقيع على تسليم المفاتيح المطلوبة فلن يكون أمامه خيار آخر. وعلى كل حال ثمة بيتر. كيف يمكن للمرء أن يحمي نفسه من سجّانيه حين يكون الخطر على مدى لحظة؟

عاصفة من الأفكار هبّت في رأسي. استدعيتُ على أثرها نزيلين كنت قد كسبتهما إلى جانبي عرضاً في تلك الأسابيع القليلة وقلت لهما:

ـ أحتاج إلى عملية شغب، يجب أن أبقي السجن في حالة استيقاظ إلى أن أتجاوز الخطر.

قرأت لهما الملاحظة وشرحت المأزق الذي كنت فيه. وافقا على التعاون وفي غضون عشر دقائق فقط باشرنا سلسلة من الأحداث المترابطة. كانت لهما في السجن قوى يعتمد عليها. وراقبت عمليتهما السرية التي تبدو ظاهرياً غير مترابطة حتى بعد إقفال الأبواب بفترة طويلة.

وصل مدير السجن مع حوالي دزينتين من عناصر السجن، لقد حرّكوه من سريره أخيراً بعد أن ظلوا يتجاهلون طلباتي بمقابلته طوال عصر ذلك اليوم. ابتدأتُ في الحال هجومي عليه مكتسباً المزيد من الوقت في حديث طويل اتهمت خلاله السجن بالتواطؤ مع الحكومة

في مؤامرة لتصفيتي. نظرت إلى وجه بيتر مباشرة ومن الإحباط المقروء على وجهه الذي يلوّنه الكره لم يبق عندي أي شك في تورّطه. وأيقنت ببراءة المدير من أية معرفة مسبقة أو تعاون، وأعلنت قراري بالبدء بصيام حتى الموت إلى أن تسحب الحكومة ذاك الاعتراف الملفق.

واصلت الحديث مرتجلاً ومصغياً ومترقباً علامة البدء بالطور الثاني من مخططي الذي كان على أساس أن يبدأه أحد المتعاونين معي أثناء دخول العناصر غير أن هذا المتعاون كان في ذلك الوقت مستلقياً في سريره يعاني شللاً مفاجئاً سبّبه الخوف. لقد تراءى له كما اعترف لي صبيحة اليوم التالي حين جاء (يرجوني السماح) أنه يقف في ثكنات دودان ظهره إلى حائط وأمامه فصيل الإعدام عقاباً له على دوره في شغب الليل. وبكل بساطة رفضت ساقاه أن تطيعاه.

الابتهاج الغريب الذي شعرته لدى مواجهتي بيتر تلك الليلة، حيث تجسَّد جيشٌ كامل من الجزارين في وجهٍ واحد مُحبَط، يبث فيّ الرضى. ها أنا أبدأ أول فعل إيجابي ضد الجهاز، إنها نهاية فترة طويلة من السلبية، من مجرد الانتظار وترك المبادرة للطرف الآخر، حيث أحبطتُ (مؤقتاً على الأقل) محاولة اعتداء عارية وشريرة على حياتي، كل هذا الرصيد من البهجة راح يذوي وأنا أتكلم وأنتظر تلك الأصوات الأخرى التي رفضت أن تأتي. وشيئاً شيئاً ابتدأت أشعر بالحذر والذهول.

في الخارج وصل (دان) و(سوجو) للمساعدة والطائرة التي كانت قد بدأت التحمية على المهبط أوقفت مراوحها وكمنت في الظلام. لا يمكنني الآن أن أتوسع أكثر بشأن الأحداث التي جرت على المهبط والأزمة التي تلتها في قمة هرمية القتلة. وكما كشف (ج) فيما بعد كانت تفاصيل برنامج التصفية الدقيق قد أرسيَتْ خلال نقاش جرى (ضمن لجنة) حول حقيقة أنني مثلت أمام المحكمة ذات مرة بشأن

إعاقة محطة إذاعية. افترضوا أن الجمهور سيصدق قصتهم الملفقة التالية: أثناء نقلي بالطائرة إلى جوس اختطفت بندقية وحاولت السيطرة على الطائرة فأطلقوا علي النار إبان محاولتي تلك. الرجل العنيف ينتهي نهاية عنيفة، المسرحي يبالغ في مَسْرَحةِ نفسه ولو مرة.

في الداخل كان إخفاق النزيل الآخر كارثة بأبعاد لم تتنبأ بها. فبعد الكثير الكثير من الاضطراب والسعر والاشتباه المرغوب بهذه الاستجابة والتعاون مع صرخة الاستغاثة التي أطلقتها، دخل القتلة في هياج مُدمّر بشع لا ينطوي على أي قيمة أخلاقية، هياج استخدمت فيه أقذر الوسائل[1]. جاءت الجرعة الأولى في الاختلاق الذي حبكوه حول أحداث تلك الليلة. نقلوني إلى سجن الأمن الأقصى وتركوني في الحجز أربع وعشرين ساعة في اليوم غير أني كنت أتوقع كل هذا وأستطيع تجاهله. ما لم أظنه ممكناً بالفعل هو تلفيقٌ آخر. حيث نشرت الصحف بياناً يقول إنه قبض عليَّ بينما كنت (أتسلل على طول الجدار) وكان ثمة (دمية) في سريري، وأخيراً والشيء الأكثر نجاحاً في التكسير المعنوي مما سواه هو أنني ادّعيت، مُنكِراً محاولة الهرب، أن ذلك لم يكن سوى (احتجاج ضد إذلال الحكومة!).

في فترة الانحطاط الذهني التي تلت تلك الصفعة الموجهة إلى الأعالي الراسخة من اعتباري الذاتي لم أتذكر حتى أن العبارة مأخوذة من احتجاجي أمام ملازم (د) تعبيراً عن قرفي من الخضوع إلى فحص طبيبهم.

---

(1) كحركة نموذجية جرى تعيين أحد الكتاب المأجورين ريمي إيلوري للكتابة في أعمدة الديلي إكسبرس، صوت مجموعة العشرة، حيث يمكنه من ذاك الموقع تغذية الجمهور (بمعلومات جوانية). لقد تخرج هذا القزم البذيء ذو العقد المتضخمة مخبراً صريحاً ورسم، باختلاقاته، مصير أبرياء غافلين.

10

(اعتراف ـ فرار فاشل ـ شكوى من الإذلال) ثالوث مُوجَّه إلى أكثر العقول كلبية وإخلاصاً أعمى. منطقٌ جميل قائم بذاته. تحفةٌ من الاختلاق المُقنع الهادف إلى تفتيت أية مقاومة، مهما ضعفت، للقدرة الشاملة للنظام. إذا أمكن كسر هذا الرجل، كسره بهذا الإذلال، إذن يمكن كسر أيٍّ كان. هذا الجيش قوةٌ قادرة على كسر أي شخص وستفعل. السياق كان مثقلاً بالهمس والخيانات الماكرة التي يُتوقّع أن تتلوها تطهيرات فورية.

في لحظة سكينةٍ عميقة خرجتُ من أصداء الأصوات في الشوارع، من أصوات الأسواق، من الهمسات في الممرات، من اختلاسات النظر في التجمعات، خرجتُ من مطر البصاق والاحتقار، خرجتُ من الدريئة التي تشير إليها الأصابع، من القهقهة في الظلام، من انحناءات الرأس الحكيمة للضمائر الشائخة، خرجتُ من السخرية ومن الحسد المرتوي ومن بهجة من يخدع نفسه. شيئاً فشيئاً وبشكل ملتوٍ رحتُ أستكشف ذهن العدو وأخطار المستقبل. ماذا يفعلون الآن؟ يرفعون كؤوس الشمبانيا بأنخاب بعضهم البعض، أجل. ماذا أيضاً؟ يربتون على ظهور بعضهم البعض ويطلقون تنهدات الارتياح بعد (ضربة المعلم)؟ أجل أجل ولكن ماذا أيضاً؟ ضع نفسك في مكانهم، ماذا كنت ستفعل الآن؟ هذه اللحظة! ماذا تكون الخطوة التالية؟

ستكون تثبيت التفوق. عمل مستمر. لا مكان للمنشقين. امسحْ أي ذرة معارضة عن وجه الأرض. اعتقل. طهِّر! إعلانٌ غامض صغير،

تلميح صغير إلى أنه بات من الممكن الآن، بفضل اعترافات أخرى من دعامة النظام التائب حديثاً، تنظيف الأمة مرة وإلى الأبد من أفراد الطابور الخامس. سوِّ كل الحزازات الأخرى! أما بالنسبة لك... أجل، هيَّا. بعد كل شيء أنت كاتب، طالب في الطبيعة البشرية، تصوَّر إذن حداًّ ما. ما هو أسوأ ما يمكن توقعه لآخر خطرٍ ممكن، للشاهد الوحيد على الأساس المزيف الذي يسند بناءً فوقياً من القمع العنيف؟

ولأن هذا الخطر باقٍ، حتى لو حُقّقت الأهداف بالحذافير وبُنيت معسكرات اعتقال جديدة لإيواء المخربين الآخرين (المُعترَف عليهم)، فإن خطر تسربٍ في الفقاعة يبقى قائماً ما بقيت أنت حيّاً. حين تمتلئ القبور السرية وترتوي شهوة الانتقام من آلام المعذبين، ماذا أعمل؟ ماذا أستطيع أن أعمل كي أدمّرك بالكامل دون أن أترك ثغرة واحدة؟

جاء الجواب بوضوح باهر: أطلقُ سراحك. نعم، بحركة واحدة لا يمكن تفسيرها إلا على أنها إكمال صفقة خسيسة، أفتح لك الأبواب وأطلق سراحك وقد باتت أسنانك منزوعة ومخالبك مقلّمة وصوتك مكسوراً بمجرّد أن تفتح البوابات أمامك وتترك حراً أمام أنظار الناس.

أخبرني، ماذا ستقول؟ تُنكر؟ يا صديقي رفاقك ميّتون ومعتقلون ومُروّعون ومُحطّمون. حتى لو أنهم ليسوا رفاقاً، حتى لو أنك لم ترهم أو تعرف بوجودهم. الحقيقة، أجل الحقيقة، هل تعرف هذه الكلمة المطواعة؟ الحقيقة هي حقيقة أنهم اعتُقلوا عقب تلميحات من اعترافك الكريم. تلك هي الحقيقة. نحن أعددْنا خلق الحقيقة، والحقيقة الآن مطابقة لصورتنا. كل إنسان يخسر الآن حريته أو حياته يضاف إلى حساب خيانتك. ماذا ستقول؟ وكيف ستقول؟

ومن سيصدقك؟ وفوق كل شيء من يجرؤ أن يصدقك؟ ومن يريد أن يصدّقك؟ ومن سيفكر في أن يصدقك؟ الحقيقة يا صديقي العزيز هي الآلاف الذين اختفوا منذ أن أصلحنا ذهنك الصغير (الحشري).

في الأيام القليلة الأولى من العزلة الروحية في قفص للحيوانات بات هذا الاحتمال حقيقياً مرعباً. ابتدأ الأمر كتمرين لي كي أسلح نفسي ضد الأسوأ، وغاص إلى رعب الخيال، وابتدأتُ أفقد التمييز السوي بين الافتراض والواقع. حتى بعد فترة طويلة من إعادة الاتصال مع العالم الخارجي والتأكد من أن الحقيقة تُعرف حيث تهمّ أكثر، فإنه لم يكن يلزمني أكثر من إثارة بسيطة كي أغرق من جديد في تلك البوتقة من النبض المتسارع والشدة العصبية. ومع ذلك كان ثمة حقيقة غريبة على تعارض مع كل توقع منطقي. لقد استمر ذهني يعمل. طوَّر فكراً حاداً لا يعبأ بالعواقب. مع نقلي إلى سجن الأمن الأقصى وانقطاع خطوط اتصالي دفعة واحدة أدركت وروّعت من فكرة أنني الآن أكثر من أي وقت فات تحت رحمة آلة دعاية الدولة مما خلق عندي وسواس إعادة الاتصال مع الخارج. كل ما أستطيع الاعتماد عليه الآن هو إنكار التلفيق الذي كتبته على عجل وسلمته إلى ذلك النزيل الذي انهارت أعصابه عند اللحظة الحاسمة. أدركتُ أنه بحلول ذلك الوقت من المرجَّح أنه مضغ الورقة وبلعها قبل التفتيش الذي سيلي الحدث بالتأكيد.

لقد تملكني بالكامل طموحٌ عنيفٌ: أن أهرِّب تصريحاً مهما كان الثمن، وأقطع الطريق على إدانات أخرى كانت تُبنى بالتأكيد على أساس من التلفيق المتراكم. الحالة المزدوجة لذهني، الازدواجية بين يأسه اللامبالي والمكر الغريزي العجيب في تلك الأيام، صعقتني ولكن بعد ذلك بفترة طويلة.

راقبتُ، انتظرتُ، خططتُ. دارتْ في رأسي مئة خطة، راقبتُ كل خفير، شرَّحت الباحاتي الذي كان يأتي لإطعام الحيوان (أنا)، غصت في روح كل نزيل باحثاً عن بريق من الاستعداد التعاوني. السجين يعرف على الفور من سيساعده ومن لن يساعده، وأنا كنت جاهزاً لاقتناص الفرص فلم يبقَ لدي ما أخسره. كان ذهني يفتل بسرعة حين جاءت الفرصة أخيراً، مجرد بريق وامض لفرصة. نجحت في القبض على ذاك البريق والاستفادة منه.

لقد كان حظًّا نادراً، مصادفة من ذلك النوع الذي يوشك أن يجعل المرء يؤمن بالعناية الإلهية، تراكب ظروف حدث بصورة ساخرة بفضل الطوق الحديدي الذي كنت مُحاطاً به. الكثير من تدابير الحيطة نفسها، أحدها يلغي الآخر: رسالتي كانت تنتظر.

أدركتُ حتى في تلك الحمى الطائشة أنني يجب أن أصوغ تصريحي بشكلٍ يجعله يظهر كأنه آتٍ من سجن آخر. تطلب ذلك مني جهداً كبيراً لكنه كان أفضل من أن ينقلوني في الحال من هذه العزلة الخيالية التي استطعت أن أفتح فيها ثغرة. الثغرة في حالة الحجز لا تقدر بثمن. استعارت ورقتي جناحين وطارت إلى أيدٍ متعطشة للأمل، صحيفة أو صحيفتان داخل البلد وجدت لديها الشجاعة لنشر كلماتي وابتدأت حملة تفتيش وحشية في السجن الخطأ.

لقد واساني ذلك النصر الصغير في الأيام التالية التي قضيتها في وجودٍ لا قرار له. رعب الصورة التي كنت استحضرتها في ذهني بات حقيقة مساكنة. وبينما رحت انتظر خبراً مؤكداً عشتُ حالة من القلق أكلت دواخلي اللامرئية ونهشت زوايا لم أستطع بلوغها.

كانت أياماً رهيبة، أيامٌ من السواد الحالك والنبض الذي يخرج نهائياً عن السيطرة. كان ثمة مهدئات وأقراص منومة

وزيارات من طبيب السجن. استجمعتْ إرادتي شيئاً من مصادر قوتها، وحذرتني من الاعتماد على الأقراص، نصحتني أن أرفض أية مساعدة صنعية. بعد يومين أجبرت نفسي على رمي الأقراص في سطل الخلاء. يومان بعد ذلك سألت الطبيب ثانية أن يعوّضها بعد أن اعترفت له بمصير الوصفة الأولى. تركت الأقراص على الصندوق الذي كان بمثابة طاولة واخترعت تمريناً يتلخص في أن ألتقطها خلال الفترات العصيبة وأحصيها بعناية وأصنع منها أشكالاً ثم أعيدها ثانية. أنبطح على طولي، أتربّع، أقف على رأسي، أقوم بمجموعة من وضعيات المعركة المرتجلة والمُجرّبة لكي أضبط نبضي وأهدئ الضجيج في رأسي. رجوت نفسي أن تسمح لي بتناول قرص واحد، قرص واحد فقط، هذه المرة ولن أعيدها أبداً، تحركت بسرعة كي آخذ الأقراص بيدي مرة أخرى أعدّها ثم أصنع منها أشكالاً على الصندوق. تلاشى طعم الطعام والماء نهائياً. السجائر فقط كانت تولّد بي الدوخة.

شيئاً فشيئاً استعدت تواصلي مع المحيط، ابتدأت أتعرف في النزلاء المارين على كائنات بشرية، على أفراد بملامح فريدة. انتهت الأزمة الآن. إذا عادت فسوف أجد القوة كي أسيطر عليها بعد أن علمت أخيراً أن الورقة التي تحمل ردّي هربت من الطوق الحديدي ونُشرتْ. وما كان أكثر دعماً للروح هو أن (دان) و(سوجو) قد أعادا أخيراً اتصالهما معي وأكدا لي أن برنامج التطهيرات الشاملة، الذي أثار مخاوفي كان مُقرّاً ولكن السلطات أجبرت على التخلي عنه أو تأجيله. وسوف يفرغون نقمتهم في من هم في حوزتهم، ولكن لم يكن بمقدورهم التوسع في الانتقام بالشكل الذي يثلج صدورهم، أو إسناد هذا الانتقام إلى خيانة ما مختلقة.

11

أحلام. أو بدقة أكثر تنويعات على حلم واحد. أجد نفسي على سقالات بناء في مرحلة التشييد، عالياً. برد. ضباب. الضباب لا يكاد يشفّ لي عن أشكال العمال الذين يشاركونني على الأقسام الأخرى من البناء. أراهم ظلالاً بحدود غير واضحة. هناك تسلسل من الأيدي يمرّر الآجرَّ إليَّ من الأرض. عندما أضع الآجرة الأخيرة في مكانها، ألوح بيدي فتطير آجرة جديدة عبر الضباب غير مرئية حتى تصل على بعد ياردة أو ياردتين مني ولكن في كل مرة يكون الهدف مضبوطاً. أمسك بها بلمح البصر بمجرد أن أمدّ يدي لها فتسقط في يدي. أضع الآجرة في مكانها وأملأ الفجوات بالملاط وأكشط الملاط الزائد. يصعب اعتبار ذلك عملاً، كل لحظة هي استرخاء، حركة مبطّأة طقوسية. يدوّم الضباب من حولنا. من حين إلى حين يعبر بالقرب منا وجهٌ متوازناً على الممر الضيق وهو يدفع عربة إلى القسم الآخر من المبنى.

مضى وقت طويل قبل أن أتبيّن أن كل من حولي قد ذهب. لم أسمع جرس الغداء. الآجرات تواصل سقوطها في أيديَّ الممدودة، فما كان لي أن اشك أن الجرس قد قرع. الصمت هو الشيء الذي نبهني في البداية، وببطءٍ أدرك أن العمل توقف. حتى الآن كان العمل يجري في صمت واقعي ولكنه الآن بات أكثر عمقاً. أنثني كي أسأل عمال نوبتي إذا كانوا يريدون التوقف أم الاستمرار إلى أن نتمّ ذلك الجدار. لم يتبق سوى سبع آجرات فقط قلت لهم. دائماً يكون الرقم 7. لا أتلقى منهم أيّ رد وأتبيّن الآن

أنهم أيضاً ذهبوا. تأتي آجرة طائرة ببطء عبر الضباب مع أنه ليس ثمة أحد في الأسفل. أمدّ لها يدي. تنزلق. أندفع خلفها فأسقط. ويستمر سقوطي في الفراغ وقتاً طويلاً.

فيما بعد تعرفت على المشهد الطبيعي. إنه أحد الخيوط التي دخلت في نسيج تلك الشبكة الميتافيزيقية التي تمسك الرجال إمساكاً مميتاً وهم على مساراتهم مرعوبين من حتميّة أنهم انتهوا إلى نقطة في حلقة. منظر (شاكي) أعاد إلى ذهني صوراً دفينة من زمن بعيد عن الأراضي الهولندية الواطئة حيث شاركت منذ سنوات، عندما كنت طالباً، في بناء بيوت جديدة لضحايا كارثة فيضان. أذكر العطاء والرفاقية النقيين السلستين وأعرف ما الذي ولّد الحزن النوستالجي المبكر. لم يتبق سوى الرعب، السقوط الطويل في الهاوية، ليلة بعد ليلة، الصمت الرهيب...

12

من خلال القضبان كنت أستطيع أن أرى بين سقوف الأبنية الأخرى في الفناء، مساحات من الخراب. امتداد من البقع الحليقة داخل الجدران. بدا هذا الطفحُ الجلدي الذي سبّبه الإنسان شبيهاً بآثار بثور جدري خفيفة على الوجه الأصلي للفراغ. تجمعات السرخس والأخاديد والمستنقعات تشي بأنها مسلوبة حديثاً من بحر ما لا يزال حتى الآن يعدُ بمعركةٍ لاستعادتها. خُيِّل لي أنني أستطيع سماع موجته الناعمة شبه الراكدة على قمم النخيل المزدحمة المرئية من فوق الجدران. وإليَّ كانت تعوم صاعدة أصوات السجناء المتبطِّلين الآملين مثل أصداءٍ من عالم آخر. من منطقة ما معتمة من الذاكرة مسَّني صوتٌ، لمسةٌ، خيط شبكة عنكبوت من الظلام. لقد كانت تلك اللحظة المعذبة من الوصول واللمس والانزلاق، والوصول ثانية ولكن الإخفاق التام في الإمساك. لم يكن بي حتى القدرة على الوصول إلى ذهني، إناء غامض يطوف في السماء الصافية في حين استقرت قطرة الندى هذه التي هي من ماضٍ سحيق على حافته بلطف وراحت تتبخّر مرة أخرى في حمى ابتدأت للتو.

تلاشى الزمن. تحولتُ إلى حجر. انسحب العالَم إلى أبخرة مستنقعية.

كنتُ هنا من قبل. خبرت هذه النقطة الحاضرة مرة إثر الأخرى. رأسي مليئة بروائح ومعاني ذاك الزمن الآخر ومع الإدراك يأتي الألم الذي يضيفه الاستئذان المتكرر بالرحيل.

أحاول جاهداً أن أبقي اللحظة، أن أنسجم معها وأسِمَها إذا أمكن بمكان، بزمان. ويزداد الهجران مع يقيني الحاد أن الإحساس أعمق من مجرَّد المكان أو الحدث المحدَّدين، إنه أقرب إلى طور من الوجود، ذاتٌ مفترضة بالتوافق مع الإنسانية والإيمان والشرف والعدالة والمُثل، ذاتٌ تحلل ذاتها، بقدر ما كل شيء قد حلل نفسه اليوم، بلطفٍ على حواف الوعي. معرفة المكان الذي كنت فيه حتى هذه اللحظة التي أعرف أنها طورٌ لن أعود إليه أبداً ولكنني أدرك مع ذلك أيضاً أن هذا الطقس من التحوُّل هو طقس دائم وأن اكتساب الخبرة في خوض المعبر لا يقلل من حزنه الطاغي.

مرة أخرى وأخرى أتبين بقعة الوجود هذه. أعلم أنني جئت إلى هذه النقطة من الحلقة أكثر من مرة وأن الذكريات الآن شديدة الحدّة حتى أني أتساءل، ألستُ فعلاً في استشرافٍ نبوئي محض، أقوم على خدمته وأنا يأسرني الانتظار ويشغلني سؤالٌ وحيد: متى؟ أيّ معنى إذن يمكنني أن أربط بها، أي اسم، أي تحديد أعطيه إلى انمساخ هي هذه الولادة؟ أحاول أن أغذي قوةً عضلية ما في هلامية الأحاسيس.

تنقيبٌ خاص؟ مادةٌ من أجل المرحلة التراجيدية والأحداث الطقوسية لآلام المسيح. تنقيبٌ جريء يفترق عن، ولا يلتفت البتة إلى، وقع خُطا التاريخ على طول الطريق المشاع؟ أهذه إذن اللحظة التي طال الإنذار بها، لحظة نبذ مفاهيم المسؤولية الفردية، مثلاً، ونبذ الصراع الذي تفرضه؟ هل عليَّ الآن أن أنبذ كانط؟ كارل جَاسبرز؟ (صغيراً مهما قد يبدو دور الفرد في جملة العوامل التي تصنع التاريخ، فإنه يبقى عاملاً) هل عليَّ الآن أن

أقول له، أجل ولكنه عاملٌ ميت؟ عامل مؤثر بقدر ما هو مؤثر حطام السفينة في تيارات المحيط. أم أتعلَّق بدلاً من هذا بالتباس الوجه الآخر من التتمة؟ (لا يستطيع الإنسان أن يقبض على وجوده الأصلي إلا عبر التصدي لتقلبات الحياة). كثيراً ما تشاجرت حتى مع التفسيرات المتركزة حول الذات، هذه التفسيرات التي تبعثها الذات الوجودية. إن أي إيمان يضع التنقيب الواعي عن الذات الداخلية هدفاً له ويعتبر الشروط والقوى المحيطة مجرد مساعدات في الكفاح، يعمل في النهاية على تدمير الطاقة الاجتماعية للذات. دع الذات الداخلية خارج أي توقع ما عدا كونها مصدراً للقوة والرؤية، دعها تبقى المستفيد اللاواعي من التجربة. أرم الشك على كل بحثٍ واعٍ عن الوجود الأصلي للذات فهذا البحث هو العلف المفضّل لربّة الفن المأساوية الموهِنة. (أنا لا أبحث، أنا أكشف). دع الأفعال وحدها تكون مظاهر الوجود الأصلي في دفاعه عن رؤاه الأصلية. التاريخ مليء ببروميثيوسيين مخفقين يغسلون أرواحهم الجريحة في الجدول التراجيدي.

دمِّر الشَرَكَ التراجيدي! التراجيديا ممكنة فقط بسبب حدود الروح البشرية. هناك مستويات من القنوط، يبدو بحقّ، أن على الروح الشريرة ألا تشفى منها. فأن تغوص إلى مستوى كهذا يعني أن يغمرك حطام كل تلك الحواجز الضد بشرية التي نصبتها آلهة غيورة. وقوة الشفاء قريبة من حيازة طاقات فوق بشرية، وعلى المجتمع البشري المحب للركود أن يصرف، لغاية الحفاظ على الذات، هذه الطاقات الهائلة عبر قنوات هامدة نسبياً، لأنها تشكل قوة إذا استخدمها الفرد في الصراع البشري العادي لا يمكن مقاومتها بالأسلحة البشرية العادية. هكذا المؤامرة التاريخية،

غسيل الدماغ، بالمعنى الحرفي، الذي يرفع التراجيديا بعيداً فوق التواصل المتجدِّد للنضال البروميثيوسي.

أن تبقى حياً، ولكن أن تبقى في شكلٍ مُحوَّل، مفعم بأشكال الحكمة الضبابية، مفسدٌ ومغوى بإجلال رجاحة العقل، تعزلك جيداً عن العلاقات السفاحية شؤون الرجال، ذلك النوع من الرشوة التي عضَّ عليها أوديب في البداية مُعمياً نفسه بالمعنى المادي لكي يستأصل بالكامل طريق الفعل الاقتدائي اجتماعياً. هذا ما تفضله أية مؤسسة. ضد كل ارتياب أو تغيير، ضد إصلاح ملموس للعوامل المسببة لأية أزمة، يحمي المجتمع نفسه بتحويل الطاقات المُجدِّدة إلى ذاتية روحية حبيسة. ولضمان أنه ليس ثمة تغذية مجدِّدة للإرادة فإن الشرَك الشاعري للسمو التراجيدي ممدود أمامه. أيُّ رُفعةٍ أعظم من شخصية مهيبةٍ عمياء، أية نهاية للبحث عن الذات أعظم من قبول جميل وسكينة وشيخوخة؟

هل أدركتُ الشرك أم لم أدركه؟ أستدعي التاريخ لمساعدتي ولكن أكثر من التاريخ أستدعي المعرفة الشقيقة، النتائج الشقيقة، التمردات الشقيقة ضد شرك الوجودية التراجيدية لأن الهياج لم يعد كافياً لمواجهة إغراءات الغرق في أشكال الحكمة العميقة التي تستنزف نسغ الإرادة. أبحثُ فقط عن الأصوات المقاتلة وأتعقبها من العصور السحيقة في القدم حتى آخر المناوشات العرضية في المنتديات الطارئة.

(التراجيديا لا تتعدى كونها طريقة للتعويض عن التعاسة البشرية، لاحتوائها وبالتالي تبريرها على أنها ضرورة أو حكمة أو تطهير. إن نبذ هذه العملية والبحث عن الوسائل الفنية لاجتناب الشرك المغوي الذي تنصبه، مشروعٌ ضروري اليوم). متى؟ أين؟

لا أذكر ولا أبالي. أذكر فقط أنني دوّنت مرة ملاحظة بهذا الخصوص كي أستخدمها في ما دعاهُ أحد الطلاب حلقات بحثي الخاصة المضادة للأدب. ولكنَّ الكلمات تعطي نغمة حادة لا تتوافق مع أمواج النفي التي تغلفني، ولا مع كرهي هؤلاء الرعاع الذين أميّز أصواتهم حتى في هذا الفقر العقيم. يثير أعصابي حتى أقول: يا مغسولي العقل، يا حمقى سهلي الانقياد، أيها الدهماء متعددة الرؤوس لماذا يجب لأصواتكم المترعرعة في الجهل أن تقلق طمأنينتي؟

لكنها تقلقني، لا أستطيع إنكار ذلك.

من بئر الكَرَب هذا الذي حفرتْه أيدٍ بشرية، من هذا المرجل الذي تذكي ناره أيدٍ بشرية، من هذا الصخب المُصمّ من الكره البشري، ينبثق كائنٌ هو (أنجونو) بالمعنى الحرفي. سوف يصبح عاجزاً عن الفهم وعن التسامح. لن يعود قادراً على الوزن والقياس بالمعايير الدنيوية. وسيبقى الواقع بالنسبة له مشوباً إلى الأبد بألسنة نار من معبرٍ رهيب، ولن تستطيع التجارب بعد ذلك احتواء أفكاره. أنتم يا من خارج هذه الجدران، يا من أعترف أنَّ هيسترياكم تخترق دفاعاتي المغرورة، أعلم أنكم تشعرون بخطر الانتقام المقبل هذا وأن عليكم، دفاعاً عن النفس، مضاعفة جهودكم في الإبادة الروحية والنفسية والمادية والرمزية. ولهذا عليَّ أن أغوص في كياني وأفهم لماذا لكم، في هذه اللحظة، قوة التأثير عليّ. لماذا، حتى بعد أن نبذتُ الشرك التراجيدي عقلياً، لا أزال يهزمني الدخان الكئيب في كبسولة ذاتي الفردانية.

هرمياس من أتريناس قال، وجسده محطمٌ وهو في الرمق الأخير: (أخبروا أصدقائي وأصحابي أنني لم أقدم على ما لا يليق

بالفلسفة). ذاك التوق في جميع البشر الذين ينفقون النفس الأخير في كلمات إصرار، بدل أن يحتفظوا بهذا النفس للحياة، مؤمنين أن الحياة تكتسب معنى فقط إذا قذفتَ، وأنت تفارقها، بقايا لعاب لسانك الجاف في وجه العدو، في إيماءة احتقار متحدّية، كي تقدِّم للباقين بعدك آخر فعل أمل أو تشجيع، وكي تسبغ المعنى على كامل وجودك في تلك الإيماءة الأخيرة، أو في كلمة إصرار تتغلب على الألم وعلى التفسخ المادي، وحتى على انهيار المُثُل. بذلك تستخلص عصارة وجودك، وترسل إيماناً جديداً إلى الأصدقاء الذين تتركهم وراءك وتجعل حتى من الموت انتصاراً وإصراراً نهائياً.

أعلم لماذا تصلون إليَّ أيها الغوغاء العُقّل. أجد نفسي متروكاً لموتٍ حيّ، محروماً من ذاك الإصرار. وليس فقط محروماً منه بل، أسوأ من ذلك، إن جثتي الحية معروضة إلى العالم في سائل التحنيط النتن الذي هو نقيضها: الارتداد! وكما لو أن من جسدي المتخشّب تصدر الدعاية البطنية[1] لمجرمين مرعوبين يائسين ولكنهم مع ذلك ذوو سلطة، لمجرمين مُجرَّدين من أبسط مفاهيم الشرف والعدالة والنزاهة! أستعرض كاتالوجات الحالات الاستبدادية حيث تم نشر مثل هذه (الإدانات الذاتية) حتى بعد وقت طويل من الموت الحقيقي أو الحيّ لضحايا خَرَف السلطة، غير أني لا أجد فيها العزاء الكافي. عبثاً أحذر من قبول أخلاقية السلطة التي تنشر الأكاذيب وتسلط الأضواء الأساسية عليها،

---

(1) Ventriloquist: من يمتلك القدرة على التكلم دون حركات الشفاه أو الفكّين بطريقة يبدو فيها الصوت كأنه يصدر من شخص آخر أو من مسافة بعيدة. م.

أطحنها في بوتقة الحقائق الثابتة وأطالب كبداية: دعنا نفترض أنك حاولت الهرب فعلاً، فأخلاق من تتحدى سوى أخلاق من بيَّنت أنهم منحطون أخلاقياً؟ هل يتعيّن على هذا الزيف، هذه اليقظة (الأخلاقية) المفاجئة للملايين الذين يرقد حسهم الأخلاقي ثقيلاً ميّتاً على جريمة القتل الجماعي التي أدّت إلى اضطهادك الشخصي، هل يتعين على هذه الكوميديا أن تعتبر سوية ومعافاة؟ ذاك الحس الأخلاقي؟ تلك الجثة العفنة لإرادة مبتورة لا تنبعث إلا على رائحة ضحية لا صوت لها ولا سلطة، ولا تنشط إلا برفسة من سلطة تحتذي الجزمة.

ومع ذلك هذا ليس كافياً. ليس كافياً حتى موكب الأطياف الحيّة والغابرة التي مرت بمحن مشابهة وتطفو الآن إلى ساحة الرؤية لتعزز الإيمان بالمواقف الفردية. من داخل أوقات حياتي التي قضيتها يمتصني التفكير بمصير الفرد في مواجهة التعصب والقمع ينبجسون: ابراهام فيشر، نيكوريموس فريشلين (أول مثال مسجّل من صيغة «قُتِل وهو يحاول الهرب؟» كاردينال ميغدزينتي (الذي اختار سجنه الخاص)؛ شخصٌ أقعدته رصاصة وأحالته إلى كرسي العجلات هو الدكتور أرياس بينما كان يحاول النجاة من دكتاتور الدومينيكان، جون ويلكس الذي يدخل ويخرج من الحصانة البرلمانية، وحتى الرسول بولس بالمساعدة المتكررة من «القدير»...

مع القديس بولس توقفت فجأة. محاولة للسخرية من النفس ولدت ألماً داخلياً، ومع ذلك فإنها حلحلت قليلاً عقدة الخنق الذاتي التي تشكلت داخل أحشائي. أجل، تخيّلت نفسك صاحب رسالة؟ الرسالة الإنجيلية للقديس (صاحبكم) من كيري -كيري إلى أبناء إيبادان... فلتغمر البهجة الطيبة قلوبكم، الرب معكم

ولكن احذروا تلك الذئاب في إهاب الغنم التي تطوف بينكم مقتلعة جثة العام المنصرم...

محاولة الدعابة تحرّر أيضاً شبحاً آخر، من صفحات السخرية المحلية هذه المرّة: طوني إيناهورو، بوق التزييف الرسمي. السخرية هي إحدى الدعابات العميقة التي يجعل التاريخ الرجال موضوعاً لها. حين هرب من المشهد بعد الانقلاب المُجْهَض واحتضنته الحكومة البريطانية بحنوّ نيابة عن محسوبيها الإقطاعيين، طرتُ إلى لندن تدفعني قناعة بسيطة، وكانت تلك أيضاً قناعة مجموعة صغيرة غير متحزّبة مغمورة، وهي المجموعة الوحيدة من بين حركات كثيرة التي حافظت على رؤية ثابتة لمجتمع المستقبل. كان اعتقادنا: إن عادة إيناهورو إلى الوطن ستكون خسارة كبيرة في الصفوف الواهنة للراديكاليين، ربما كان أصدقاء إيناهورو قد بدؤوا ضغوطاً خاصة لمنع عودته، أعرف فقط أن الحملة العامة لم تبدأ إلا بعد عملي في لندن. اعتمدت فقط على مساعدة اثنين من السياسيين الذين كنت أعرفهم، توم دريبيرج ويلند يونغ (اللورد كينيت) وجندت أكثر الطلاب وعياً سياسياً في برنامج ضغط نشط.

يعرض السجن مشاهد كاملة وحيَّة من الذاكرة. أستطيع الآن أن ألمس وجه ويلند وهو يقول (أنا لا أعلم بالحقيقة كثيراً عن الوضع السياسي عندكم. هل هو رجلٌ جيد إيناهورو هذا؟)أجبت (نحن نحتاجه معنا) ولم أكن حتى ذلك الوقت قد قابلت إيناهورو وجهاً لوجه.

في الوطن قال المثقفون: الجبان، دعه يعود إلى البلد ويواجه الموسيقى. وعلى هذا كان ويبقى ثمة جواب واحد فقط: إن روح الرقص الثوري هي بين يدي عازف الناي.

ما هو اسم بروفيسور يرتينبرغ الآخر ذك، مـواطن فريـشلين، وربما أيضاً معاصره؟ ذاك الطبيب الجدير الذي أعـدَّ، بـالرغم مـن قناعته بالظلم الصريح والخرافة في محاكمات الساحرات، أكثر من مئتي مقاضاة ناجحة للساحرات اللواتي، بناءً على ذلـك، شـوين على الخوازيـق. تَفَـارقٌ بـين القناعـة والمـسؤولية يجـد تبريـره في البحث، آنئـذٍ عـن الوسـائل والـسبل الكفيلـة بفطـم المجتمـع في العصر الوسيط عن الهمجية؟ وهكـذا الآن يرتـدّ دور المـثقفين إلى مجرد ذلك! أية قيمـة بالـضبط يجـب أن نـضفي علـى أطروحـات الدكتوراه التي تتقدمون بها أيتها الجمـاجم الرخـوة الـتي سـتغمرنا بمجلداتها المعنونة بتنويعـات مـن (الاضـطراب الاجتمـاعي 1966 جذوره ونتائجـه في الحـرب الأهليـة النيجيريـة الخ الخ مـع إشـارة خاصة إلى دور المصالح الإمبريالية.. الخ الخ. مئتا ساحرة؟ ألفـان؟ مئتا ألف؟ مليونان؟ عشرون؟ في كتب إهداء يجلّدها الصمت؟

في دنيا الأفكار الخاصة بي أبحـث عـن مرتكـزات يرسـو إليهـا وجـودي ضـد الهجمـات الهلاميـة الـتي تـأتي عقـب نوبـات الـيقين العدائيـة. غريـبٌ كيـف اعتـاد ذاك الكـشف الخـلاق لبيكاسـو علـى مُساكنتي: أنا لا أبحث، أنا أكشف. مثل رقية تسللت إلى ذهـن تحـت التنويم المغناطيسي. أسـأل أخـيراً: مـا هـي؟ مـاذا تقولـون لي؟ مـاذا تحاولون أن توحوا أنني لم أكن أعرف من قبل؟ التواءٌ جديـد ليناسـب هذا الوضع، ليصالحني مع هذه الحلقة؟ أتلمّحون مثلاً إلى أنني مـؤثرٌ أم متأثر، بطـلٌ أم مـذعن، مُقـدَّر لي هـذا المعـبر؟ أتلمحـون إلى أن طريق الحالم تنكشف حتى بعينين مغمضتين ويـدين مطـويتين؟ علـى سبيل المثال: كل حالة تخلق الرد المقابل لها؟ وعلى التضاد المباشر؟ لتغيير التأكيد قليلاً إلى بداهة التنازلات اليومية تلك: لهم عيونٌ ولكـن لا يبصرون؟ إنه شيء غريب لا أفهمه حقاً. العبارة تضبط الإيقاع على

صدري كطلسم ملتبس وثمة آخر ليس أقل التباساً على كل حال، جرسٌ حازمٌ صادح لا أستطيع أن أتذكر ما إذا كانت الكلمات لكانط أم لغاسبرز: إننا نتحمل المسؤولية دائماً في اتخاذ القرار الحاسم ما إذا كان شائناً أم لا أن نطيع أمر سلطة ما. نعم أنا آخذ في الاعتبار فقط هذا العامل الوحيد في القرار وهو القدرة المادية على الاختيار.

درْيفوس. ديميتروف إزاء غورينغ. إلى متى سيستمر هذا النموذج من إجرام السلطة وكبش الفداء السياسي؟ صورة شنيعة تلوح من ذاك الضباب النازي، وحشية سلطة تتعطش للدم، نموذج ريَّال سريع الزمجرة من أمثال ييسا أديجو في العالم، نكوصات حيوانية تثير الرجفة حتى في القلب الهامد لمجزرة. الآن بنظرة استرجاعية أتساءل إذا كان من الحكمة أن أرسل من السجن برسالةٍ تحتوي الدليل على إدانتهم بينما أنا تحت سيطرة رجال كهؤلاء. (الضمير الليبرالي حتى في زمن ديميتروف كان أدرى من أن يرتاح إلى فكرة هؤلاء المخدوعين البلغار الذين في العُهدة الشخصية لغورينغ) إنني أغالط نفسي الآن قابلاً ضمنياً تلك القاعدة الكانطية ومدركاً أنه منذ أن وطَّنت في نفسي كل الشكوك حول إفلاس النظام الأخلاقي لغوون منذ لحظة إطلاق سراح القاتلين، لم يكن كافياً أن أرسل كلمة إلى جماعةٍ من المثقفين العِقام. كان عليَّ أن أقوم بما أنا متهمٌ الآن بالقيام به: كان علي أن أهربَ إذ أنه كان عندئذٍ ولا يزال الآن، بالرغم من كل نكساته، بديلاً قومياً حقاً وأخلاقياً وثورياً هو القوة الثالثة لفيكتور بانجو. إن الأخلاقية وبالتالي الأفعال التي تأتي من إلهام أخلاقي تخلق (الوجود الأصلي) الوحيد، إنها تشكل الشخصية المستمرة للفرد ولا يمكن استبدالها بمسكنات الغفران.

الفجوة التي في أحشائي، الثغرة المؤلمة التي تهدّد بامتصاص جوهري الذاتي إلى خوائها، هي تجنّب تلك القاعدة الأخلاقية. يأتي القنوط من معرفة أنني لا أستطيع الآن أن أنقذ هذا الإصرار الوحيد ولا أن أتصوّر، في هذا المُنْغَلَق العقيم، إمكانية بديل عقلاني. أما بخصوص تلك الذات الجريحة التي دمّرت سلامَ ذهني تدميراً كان وسيبقى (على ما أظنّ) عدوي اللدود وصديقي في هذا المكان حيث أختار الكلمات التي أثارت بي أبشع غثيان جسدي. أدفع إلى الأسفل الماء الآسن الذي يصعد من مجرد التفكير بها وأذكّر نفسي بالقدرة الشيطانية لصائغي تلك الكلمات ومعرفتهم بسيكولوجيا الجماهير. إنها تجربةٌ قاسية ولكن لا سبيل إلى اجتنابها. أُجبر الكلمات أن تخرج من بين شفتي وأصغي إلى التحطّم «ادّعى أنه كان يحتج على إذلال الحكومة»، أمضغ الصياغة كأنها زرنيخ وأشربها كأنها سمّ.

أيها المجرمون. لقد أعطيتم أنفسكم سلطة لا محدودة. ازدراؤكم لأذهان الرعاع الذين تتلاعبون بهم هيستريائياً حصنكم ضد مواجهة أخرى، هذا هو هدفكم وأعترف أنكم نجحتم في الوقت الحاضر. حين تنبثق الشكوك، حتى ولو لدى شخص واحد، حين يتلوث صوت استبدادي معهود، حين يتحول الإصرار إلى ارتداد في ذهن الرّعاع، تكونون قد أسَّستم عرق الرقيق الخاص بكم، هذا العرق الذي سيكون خنوعه مبرّراً إلى الأبد بواسطة (إذا أمكن كسر فلان فمن نحن إذن كي نناضل؟) لدى القلّة ممن هم الآن، وكانوا دائماً، مساطر في اكتفائهم الذاتي الخاص. سيكون ثمة بزرة شك في الذات زرعه هذا المثال المتماسك.

عليَّ أن أحتقر عالم الزومبيات[1] هذا، سأحتقره، فهو يستحق الاحتقار. ولكن عليكم مع ذلك إحياؤهم وأعتقد أخيراً أنكم لا تستطيعون.حقاً، الأصوات التي أسمعها ليست الأصوات التي أسعى إلى سماعها. إنها ليست شهادات على تلك الرابطة شبه الصوفية التي، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار الخداع الذاتي، توجد بين أكثر المناضلين عزلة والشعب الذي يعتنق قضيته. لم يتناهَ إلى سمعي مثلاً صرخة العدالة التي انتظرتها طويلاً، الصرخة التي تطالب قائلة: قدِّموه إلى محاكمة، وليس اصلبوه! لنكن شهوداً على سقوط الأقنعة. إنني أرى بدلاً من ذلك أيدٍ مستسلمة في رعب. أرى متخفيّاً يتسلل مسربلاً بالعار في الشوارع، في الزوايا المظلمة للبيوت. أشمّ الكره والشرّ والخوف والإذعان. لكنها رائحتكم، رائحة الفساد العُضال الذي يرحل معكم ويتشبث بكل من تنفثون عليه أكاذيبكم. وأسمع ريحاً طازجة قادمة من وراء حدود النفعية.

أصغي إلى ما كتبه أدولف جوفه إلى تروتسكي قبل أن ينتحر (لا تنطوي الحياة البشرية على معنى إلاّ بقدر ما وطالما تعاش في خدمة الإنسانية. بالنسبة لي الإنسانية لا نهائية).

بالنسبة لي العدالة هي الشرط الأول للإنسانية.

---

(1) الزومبي: في بعض الديانات الأفريقية والكاريبية هو شخص ميت ولكنه جُعِلَ يتحرك بفعل السحر. م.

13

شاكي. آب وتشرين الثاني 1967.

دخلتُ سجن الأمن الأقصى مرتين. هـذا البنـاء خـاص، إنـه مثقل ببـشرية متفـسخة منتنـة. غالبـاً مـا كنـت أفكـر بهـم في أبّهـة منفردتي، كنت أتـذكر معانـاتهم وشـجاعتهم. وسـعيت أن أتغلـب على شروطي ليس بأسوأ مما تغلبوا هم على شروطهم.

أنتنوا.

مبنى السجن طابقان. فوقنا طابق أعادوني إليه بعـد أن كانـت قـد حيكـت المـؤامرة وطُبخـت الإوزة بالكامـل، في ذاك الطـابق سـكن اللصوص الأغنياء من حكومة الحزب القومي الـديموقراطي النـيجيري القديمـة، أسـياد الـسجن، خـبراء لذائـذ المطـبخ، ذوو الامتيـاز في مسائل اللبس والخياطـة. في كـل طـابق يوجـد صـفان مـن الزنـازين يفصلهما ممر بعـرض الزنـازين تقريبـاً. في نهايـة الممـر بوابتـان مـن الحديد للدخول من الباحـة وفي النهايـة الأخـرى، النهايـة المغلقـة، توجـد الحمامـات والمـراحيض والمغاسـل وفـسحة كـبيرة تـستخدم كمكان تبطّل من النوع الرديء. المـبنى نفـسه كـان جـزءاً مـن مجمّـع يحيط بساحات التنفس. كان هناك طاولة تيـنس وفـسحة للعـب تـنس الريـشة والتينيكويـت، كـان المعتقلـون المـدنيون ومعتقلـو الجـيش يستخدمون ساحات التنفس، حتى السجناء ولكن ليس معتقلو الإيبو.

هؤلاء يُسمح لهم بـالخروج إلى الممـر والحمامـات مـرتين في اليوم لمدة ساعة في كل مرة. كانوا يشغلون صـفاً كـاملاً مـن الزنـازين

في الطابق السفلي في حين كان الصف المقابل فارغاً سوى من بطانيات مكدّسة حتى السقف أحياناً. زنزانة واحدة فقط من هذا الصف كان يشغلها رجل أعمال يدعى يون داكولو. شاركته هذه الزنزانة في البداية قبل نقلي المفاجئ إلى سجن الأمن الأقصى في كيري ـ كيري. كان لدينا ناموسيات للبعوض. كان لدينا خزانة وطاولة متينة. كنا أحراراً نتحرك جيئة وذهاباً في ذاك الممر المليء بالأصداء نستخدم الفسحة الواسعة التي ظلت بالنسبة للإيبو امتداداً ساخراً مشوقاً معظم الوقت. لكن في ذلك الوقت من آب كان بمقدورهم حتى التجول والانتقال من زنزانة إلى أخرى. كانوا ينامون على الأرض العارية وأمام أبصارهم الفرش والبطانيات مكدسة في الزنازين المقابلة. بعضهم لم يكن لديه بطانيات البتة. وفي بعض الزنازين كان يوجد حوالي ثمانية أشخاص علماً أن الزنازين مصممة ليشغلها شخص واحد فقط وفي الحد الأقصى شخصان.

كان بينهم تجار صغار وطلاب وأطباء ومستخدمين مدنيين بمراتب عليا ودنيا وكان بينهم لصوص، بما أنهم بشر. كان معهم عجوز اشتعل رأسه شيباً، ووجدت بينهم عازف الترومبيت الشهير أغو نوريس وكان لا ينقطع عن الدعابة التي ترفع من معنويات الآخرين. كانت هذه أول زيارة في آب. لم أحسب أن شروطهم كان يمكن أن (تتحسن) حتى عودتي إلى هناك في تشرين الثاني.

الآن، الأبواب مقفلة عليهم باستمرار. يفتحون لهم الزنازين ـ لهم جميعاً بعددهم البالغ حوالي ستين رجلاً ـ لمدة ثلاثين دقيقة بالضبط في اليوم. وتلك النصف ساعة لم تكن من أجل التنفس في الهواء الطلق فالبوابة الرئيسية لذاك الطابق كانت مقفلة باستمرار. ولأنهم لا يستطيعون غسل ملابسهم ولأنهم كانوا مضطرين

للتغوط في دلاء في زنازينهم حتى في النهار، ولأنهم في تلك الدقائق القليلة - ثلاثون دقيقة لستين رجلاً في مكان مزدحم - التي تفتح فيها الأبواب، غالباً ما تكون الصنابير ناشفة، ولأن أتفه سبب كان يؤدي إلى عدم فتح زنازينهم طوال اليوم، فقد أنتنوا. بالنسبة لداكولو ولي كان ذهابي للحمام حتى في تلك الأيام (المعتدلة) من آب محنة أخلاقية. كان شرطنا وسط أوضاعهم مثل واحةٍ مرئية لرجال تشلّهم ضربة شمس.

الآن لم تعد تفتح لهم الزنازين حتى لاستلام الطعام. الصحون - أوانٍ قليلة العمق من الألمنيوم - كانت تمرَّر إليهم من تحت الأبواب الحديدية، وأحياناً يميلونها كي يمكن تمريرها من خلال القضبان حين يكون الطعام ذا قوام صلب. يتناوبون كي يستنشقون هواء نقياً من النافذة الصغيرة. في آب كانت رؤيتهم ورائحتهم والمرور بجوارهم أثناء النهار وهم يجلسون على الأرض تجربة لا تسرّ الخاطر. الآن، حتى عندما تمرّ بمحاذات الجدران من الخارج وتتجاوز نوافذها وتتوقف كيّ تتكلم معهم متحدياً المخبرين تهاجمك رائحة اللحم البشري المنتن التي تهب من داخل تلك الزنازين.

خلال تلك الإقامة الأولى قلت لداكولو: لا بد لأحدٍ ما أن يتكلم، أن يحتج على هذه الحالة الإجرامية. قال، دون أن يخمّن كم كان قوله نبوئياً (هوّن عليك، أنت ما زلت تجهل سبب اعتقالك). المُخبر كان حولي باستمرار وهو أحد المُدانين من الحزب القومي الديموقراطي النيجيري في الطابق الثاني، كان ينقل المحادثة بكل إحساس بالواجب. بعد يومين زارنا رئيس سجون لاغوس في السجن وقال لنا بأسلوب لطيف جداً يعكس الاهتمام: (أوه، لا أجد من داعٍ يفرض عليكما اقتسام زنزانة واحدة). الخطوة المنطقية التي يتوقعها

المرء إثر هذا أن يتم فتح إحدى الزنازين الفارغة من ذاك الجانب. ولكن لا. عصر ذلك اليوم تمّ نقلي إلى سجن شقيق، كيري - كيري. فقط لكي يعيدوني إلى المبنى نفسه في تشرين الثاني، في الطابق الثاني تحت القفل والمفتاح. وحين انقضت تلك الفترة الحديدية، كنت أذهب إلى الساحة من أجل ممارسة التمارين الرياضية وأتكلم معهم عبر النوافذ. كنت أستطيع تقديم السجائر لهم. لكنهم كانوا يحتاجون بالأحرى إلى هواء نقي، هواء طلق وليس إلى هواء الممر المحصور.

ذات صباح، وبشكل غير منتظر أخرجوهم إلى الهواء الطلق مدة نصف ساعة بحالها بمصاحبة أكثر الأحداث التي أشهدها طوال فترة سجني، هزلاً. ذلك الصباح فهمت أيضاً لماذا يعبر الكثير من السجناء المحنة أحياءً. سجّانوهم يفضحون أنفسهم. هؤلاء الجلادون يطمئنون الضحايا مرة إثر الأخرى أنهم، وهم الضحايا، لم يصلوا إلى درجة انحطاط مضهديهم، وهم لذلك ينطوون على شرارةٍ من جوهرٍ إنساني يستحق الحفاظ عليه. لا يهم كيف يتجلى ذلك، أكان نتيجة لحيوانية السجانين أو بفعل تجلٍ مباغت من الغفلة أو حين يكشف السجانون جانباً مثيراً للضحك من أنفسهم عارضين للسجين مفارقة مضحكة عمَّن يفترض أنه «إنسان الهيبة» home dignis.

وفجأةً يقول السجين في نفسه: حقاً لا يمكن لهذا المخلوق أن يلمسني. إنه لا يستطيع إنقاذي ولذا لا يستطيع تدميري. هذا المخلوق ليس بذي صلة، إنه غير واقعي. أنا من يمثل الواقع.

لم أستطع وأنا أراقب أداء الحاكم هذا اليوم حتى أن أتهمه باللاإنسانية، فهناك منطقٌ ما (وإن كان محجوباً) ينظم السلوكات اللاإنسانية. هذا الحاكم كان يخبط خبط عشواء. حتى أني أوشكت أن أقسم أنه كان عميلاً بيافرياً موظفاً هنا بالسرّ للترفيه عن المعتقلين.

ابتدأت الغارة فجر ذلك الصباح. اليوم السابق ـ كان له في الواقع أثرٌ بعيد المدى ـ قرَّر الإيبو رفض الطعام. لكن المُخبر في طابقنا كان قد استرق السمع. راقبناه أديانجو وأنا وهم يخرجونه بعد إقفال الأبواب الروتيني بناءً على طلبه من أجل مقابلة عاجلة مع المدير. كان مفهوماً بالنسبة لنا أنها وشاية ما، ولكن لم نكن ندري شيئاً عن الأزمة في الطابق السفلي (أحياناً كنت أشك أن ذلك الرجل يستخدم بيريسكوب معكوس للسمع).

وهكذا بوقت مبكر من الصباح التالي، قبل موعد فتح الزنازين اليومي ابتدأت الغارة. كان الحاكم من الذين يؤمنون بتكتيك الصدمة. أحضر معه فصيلاً كاملاً من العناصر، مسلحين جميعاً بهراوات الشغب الخاصة، نبابيت رائعة طول الواحد منها ثلاثة أقدام. اتخذوا مواقعهم دون إبطاء في كل أنواع المواقع (الاستراتيجية)، عناصر على محيط الباحة الصغيرة من المبنى السفلي وعناصر على رأس الدرج في حالة ترقب. لقد كانت عملية مؤثرة إذا اعتبرناها عملية عسكرية ضد هياج محتمل لمجرمين عنيفين خطيرين. تساءلنا أيُّ قادمين جدد من أسرى الحرب العتاة قد استحقوا مناورة الاستقبال المميز هذه. ما كان لرجل عاقل أن يتخيّل للحظة واحدة أن ذلك كان يستهدف النفاية البشرية التي تشغل أحد صفي الزنازين في الطابق السفلي من المبنى (س).

بعد أن هُيّئت خشبة المسرح دخل الجنرال وهو يخطر في مشيته إلى الممر (افتحوا الزنازين وأخرجوهم. ع السريع!).

وبينما شرعوا يفتحون الأبواب واحداً بعد الآخر راح يصرخ: (برًّا! كل العالم برًّا! ع السريع ـ واح ـ تنين، واح ـ تنين، واح ـ تنين، واح ـ تنين....).

غير أن السجناء كانوا مدنيين جميعاً فلم يجدوا سبباً يضطرهم إلى المشي وفق أوامر عسكرية. اندفعوا إلى الخارج بعناد وتحدٍّ. لوح الحاكم بمخصرته كي يفرض حركة ما عليهم ووخز أقربهم إليه في كتفه. وكالعادة كان نصيبه أنه وخز الرجل الخطأ. لقد كان (جو) الذي سبق له في ثكنات دودان أن بصق في وجه الجنود الذين كانوا يُزجّون وقتهم بممارسة ساديتهم عليه. كان طوله حوالي ستة أقدام وثلاثة إنشات، علوُّه وانحناءةٌ غريبة في رقبته أعطياه مظهر شمبانزي في حالة جثوم. التفت وحدّق إلى الحاكم بنظرة باردة طويلة. تراجع الرجل المرعوب من الخطر الكامن في تينك العينين فتعثّر بالمعتقلين الخارجين للتو من زنازينهم أحسّ على الفور أنه جلب السخرية إلى نفسه فاستعدّ ووخزه ثانية في الصدر صارخاً في محاولة منه لتغذية شجاعته: (تحرَّك. على وجه السرعة. امش خارجاً أو أعاملك.. أتعامل معك كما يجب).

كان هذا دائماً ما يحدث له. تتداخل الأفكار والكلمات في هدير غير مفهوم حيثما استثير أو حاول جاهداً أن يكون ذا تأثير. وسيكون ثمة الكثير من هذا قبل أن ينقضي الصباح.

استدار (جو) وتحرك إلى الأمام ببطء. جاء عنصرٌ خنوع ليناصر الحاكم فقام بدفع (جو) وسرعان ما كانوا جميعاً في الباحة. (شكلوا صفين. بسرعة. صفين مستقيمين. ع السريع).

كان مشهداً بائساً. لقد بدوا مهزومين مُحبطين رغم مشيتهم البطيئة المتحدّية التي اعتمدوها كمواجهة. ثمة شيء رثّ في كل الصراعات اللامتكافئة. كانت محاولة التحدي المنظّم مقيدةٌ إلى نهاية كنهاية غيرها، كباش الفداء ينقلون إلى الزنازين الخلفية حيث يغلوهم إلى الحائط ويملؤون الزنزانة بالماء. سينهزمون

بحتمية عمل القوانين العلمية. كان امتيازاً لهم أنه ليس لديهم ما يخسرون. حرفياً لم يكن لديهم ما يخسرون سوى نتن أجسادهم. يحتاج الأمر إلى بعض الجهد لابداع عقوبة جماعية لهم ولكن يمكن الوثوق بمحاولة الحاكم. قرأت التعب من كل ما يجري على حوالي نصف دزينة من الوجوه وهم يراقبون المدير يواصل تأدية دوره. لم يستطع المدير حتى أن ينتظر تلك المحاولة المديدة والممطوطة عمداً، محاولة تشكيل صفوف تنتهي إلى حالة من الفوضى ما أن تتشكل. تبختر داخلاً خارجاً من بينهم، دافعاً هنا وساحباً غطاءً ما هناك متظاهراً أنه لا يعبأ بالرائحة التي طافت حتى في الهواء الطلق ووصلت إلينا نحن المتفرجين حين لأول مرة اجتمعت مختلف الروائح من عدة زنازين في اتحاد كيميائي كريه.

رضي أخيراً. عاين الموكب وبدا أنه يوطّد نفسه لإلقاء خطاب وذلك بأن راح يمشي جيئة وذهاباً مانحاً إياهم هبة تأمل قدرته الكليّة. وأخيراً: (الآن! أريد الانتباه من الجميع. أجل، أنا سوف أتكلم معكم بجدّ. ومن ثمّ عليكم أن تصحوا وتتأكدوا. ومن ثم لا يدخل الكلام من أذن ويخرج من الأذن الأخرى. أجل، تحسبون أنكم جئتم إلى هنا كي تثيروا المشكلات. بالنسبة لي! أقول لكم الآن أنني سوف أثير لكم المشكلات أيضاً. أنا جندي. تعرفون. قاتلت في السودان وفي مصر. أنا واحد من أوائل النيجيريين الذين ترقوا إلى رتبة رقيب سجان[1] ....).

---

(1) لأنكم لن تصدقوا المونولوج التالي لا بد لي أن أسمّي الشهود الآتين عليه: س: ح إيكوكو، يون دوكولو، أولو أديبجانجو، أغونوريس.

لم أصدّق ما تسمعه أذناي فتناولت قلم رصاص من مخبئه ومزقت قطعة من ورق التواليت، كان هذا أحد مشاهد شاكي شاكي[1].

(أجل، أول نيجيري. يمكنكم أن تسألوا المرحوم إيروينسي نفسه. كان معي. أنا أعلى منه. سيخبركم. إنني لو رغبت البقاء في الجيش كنت سأتفوق عليه وعلى المرحوم أديموليغون وجميع الآخرين. كلهم أدنى مني).

(أنا أدرس علم الآثار القديم. وأنا لست فقط حاكم سجن أنتم تعرفون أنا أدرس في الخرطوم. علم الآثار القديمة. ولو كنت في الجامعة اليوم، أستطيع أن أقول لكم إنني كنت سأحاضر أيضاً في الأيكولوجيا البشرية. أجل، أنتم أعداء للدولة. مخربون! لهذا أنتم هنا. أنتم مخربون! وبالتالي نحن نحتفظ بكم هنا. هكذا. ونعاملكم. ومن ثم كيف تجرؤون أن تأتوا هنا ثانية وتحيكون مؤامرة. أنتم تحاولون التآمر. عقدتم اجتماعاً في الأمس! أعرف. ضدي كان اجتماعكم. سترفضون اليوم لقمتكم، هذا كان موضوع اجتماعكم. هل تعرفونني؟ «ضارباً بيده على صدره». أنا أحفظ النظام، أستطيع أن أعاملكم مثل رجال محترمين لكن إذا تصرفتم مثل زعران. عندئذ سوف أريكم أنني من كبار الزعران أكثر منكم. أوه، أجل، هل تعرفونني؟ يمكن أن أكون وغداً. ويمكنني أن أفرح وأضحك وأكون سعيداً ولكن إذا رغبتم أن تروني أنكم غلاظ فسأريكم...).

---

(1) مسلسل كوميدي إذاعي بثته هيئة الإذاعة النيجرية ترتكز الكوميديا على شخصيتين، سائقي شاحنات والتعفيس باللغة أشكال ألوان من قبل أحد أساطين المال وهو رئيسهما.

شرائط الخدمة التي كان يعلقها من أجل هذه المناسبة خصوصاً انتفخت حتى هدّدت بالانفلات من دبابيسها. فمسّدها على صدره بضربة هائلة أخرى (... إنني غليظ. قدموا شكاويكم حسب الأصول إذا كان لديكم شكوى. لكنني لن أتسامح مع الانتهاك. يعني بمعنى، أنا عالم سيكولوجي. أنا أعرف السيكولوجيا. أدرس علم الآثار القديم. أنا لست مجرد حاكم سجن أعيدوهم!).

ما أن دلفوا إلى زنازينهم حتى تبعهم أفراد سخرة الطعام بصحون الصباح وفيها سوسة الحبوب. (وقدَّموا لهم الطعام!). كل حبة فول في تلك الخبيصة بدت، حتى من الطابق الثاني، كما لو أنها قد تعرّضت إلى طلقات رشاش أودت بحياتها.

(ذاك الرجل!) أشار إلى (جو)، لقد اختار ضحيته، (خذوه جانباً، يحسب أنه غليظ وهو زعيم حلقة. سنعطيه بضعة أيام في الزنزانة الخلفية ليتعلم الذوق). علمنا لاحقاً أن (جو) استدار عند المدخل، نظر إليه في الوجه وبصق.

(وبالنسبة للآخرين) تبعهم إلى المبنى وراح يزعق في الممشى (أقفلوا عليهم لمدة يومين. لا تفتحوا لهم أبداً. هذا العصيان يجب أن يُخنَق في المهد).

أُقفِلتْ عليهم الأبواب. دفعوا بطعامهم إلى خارج الزنازين دون أن يمسّوه. بعض الظهر أُخِذت صحون الفول واستبدلت بعجين من الدقيق غير مختمر مع مرض عضال بليد تحت اسم اليخنة. هذا أيضاً بقي دون أن يُمسّ. كما أن أولئك المعتقلين لم يمسوّا عشاءهم.

بعد الظهر حدث أحد تلك التصرفات المتفرقة التي تذكر المرء باستمرار أن الأغبياء لا يشكلون كل البشرية ولا وجهها الحقيقي. العنصر المناوب بعد الظهر جاء ملوّحاً بمفاتيحه وفتح الأبواب على الإيبو (سمعت أنه يجب إبقاءكم في الحجز ولكني لم أبلَّغ بذلك رسمياً). وتركهم خارج الزنازين حوالي الساعة.

انتهزت تلك الفرصة الإنسانية كي أنزل وأتكلم معهم، أخذت لهم معي أيضاً مادة العزاء الوحيدة في السجن، السجائر. التقيت في زنزانة أغو طالباً شاباً من جامعة نسوكا كان قد اعتقل في شاحنة ركاب على نقطة تفتيش ماريلاند (إيكييجا) مع غيره من المسافرين الإيبو في الشاحنة وأخذ إلى ثكنات دودان، حاله كحال المئات غيره من الأسرى غير المسجَّلين في زنازين دودان منذ آذار. في نيسان انفصلت بيافرا. في حزيران ابتدأت الحرب. والداه كانا يعيشان في لاغوس وهو كان سيقضي عندهما عطلة عيد الفصح.

قال أغو نوريس (ذلك الحاكم، يجب أن نشكر الله عليه. إذا خرجنا من هنا بصحتنا العقلية فبسبب ذلك الكوميدي).

قال الطالب: (قل لي، ما الفرق بين نصف ساعة ولا شيء على الإطلاق؟).

- لا فرق.

- إنه أجدب. يقول لا تفتحوا لهم أبداً. كما لو أن ذلك يضايق أحداً منا هنا. هل يعلم كم من الأسابيع قضينا دون أن نخرج لرؤية ضوء النهار في الثقب الأسود في دودان؟

سألته أن يوضح فقال أغو: كلنا من هناك. ذات يوم قرروا فجأة إرسالنا إلى هنا ببساطة. لكننا جميعاً تخرجنا من دودان.

ـ لكن هل وُجهت لكم التهم؟ هل اتهموكم بأي شيء؟

ـ أنا اتُهمت. اعترف أغو. لم أستطع أن أفهم شيئاً من شيء، سألوني هل ذهبت إلى الشرق مؤخراً؟ قلت، أجل. سألوني: لماذا؟ قلت: هناك موطني ذهبت كي أرى أهلي. ولم يتعدَّ الأمر إطلاقاً هذه الأسئلة الأولية.

التفتُّ إلى الطالب (وأنت؟ استجوبوك بشيء؟).

ـ (لا. الاستجواب الوحيد لي كان أن أخذني الجنود إلى روليت دودان. هذا هو الاسم الذي أطلقته عليه. يخرجك الجنود ويضعونك إزاء الحائط لكي يطلقوا عليك النار. قد تكون رصاصة حيّة أو خلّبية حسب حظك)..

ـ أره ظهرك. قال أغو بغتة.

ـ جلدوك؟ كانت فكرتي الأولى فأنا أعلم أن الجيش لا يتقن جيداً سوى التسلية.

ـ لا. كنت محظوظاً. الروليت فقط. وابتدأ يخلع قميصه. لدي شيءٌ آخر مع ذلك.

لم يكن ظهره فقط. نوعٌ من الفطر غطّى كامل جلده، فطر أخضر وأصفر انتشر كوباءٍ معد على كامل جسده.

ـ الآن أفضل. قال. على الأقل أظن ذلك. لقد التقطت العدوى في ذلك الثقب الأسود، أتصور أنه ينمو بسرعة أكبر في العتمة.

ـ هذا مرض من الفضاء الخارجي. قال أغو. هل تريد رؤية مرض من الفضاء البشري؟ اذهب إلى الزنزانة رقم 3 وقل لهم إنني أرسلتك لكي يريك الرجل ظهره.

ـ أي رجل؟

ـ صديقي، كل الظهور هناك تؤذي النظر ولكن الشخص المحدد الذي أقصده سيعرف نفسه. كل فروع دلتا نهر النيجر موجودة في ظهره، بالمناسبة هل تعلم ما الذي أنقذني من ذلك البلالا[1]؟ أخذوني هناك للمعالجة حين رآني أحد الجنود تعرّف علي. قال: آ. أليس هذا أغوناريسي الموسيقي. سمعته من قبل في النادي الليلي. أنا أحب الموسيقى. ذلك ما أنقذني. ولكنهم لم يعيدوني وهكذا رأيت الجَلْد بأم عيني وشكرت الله أنني أعزف الموسيقى. يربطونهم إلى أعمدة على الأرض وهم مبطوحون أحياناً أربع وعشرين جلدة، أحياناً ست وثلاثين جلدة. إذا لم تصرخ لا يتركونك. ذلك الرجل الذي أحدثك عنه حفرتْ في ظهره دلتا النيجر. كل يوم كانوا يجلدونه أربع وعشرين جلدة، كل يوم. حين يغيب عن الوعي يتركونه. ولا يعالجون الجروح. عندما جاء إلى هنا ابتدأ المعالجة. اذهب لتراه. أخبره أنني أقول، اطلبوا من السحليّة أن تريك ظهرها.

ـ السحلية؟

ـ ياه. أنت تعرف المثل: «كل السحالي على بطونها ولكننا نعرف الممغوص منها». ونحن نعرف ما أصاب هذا الرجل.

ذهبت ورأيت ظهراً من القروح المتقيحة. لم يكن ثمة جلد. لا أثر للجلد إطلاقاً كتلة من التقرحات بلا حدود لأن كل أثر سوط اندمج مع أثر سوط آخر.

عدتُ وسألتهم عن تفاصيل الثقب الأسود.

---

(1) عامية كولوكو، سوط مجدول من جلد البقر.

توازعوا بينهم الطول والعرض. كان له شكل مربع تقريباً. أحد عشر شخصاً اقتسموه حيث كان يمكن لثلاثة فقط من يتمددوا في نفس الوقت. ثقب صغير في أعلى الحائط هذه هي النافذة. ولكي يستنشقوا هواءً نقياً كانوا يتبادلون الوقوف على سطل الخلاء. وهذا الثقب الصغير المعتبر نافذة كان تحت السقف مباشرة ولذلك لم يكن يدخلهم سوى القليل جداً من الضوء. على مدى خمسة أشهر عاشوا في فجر كاذب وظلام دائمين. اعتادوا أن يناموا قعوداً في وضعية الجنين. أعظم متعة كانت الخروج لإفراغ سطل الخلاء. وهذا كان يعني الهواء والتمرين. وكان هناك كالعادة العنصر الطيب القلب الذي سوف يطيل تلك المتعة للرجل المحظوظ منهم ويتركه في الخارج فترة من الزمن وربما يعطيه سيجارة ليدخن. في نهاية الأسبوع حين لا يتواجد رؤساؤه، كثيراً ما كان يدعهم يفرغون السطل إحدى عشرة مرة.

ذات مرة حصل التباس في قائمة إفراغ السطل فاشتبكوا بالأيدي. إلى هذا الحد كان نفيساً الهواء النقي والتمرين.

عاد ذهني إلى الظَّهر الذي رأيت، الأثلام، انتفاخات سوداء دائمة، حُفر لا بد أنها نتيجة تكرار وقوع رأس السوط على نفس النقطة، قشور جراح بدت بسماكة إنش. والرقبة حتى قاعدة الرأس مغطاة بآثار السياط.

ـ قلتم إنهم كانوا يجلدون في العراء.

ـ أجل.

ـ وكانوا يصرخون؟

ضحك أغو.

ـ يا صديقي يجب أن تبدع كلمة جديدة. أنت مختص باللغة الإنكليزية أم لا؟ أبدِعْ كلمة جديدة.

ـ لكن غوون يعيش في تلك الثكنات. لا بد أنه سمع صراخهم. قال أغو:

ـ بصراحة لا أعتقد أنه كان يعرف كان يعيش بعيداً عن سكن الجنود.

ـ لا بد أن تلك الصرخات كانت تخترق الإسمنت. ألححت.

أصرّ أغو:

ـ لا أعتقد أنه كان يعرف. لا أعتقد حتى أن بعض الضباط الكبار كانوا يعرفون ـ أوه. هناك أولاد حرام بينهم ولكن مثلاً ذاك العنصر الذي كان يدعنا نفرغ السطل إحدى عشرة مرة في نوبة واحدة. إذن هناك أيضاً أولاد حلال بينهم.

نظر الطالب إلى أغو لبعض الوقت.

ـ (سبق لنا أن تجادلنا في هذا الأمر. أغو يؤمن فعلاً بذاك الـ... ماذا يدعو نفسه أيضاً... آ، أجل أداة الله المختارة). التفت إلي. (ما فتئت وأنا في تلك الزنزانة أفكر بالشخصية التي يذكرني بها. وأخيراً وجدتها. وجدتها حين كان يصلني صراخ الرجال تحت التعذيب وأنا في زنزانتي. لا بد أن تعرف فليكر[1]).

ـ مسرحيته (حسان)؟

---

(1) جيمس فليكر (1848 ـ 1915) شاعر بريطاني. أشهر أعماله قصيدة (الرحلة الذهبية إلى سمرقند) (1913) والمسرحية الشعرية (حسان). كلتاهما استحضارات شاعرية عن غرائب الشرق. م.

بدا أغو حائراً: حتى حسان لا علاقة له البتة بالأمر. إنه لم يأتِ إلى هناك أبداً.

ـ لا أقصد العميد. شرحتُ. حسان عنوان مسرحية.

ـ مسرحية لك أنت؟

تابع الطالب.

ـ تلك هي الصورة التي وردت إلى ذهني. صورة ساديّ هادئ يأكل ويشرب ويهدهد نفسه للنوم على أصوات المعذّبين.

استسلم أغو:

ـ لم أعد أعرف عما تتكلمان أيها الجهبذان.

بعد برهة قال الطالب: الإضراب عن الطعام كان فكرتي.

ـ لقد كانت فكرة جيدة. قلت: السؤال هو إلى متى تستطيعون الاستمرار؟

ـ نستطيع جميعاً الاستمرار يوماً كاملاً. الذين لا يستطيعون أكثر من ذلك. سيختلسون شيئاً ما بعيداً عن الأنظار بشكل أو آخر. ليست مشكلة. هل تعلم ما الذي ولد هذه الفكرة برأسي؟ إنها ليست الظروف بشكل أساسي مع أنها ظروف سيئة للغاية. نحن، بعد كل شيء، لسنا حيوانات كي يزربونا هكذا. لا، إن معتقلي الجيش والسجناء هم السبب. هم في ذاك المبنى المقابل. أحدهم نال ست سنوات لأنه كان يسرق بطانيات وأثاث الجيش، واحد آخر أعطوه سنتين لأنه كان يزوِّر إيصالات البنزين ويبيع المادة. هناك أحكام عديدة من هذا النوع على مخالفات صغيرة وما شابه. ثم منذ أسبوعين أحضروا عريفاً، لم يكن قد قُدِّم بعد إلى محكمة أو إلى مجلس

عسكري. أرسله ضابط الميدان المسؤول عنه إلى لاغوس ليكون قدوة لغيره بعد أن أطلق الرصاص على ثلاثة عشر معتقلاً في (أزابا) بما فيهم بعض سجناء الحرب، بدم بارد. كانوا محتجزين معاً في معسكر اعتقال وكان هو في نوبة الحراسة. شاب من اليوروبا، شاب لطيف. كلهم يأتون إلى هنا يلعبون طاولة التنس مع السجناء المهمين. اعترف أنه أطلق النار عليهم من الرعب، قال إنهم كانا يتكلمون بلغة الإيبو وأنه طلب منهم أن يتكلموا بالإنكليزية فقط. تجاهلوه، فقرَّر إنهم كانوا يدبّرون شيئاً ما، فأدار رشاشه صوبهم وقتلهم. أفرج عنه منذ يومين وأعادوا تعيينه في فرقة جديدة. كان هنا تماماً حين جاء أمر الإفراج. كلهم كانوا يتناقشون في الأمر، أقصد الجنود زملاؤه. حتى هم لم يكن لديهم كثير قناعة بنظام العدالة ذاك.

- هل قالوا من هو الذي وقَع أمر الإفراج؟

- معلوم فقط أنه جاء من مكتب رئيس الأركان. كان الفتى أكثر الجميع دهشة. كان يتوقع محاكمة عسكرية وبضع سنوات سجن على الأقل. آ. حسناً، أفترض أن يوم سجن واحد مقابلِ قتل كل شخص من الإيبو كافٍ تماماً!

- إنها الحرب. رفع أحد نزلاء الزنزانة كتفيه.

- فكرت بذلك، ثم سألت نفسي، إذا كانت الحرب فلماذا إذن يسجنون مزوّري إيصالات البنزين أولئك؟ لا، إنها مجرد جزء من عملية الإبادة البطيئة نفسها، شيءٌ مزروع في دمهم. وباءٌ شامل. ذلك الشاب أدّى ما عليه والآن يطلق سراحه. حاكم السجن المخبول يؤدي أيضاً ما عليه ولهذا السبب يسيئ معاملتنا كبشر، احتجتُ إلى شيء ما للاحتجاج مهما يكن غامضاً أو غير ذي صلة.

أكدت له أنه لم يكن غير ذي صلة.

ـ أنا خائف. أنا خائف جداً بالنسبة للغرب الأوسط. حتى بعد أن يستعاد المكان بالكامل ويتوقف إطلاق النار فإن الفظائع الشمالية لن تكون سوى لعب أطفال قياساً بما سيجري.

ساد الصمت في الزنزانة. كل من فيها انشغل بماله من ذكرى خاصة عن تلك المذبحة. فسد الطعام أمام أبوابهم المهملة. لم يكن صوت الطالب عالياً بحيث يصل الآخرين. مع ذلك كان من الواضح أن تلك الرضَّة التي لا تنسى قد أوصلت نفسها إلى بقية المعتقلين وسرعان ما انتشر سكونٌ من الكآبة في كل الزنازين الأخرى. وقف الطالب قبالة النافذة وراح ينظر من فوقي. أدركت أن وجودي بات نافلاً فانسحبت بهدوء. بَدَتْ الزنازين وأنا أعبر بجوارها تسكنها جثثٌ مسنودة إلى الجدران.

في المساء حضر المدير مصحوباً بسخرة الطعام. غير أنه لم يعد هزلياً الآن وهو يهدّد ويتوعّد مع أنه نجح في أن يضمّن تهديده بداية رجاء ووعود، لقد كان داعراً بامتياز. من حين إلى حين، كان يصلنا عواء صوته (ولكن ممّ تشكون بالضبط؟ أخبروني فقط ممَّ تشكون؟) لم يعبأ به أحدٌ ولم يتكلم أحد. أمر بفتح الأبواب وإدخال الطعام إلى الزنازين. صرَّت الأبواب ثانية. ولكن أحداً من السجناء لم يتحرك. حين ابتعد وقع أقدامه سمعنا صوت احتكاك صحون الألمنيوم على الأرض. وسرعان ما رصفت الصحون الممرَّ دون أن يُمسَّ ما فيها.

ليل. يبتدئ صرير البوابات رهيباً عدائياً ومع ذلك حزيناً، الرتاجات مسجونةٌ هي أيضاً في ثقوب لا ينفذ إليها الهواء. لكل سجن نصيبه من المعتوهين. سرعان ما ابتدأت صرخة أحدهم من

مبنى بعيد تقذف الآثار القاتمة من روحه، يرفقها صليل السلاسل التي تكبِّله، في الليل حامت هذه الأصوات واضحة في فضاء - شاكٍ - يوشك القمر أن يكتمل بدراً، والصرخة الرهيبة كانت جزءاً من حركة تلك العين المتطفلة المجزومة.

حوالي منتصف الليل ابتدأت تتلاشى من الوعي مندغمة بيسر في صمت الأحلام. حين جاء الصوت الجديد، قبيل منتصف الليل بدا أنه لا ينتمي إلى عالمنا ولا إلى ذاك العالم الذي يخبو كل يوم وراء تلك الجدران. صوتٌ غريب، ابتدأ كتدفق هادئ ليصير إلى فيضانٍ معتمٍ يتلوّى ضافراً نفسه على سواد الليل. مسَّ الجلد والتفَّ حوله لطيفاً كالنوم غير أنه أغرب من أن يكون جزءاً مما كنا، ومما كنا نحسّ كل يوم ومما كان يهاجمنا أو يؤازرنا، علمتُ أنه جاء من مكانٍ ما عميق في الأرض، من تربة سحيقة، عرفت المجسات الحساسة للألم والانتصار.

كانت تلك البشرية الموحَشَة تغني تحتنا وصارت الأجساد المنصتة للنزلاء شيئاً مشاعاً ملموساً. شعرت أن كل روح في ذاك المبنى كانت في يقظة تامة تصغي وتكاد لا تجرؤ على التنفس أو الحركة. لا أحد يذكر كم من الوقت استمر الغناء. أحدٌ لم يرفع صوته أو يتذمر من أنهم أقلقوا نومه. تواصل الغناء ساعتين أو ثلاثة ربما، كل أغنية تصب في الأغنية التالية دون انقطاع يُذكر. تنتهي أغنية فيبدأ صوتٌ جديد بأغنية أخرى تبدو حتى من النغمات الأولى كما لو أنها استمرار للأغنية الأخيرة. حالة من الألم والقوة كانت تتخللها كلها. لم يسبقْ أن سُمِعَ من هؤلاء الناس سوى أناشيد الصلوات الصباحية والمسائية. والآن، فجأةً في هدأة الليل استحضرتْ عتمة قلوبهم أصواتاً من جوار الموقد والمقام المقدس. امتصتّنا جميعاً نحن الغرباء عن مواطنهم إنسانيةٌ واحدةٌ تجمعنا.

تأكد ذلك في الصباح التالي، حتى المُخبر كان قد تأثر وربما شعر بالخجل في نفسه. مع تصاعد تلك الأصوات الليلية سمعنا تراخي ليس فقط قيودهم بل وقيودنا أيضاً. شعرنا السقف يشفُّ ليكشف لنا سماءً مشتركة. لفّوا أصواتهم حول أعماقنا الصميمة وجعلوا كل فرد منَّا يقتسم السرَّ المقدس للأخوّة في الدم والإثم والألم.

ما إن انفتحت أبواب الزنازين في الصباح التالي حتى جاء السؤال على كل شفةٍ ولسان: «هل سمعتهم؟ هل سمعتهم الليلة الماضية؟» والردود المرفقة (لم أستطع النوم، حتى بعد أن توقفوا عن الغناء لم أستطعِ). المجرمون الدمويون ذوو المزاج النكِد وحتى أكثر المُدانين كلباً من (الحزب الديمقراطي النيجيري) الذين كانت عقيدتهم السياسية تنصرف إلى رُهاب الإيبو، توقفوا في طريقهم إلى الحمَّام أمام زنازين أخطر أعداء سياسيين لهم. سمعتهم يقولون: (هل سمعتهم؟ هل سمعتهم يغنون؟). كانت المرة الأولى التي يعترفون فيها بوجود ((إيكوكو) و(أديبانجو) لكنهم اضطروا أن يقاسموهما التجربة، وقد شعروا أن هذين الشخصين هما أكثر الناس حساسية بين الموجودين. كلٌّ منا بحث عن تفسير دون أن يفصح لأحد، كلّ منا بحث عن معاني لم يكن من السهل تحديده. كلٌّ منا بات خائفاً من الاستجابة التي انبجست في نفسه وتأويلاتها ومتطلباتها وفوق كل شيء كان ثمة الوعي فيهم، لأول مرة ربما، أنَّ مجتمع السجن تفوّق على القيود المادّية والمعاناة ولو لبضع ساعات فقط بفعل هؤلاء، الحثالة الدنيا وفق الراتب الرسمي.

كان (يون داكولو) وهو لا يزال وحيداً في نعيم واحته وسط اليباب أكثر من بدا عليهم التأثر. نزلتُ كي أتكلم معه يدفعني التساؤل كيف كان تأثره وهو معهم في الطابق نفسه. وجدته يمشي

داخل زنزانته ذهاباً وإياباً بغضب وهو يلهج بأفكار غير مترابطة غضباً من شيء ما لا يستطيع فهمه ولكنه على الأغلب كان غاضباً من نفسه. حالما رآني انفجر!

(أمن تلك القذارة؟ أمن ذلك الروث؟ هل تعلم أنني في بعض الأحيان كنت أجد نفسي على وشك احتقارهم لا لشيء إلا بسبب طول بقاؤهم أمام ناظريك. عمَّا كان يدور ذلك؟ ما هذا الذي تصاعد منهم؟ أنت لا تعلم، أنت لم تكن معهم داخل حجرة الصدى هذه. كل شيء كان يشبه التعذيب، كان يؤذيني ومع ذلك كان... لا أدري. أنتم أهل الكتابة، إذا كنتم لا تستطيعون... القوة، تلك هي. القوة. كان في ذلك قوةٌ كما تعلم. أعطاني قوَّةً حتى وهو يؤذيني. لم أشهد ليلة كتلك، لم أشهد طوال حياتي).

بعد حوالي الساعة مرّ أمام زنزانتي في الطابق العلوي ممسكاً صابونته ومنشفته وتوقف يشرح (أنا استسلمت. كنت أحاول أن أستجمع شجاعتي كي أذهب إلى الحمام من أمام زنازينهم ولكني لم أقدر على ذلك. كما لو أنني أخشى أن أجد شيئاً ما في وجوههم، شيئاً غير بشري. أقول لك، لا يمكنني نسيان هذه الليلة).

قال أديبانجو (لو أتيحَ لعالم الإيكولوجيا البشرية أن يسمعه!).

ملاحظة إلى الصليب الأحمر:

لدى زيارتكم السجون في كانون الأول 1967 راقبتكم من نافذتي وأنتم تعاينون طوابير المعتقلين الإيبو في الفناء خارج المبنى. قبل وصولكم بيوم فُتِحتْ أبواب زنازينهم لمدة تزيد عن ساعتين وذلك لأول مرة منذ ما ينوف عن الشهر. وقد أصدر حاكم السجن، المهرّج الذي أدعوه الجنرال، الأوامر بنفسه قبل شهر

واحد فقط بمنع الصابون عنهم. وليس هذا فقط بل إنه أمر العناصر بإزالة كل رقاقات الصابون المتبقية في الزنازين. والسبب هو أن المعتقلين قد احتجوا على عدم وصول مخصصات الصابون كاملة إليهم. وهذا صحيح، لأن الصابون الذي كان يجب أن يُسلَّم إليهم كان يقتطع منه بالتواطؤ بين العناصر والباحاتية وهكذا فإن المعتقلين كانوا محرومين من الصابون منذ شهر حتى البارحة.

البارحة على كل حال، اليوم السحري، فِتِحتْ زنازينهم وقُدِّم إليهم الصابون وسمح لهم بغسل ملابسهم وبطانياتهم وأخرجوا إلى الهواء والشمس وأتيح لمن يريد أن يقصّ شعره، ولذلك فإن طابور المعتقلين الذين رأيتموهم وشممتم رائحة نظافتهم ليسوا تلك الكتلة من النفاية التي كانت من قبل تضطجع بوسخها في شروط غير صحية لمدة أشهر. كما أنهم أخرجوا إلى العراء بالطبع لكي لا تروا دليل الازدحام الشديد. هل ربطتم بين مساحة المبنى السفلي وعدد المعتقلين الذين رأيتموهم في الباحة؟

أخيراً، من بديهات الأمور أن تصرّوا على التكلم مع السجناء على انفراد. إن أسئلتكم المعيارية التي توجهونها إلى السجناء وهم محاطون بالسجانين حول شروط حياتهم كانت مسرحية هزلية تؤلم المُشاهِد. إنكم بالتأكيد لا تجهلون الانتقام الذي ينتظر أي سجين يقدم جواباً خاطئاً. إذا كنتم لا تستطيعون (المعاينة) الشاملة، إذن لا تزوروا السجون السياسية على الإطلاق، لأن ذلك من شأنه فقط أن يغذي آمالاً كاذبة لدى المعتقلين.

14

في منتصف الليل جاؤوا: ضابط متقدم يصحبه ثلاثة عناصر يلفّون أنفسهم بمعاطف سوداء كالليل. اعتمد الضابط أسلوباً ونبرة فيهما فظاظة وحَسْم. لدى تحسسهم القفل قفزت إلى ذهني غريزياً المحاولة السابقة لاغتيالي في سجن الأمن الأقصى. (ضُبّ أغراضك!).

جاء الأمر نباحاً كما لو أنه موجه إلى كلب. مع ذلك كان ذهني في هذه اللحظة بعيداً عن حضورهم المباشر، يغلّفه المسار المظلم الذي كنت على وشك الولوج فيه، بحيث أنني أطعته كرجلٍ آلي. والزاوية الأخرى من ذهني كانت قد ابتدأت، وهي مفعمة بكل حاجات الاستمرار في السجن، تدبُّر كيف يمكن أن أحرف نظره بما يكفي كي أنبش قصاصات الورق وقطعة قلم الرصاص والملاحظات التي كنت قد هيأتها من أجل الفرصة التالية للاتصال مع الخارج.

ارتحت لرؤيتي بعض المعتقلين الآخرين مستيقظين ومتجمعين قرب مدخل زنزانتي. فأبواب زنازينهم لم تكن تغلق في الليل أبداً. أديبانجو بشكل خاص اقترب من العناصر واستطعت سماعه يهمس بصوت مرتفع لكي أسمع رغم الضجيج الذي واصلت إحداثه بصندوق وسطل الخلاء (إلى أن يريدون أخذه؟) وبطرف عيني رأيت العنصر يرفع كتفيه.

كيف عجزوا عن تحذيري هذه المرة؟ فكرت بـ (ج) ورفيقيه. هل تعطلت أخيراً استخباراتهم؟

لدى خروجي من الزنزانة سألني (إيكوكو) إذا كنت أحتاج أي شيء وأجبرني على أخذ بعض سجائره. أديبانجو ألحَّ بتقديم منشفته إليَّ. قبلت كل شيء وأنا أفكر إنني ماضٍ إلى حيث قد تنتهي حاجاتي.

تنحّى الضابط جانباً ومشيت أنا في المقدمة. عند نهاية الممر، حيث زاد ضغط ذلك الممشى الضيق من مخاوفي ومن التهديد الثقيل لأولئك العناصر الذين يمشون خلفي، توقفت واستدرت إلى الخلف وصرخت بأعلى صوتي (أريدكم جميعاً أن تعلموا أنني لن أقوم بأية محاولة هرب. ليكن هذا معلوماً لديكم إذا حدث لي أي شيء).

عندما هبطنا السلم سمعت صوت عويل أديبانجو يرنّ في أرجاء الممر ينقل الملاحظة إلى كل النزلاء مذكّراً إياهم أنني أغادر المبنى في منتصف الليل سليماً معافى إلى جهة مجهولة. مشينا في الامتداد القاحل حول السجن وصرّتي تحت إبط أحد العناصر. عند المكتب غادر العناصر الثلاثة وتركوني وحيداً مع الضابط ورجل هرمٍ مناوب. استعاد الضابط عبوسة ولكنه أخيراً حمل وجوده المُغِمّ إلى مكان آخر. وقبل أن يعود نظر إليَّ العجوز برهة ثم انفجر على حين غرة: (لماذا لا يدعونك وشأنك؟ إلى أين سيأخذونك هذه المرة؟).

قلبت راحتيّ إلى الأعلى كي أشير إلى أنني لا أملك شيئاً من أمري في هذه المسائل. فجأةً برز الجنرال في المشهد باللباس المدني. كان في أحسن حالٍ له، كما لو أنه كان منخرطاً في عملية استنهاض ما نيابة عن البشريّة. في تلك الساعة من الليل ظهر هذا الكائن العجيب حديث التنظيف والتزييت والترتيب يفور بسعادةٍ غامضة من خلال لباسه النفيس.

ـ أخذت كل شيء؟ أوه، جيد. هل أعطوك كتابك؟

ـ أي كتاب؟

ـ ألم يعطوك كتابك؟ الكتاب الذي كتبته أنت؟

غاب وعاد بنسخة (إيدانري) أول مرة أرى كتابي ذاك. تأملته في يديه كان ثمة اسمي مكتوباً على الغلاف الأول بحروف كبيرة. شعرت على نحو إعجازي بموجةٍ من السموّ حين رأيت بين يدي هذه الشريحة الملموسة الحديثة الصك من عالمي الداخلي. تأملته، رأيت الصورة على ظهره، فتحت صفحاته. وقعتُ مصادفة على قصيدة إلى ابنتي.

سألت الرجل: لماذا لم تعطوني هذا حتى الآن؟

صفق بيديه (أوه. أحدٌ ما نسي أن يعطيك إياه من قبل. هذا كل ما في الأمر).

ـ إلى أين سيأخذونني؟

تلعثم بلا نهاية. في الوقت الذي استغرقه كي ينهي غمغمته كنت قد صرفت النظر عنه ورحت أقرأ قصائدي المنشورة.

والآن ابتدأ الانتظار الطويل ثانية. ساعة، ساعتان ثم ثلاثة. بعد ساعتين يئس المدير القلق، فذهب إلى البيت وتركني في عهده العبس العظيم. رنّ الهاتف قبيل الفجر فأجاب الضابط ثم التفت إليّ وأعلن سنعود إلى الزنزانة.

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه وصلت الملحوظة المتأخرة من (ج). كانت موجهة لـ (دان) وتقول ببساطة (قل لصديقك بألا يخاف إذا ما جاؤوا ثانية).

15

استطراد في موضوعة الفظائع واللجان والثغرات في ذهن السلطة.

مباشرةً بعد تحرير الغرب الأوسط من قبضة المخربين المتمردين على يد الجنود الاتحاديين البواسل أنشأت حكومة غوون - أوغبيموديا لجنة عرفت باسم لجنة الفظائع. كانت لا تزال الحرب مشتعلة طبعاً وبعنف وضراوة وشمول أكثر من أيّ وقت فات. كانت الكلمات المتداولة حينها حربٌ شاملة، تعبئة شاملة، ضربة ساحقة الخ.. ومع ذلك وسط استنفار إرادة الحرب هذه توفر شيءٌ من الوقت والطاقة لتمكين اللجنة من عملها. ـ الشهود، الحرس المسلح، البيروقراطية، والمصروفات. كان هذا كما يجب أن يكون. من المهم تسجيل هذه الأشياء. الغزو كان جريمة بعبارات هذه الحرب تحديداً وبعبارات غالبية شعب الغرب الأوسط - لنسلّم بذلك ـ يجب التحقيق في كل الجرائم، في زمن السلم أو في زمن الحرب.

شخصياً رحَّبت بذلك ترحيباً خاصاً. كنت ابتدأت منذ زمن طويل أخشى أن تكون هذه الكلمة (فظاعات) قد خرجت من الموضة في مفرداتنا أو في المعنى. بعد كل شيء الكلمة تعني شيئاً ما، إنها تعيِّن هوية ظاهرةٍ أو تحدّد حدثاً منتهياً أو حدثاً يتكون. إنها من أكثر الكلمات فعالية. بالطبع أحياناً تكفّ كلمة ما عن أداء الغرض، على الأقل بذاتها. يجب أن تتأكد حقيقة الكلمة باستجابةٍ ما، بقبول إيجابي أو بفعل مضاد. لقد أظهرت لي الحكومة

الفيدرالية في الغرب الأوسط من خلال تشكيل اللجنة أن كلمة فظاعات تستثير الاستجابة الأخيرة. لا بل إنها أظهرت الصيغة المحدَّدة التي يجب أن يتخذها الفعل المضاد هذا. كنت سعيداً في زنزانتي في كيري ـ كيري لأن هذه الكلمة نجت من البطلان.

بدا أن حكومة إيرونسي في حينها كانت تدرك تماماً مسؤوليات هذه الكلمة، المسؤولية التي، كما هو واضح أعلاه، أعطيت أيضاً شكلاً ملموساً في تشرين الثاني عام 1967 من قبل غوون. في أيار من عام 1966 عيّن إيرونسي لجنة (نفس صيغة العمل) للتحقيق في الفظاعات المعروفة عموماً بالمجازر الصغرى في الشمال. كانت هذه اللجنة لا تزال في غمار مهمتها حين استولى غوون (أو سُهِّل له الاستيلاء؟) على السلطة في حزيران من تلك السنة. وأعلنَ إلى العموم أن عمل اللجنة سيستمر دون إعاقة، كان هذا أحد أول تصريحاته للأمة. غير أنه أحال اللجنة سراً إلى جثة هامة. لم تسمع الأمة بعد ذلك شيئاً من هذه اللجنة التي أنشأها إيرونسي وورثها غوون فيما يخص فظاعات أيار. وبالمناسبة كان السلام قائماً آنئذٍ.

في أيلول ـ تشرين 1966 أتيحت لغوون فرصة كي يطرح في السوق لجنة كبيرة تخصُّه. كان عنده كل الحق ألا يؤمن بقيمة اللجان في موضوع الفظاعات. إن إسكات لجنة أيار السابقة يشير إلى أن هذه اللجنة قد تتعرض إلى نفس المصير. هذا كان امتيازه. يحق للرجل وخصوصاً لرجل أمامه الكثير من العمل أن يعتبر اللجان بذاتها غير ذات صلة وهكذا أعلِنت الحقيقة التالية كمجرد إقرار واقع: في أيلول ـ تشرين 1966 وقعت فظاعات أخرى في كل أنحاء نيجيريا بما فيها لاغوس، مقرّ حكومة غوون. ولكن

الفظاعات عبرت عن نفسها أحسن تعبير في الشمال، كانت الفظاعات تجري أمام الملأ حتى في الجنوب (لاغوس) إلى حدّ أن مندوبي المؤتمر التأسيسي الذي باشره غوون تعرضوا على يد جيش غوون لمعاملة فظة أمام أبنية مجلس العموم حيث جرت هذه المحادثات التأسيسية.

عمليات القنص البشري التي أعلنتها تمتمات الرشاشات جرت حول إيكويو حيث كان يعيش غوون وجرت الإعدامات وجولات التعذيب في مكان إقامته الرسمية في ثكنات دودان وكان ضحيتها مدنيين اعتقلوا عشوائياً على الطريق العام. نقطة تفتيش إيكورودو كانت نقطة الاختطاف المفضّلة. كانت أحداث من هذا النوع شائعة في وضح النهار ومعروفة من قبل غوون. أما فيما يتعلق بالأحداث في الشمال، لنلخّصها بالقول إنها فظاعات جرت على نطاق واسع وشامل وحسن التنظيم حتى أنها باتت تدعى بطرق شتى بالمذابح الكبرى (تمييزاً لها عن بروفات أيار) أو بالإبادة الجماعية وأحياناً يشيرون إليها فقط بالاضطرابات أو حالة الفوضى (هذه الجوهرة الأخيرة من إبداع أو كبابي إيسيكا). غوون نفسه وصل إلى حد تصنيفها تحت مقولة الفظاعات في ندائه. الكلمة نفسها، نداء، ليست بلا دلالة. إنها تقول الكثير عن السيد غوون.

(الزملاء الشماليون:

أريد اليوم أن أتوجه بهذا النداء إليكم جميعاً.

كانت لدي رغبة عارمة في أن أزوركم شخصياً لأنني أعلم أن هناك الكثير منكم لم يتسنَّ له لقائي من قبل، ولكن هذه الزيارة لم تكن ممكنة نظراً لضغط العمل.

كلكم تعلمون أنه منذ نهاية تموز أوكل الله، بمشيئته، مسؤولية وطننا العظيم هذا، نيجيريا، إلى يدي شمالي آخر...).

هذه نقطة مهمة (مهمة بالنسبة لغوون) يؤكد عليها لأنه من الواضح أنه ليس الضحايا الشماليين هم من يحتاجون الاسترضاء، ليس مهماً بالطبع تأثير لغة استرضاء كهذه على المقعدين والمشوّهين ولذلك فإنه يعيد التأكيد على النقطة ثانية: (أودّ هنا أن أكرر ما سبق لي أن قلته من قبل. مسؤولية خير نجيريا تقع اليوم على كاهلنا نحن وهذه مسؤولية لا يمكن التساهل بها).

لا يجب بالطبع أن يكون التحريض الطائفي في هذا التصريح مشمولاً ضمن التساهل في المسؤوليات، كما لا يمكن إلاّ لأكثر الفوضويين تطرفاً أن يشير إلى أن أحد طرق التساهل في المسؤوليات هو استخدام لغة الاسترضاء أمام الفظائع. على كل حال دعونا نتابع:

(منذ كانون الثاني من هذه السنة، عندما أثار بعض الجنود الفوضى في بلادنا باغتيالهم قادتنا، السياسيين والعسكريين، لم تتعافَ البلاد تماماً من تلك الفوضى.

الحزن الذي تسبب به حادث كانون الثاني في ضمائر أبناء شعبنا أدّى إلى مشكلات قام بها المدنيون في الشمال في شهر أيار ونتج عنها خسائر في الأرواح. لا أزل حتى لآن أتلقى شكاوي يومية عن تعرّض الشرقيين الذين يعيشون في الشمال للقتل والمضايقة وتعرض ممتلكاتهم للنهب. أنا حزين جداً بسبب ذلك. يجب أن نضع حداً لهذا. يبدو أن الأمور تجاوزت حدود العقل لتصل إلى نقطة الطيش واللامسؤولية).

أظن أنني أتجاوز حدود العقل!

ملاحظات أضيفت بعد بضعة أيام:

تذكرت للتو ما شرعت في قوله: الآن وقد تم في تشرين أول 1967 (الغرب الأوسط) ملء ثغرة لجنة الفظائع في ذهنية السلطة أتساءل إذا كان، بعد أن تمّ تنظيف الغرب الأوسط من بقايا المقتحمين وصيانته تماماً وتدريعه بالدرع اللامع لأمة خالية من الفظاعات، إذا كان سيجري إنشاء لجنة فظائع للتحقيق في سفك الدماء والتعذيب الذي راح ضحيته المدنيون من إيبو الغرب الأوسط على يد وحدات فيدرالية ومساعديها المدنيين. تلقيت في شاكي قبل ترحيلي ملاحظات شاهد عيان من جندي فيدرالي، وهو شاب ترك المدرسة ورأى مُثُله تتمزق مع القتل الغشوم للمدنيين. احتجّ ثم فرّ من الخدمة وهرب إلى لاغوس حين شعر أن حياته في خطر. بعد أسبوع اعتقل واحتجز. كانت الإعدامات اليومية والتعذيب تجري على قدم وساق حين فرّ. شاهد كيف تتم تصفية عائلات كاملة بدم بارد. فظاعات؟ أم ببساطة حرب؟

كادونا 68

16

ابتدأ الموكب من مكتب المدير. طابور، قافلة، صفٌّ من الحمالين يقتسمون حمل ممتلكات هزيلة تكاد لا تثقل على طفلٍ في الخامسة من عمره. ابتدأنا الرحلة في أقفاص حيوانات. أقفاص مترابطة تبدو لمن لا يعرفها كمتاهاتٍ صممها علماء مجانين بغرض اختبار ذكاء الفئران. من سيختبر ذكاءكم أيها العبيد، ذكاؤكم وذكاء هذه الحيوانات التي تطيعون زمجراتها؟ من أجل المشاغل الشيطانية، أوه، أجل، ذلك النوع من المكر لا يحتاج إلى اختبار. سأكون دليلكم، شاهدكم العلمي. من الفئران إلى البشر ثمة خطوة ذكيّة بسيطة واحدة، أقفاص ومتاهات لإرباك الذهن. يُدعى اختباراً أو تشريطاً. ولربَّما من المفيد البدء هناك، أيها الغرّ، حيث هذه الأقفاص جزء من عمل كلي لتخمين شيء ما. والمخمّنون؟ مشكلتهم أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون. اطردهم إذن بسبب لا صلتهم بالموضوع؟ أدوات؟ مجرد منقذين في العملية؟ سُعاة تافهون ينقلون الحقيقة التي هي أنت؟ بلا خداع ذات الآن، أنت تعلم أن لديهم سلطة إيذائك. صحيح، ولكن هذا يصحّ على الأفعى السامّة القذرة التي تلسع لا على التعيين.

أقفاص. أقفاصٌ من الإسمنت وبوّابة مقضّبة بالحديد المبروم للعبور. هيئة بلهاء تحرس الكوى والبوابة نفسها حصنٌ بمزاليج ثقيلة، أقفالٌ لا توصف بالكلام. تندسّ يدٌ عبر كوة في البوابة وعينٌ تسترق النظر عبرها، يدور مفتاح وينسحب مزلاج ونعبر نحن. مرة ثانية نهاية الرحلة ليست منظورة. تتصارع يدٌ لا يُرى

مصدرها مع المزاليج فتنفتح هذه مصدرةً رعداً يتردّد صداه في كل يااردة. دائماً تلك الكوة المربّعة في البوابة، يد جلادٍ والبوابة التي تنفتح إلى الداخل تنسحب كي تخفي وجه وجسد حارس الباب. هل أنت خائفٌ مني؟ أم أنك تشعر بالخزي فتدرِّع نفسك؟ ثم لماذا يقتضي الأمر ثمانية رجال كي يقودوني إلى زنزانتي؟ أربعة أمامي وأربعة خلفي. ألم يعد مجرد حضور البدلة العسكرية طلسماً كافياً؟

سؤالٌ في كل عين من عيون النزلاء الذين يمارسون التمارين في الباحات: من يكون؟ من تكون هذه الضحية الجديدة؟ الخطوة سرية عبر سراديب الموتى. ولكن تلافياً لبعض العثرات الفنيّة التي أعرفها كان عليكم أن تجلبوني ليلاً وتتسللون بي إلى الداخل كي تتجنبوا العيون المتسائلة وشكوكها المستلهمة. لا شيء يفوت السجين، وخصوصاً تفاصيل النزيل الجديد. في غضون بضع ساعات سيفهمون الأمر نثرةً نثرة، يقارنون الاستنتاجات حتى يتمّ بلوغ الحقيقة. قفصٌ آخر أيضاً. واليد عينها تمتد عبر الكوة المربّة... بغتةً ألمس ثم أعانق قناعة: إننا لن نصل أبداً إلى المكان الذي نقصده. ليس ثمة مكان نصله. لسوف نمضي في هذه الممرات زمناً لا ينتهي. سوف أمضي في هذه الممرات الأبدية ومن أمامي وخلفي وقع الجزم على حصباء قاحلة. أنا وملكيتي البشرية التي هي هذه الأسمال البالية المحمولة أمامي كإعلام عن جريمة. سوف نمشي في هذا الممر الذي لا ينتهي وسوف يتساقط الموكب واحداً واحداً، واحدٌ من الأمام وواحدٌ من الخلف ومعهم ستسقط حتى هذه البراهين الملتبسة عن مَعْلمي البشري.

ما خلا بوليفيموس. بوليفيموس ـ يثبُ الاسم تلقائياً وبشكل طبيعي إلى الذهن ـ بوليفيموس. لا يمكن فكّه. لا يمكن فكّه ممَّ؟

بالتأكيد لا يمكن فك حروفه (أنت لذيذ أيها الغرّ، لا تزال قادراً على هذه النكات الصغيرة؟ بوليفيموس سوف يخرج النكات عنوةً من الجانب الآخر من فمك، انتظر. يمشي في مؤخرة الجنود ولكني لا أستطيع تخليص ذهني منه، من ذاك الحضور المبكر إلى المكتب أثناء تفتيش أغراضي، عيناه تخمّنانني وهو ينتظر انتهاء الجانب الرسمي كي يبقى وحيداً مع وجبته: أنا. أسود بما يكفي ليشغل ذهن أكثر المتحذلقين السود صخباً لإيجاد تحديدات جديدة للأسود، بوليفيموس يبلغ من الطول ثمانية أقدام، برجٌ من الخطر، كثيف التندُّب، ينخر ويبعد عينيه بسرعة حين أسبر أعماقه الخالية بنظرةٍ، ثم يبدأ خلسة يقيس اللقمة الغريبة التي قد تُربك هضمه. إذا كان ثمة في النهاية جَلْدٌ ولوالبٌ لأباهم القدم، وهراوات مطاطية ومناشف رطبة، أعلم أن بوليفيموس سيكون قسيس طقوس الخنوع. لا حروق سجائر، انتبه، ولا أسلاك كهربائية على الأعضاء العصبية أو أياً من هذه الوسائل الدَّمثة. حين يظهر نخاع العظم على الجدران فقد يتوقف مذهولاً!

أعلم في الحال أننا وصلنا غايتنا. الجدران باتت أعلى وثمة إكليلٌ من الزجاجات المكسورة، أنفاقٌ من الأسلاك الشائكة أكثر وعورة حتى من قبل. الآن، يقف الطابور الأمامي ويفسح طريقاً لبوليفيموس كي يصل إلى البوابة. ينبثق مفتاحٌ من طيات لحمه، شكلٌ هائلٌ يترهَّل فوق القفل. رغم ضخامة القفل فإنه يختفي في راحته. أستخدم لحظات الانتظار القليلة كي أمعن النظر حول هذا القفص فأواجه النظرة العجيبة لأحد القِرَدة، لقد تحوّل بعد كل شيء، وهو في حالة جثوم كما لو أنه على وشك الوثب، إلى الجنس البشري المعروف وإن يكن مجنوناً بلا أمل. ضاوٍ حتى أنه

بلا لحم تقريباً، جلده من رمادٍ قذر تبرز منه العظام كجمرات مطفأة وعلى وجهه تكشيرة ثابتة. لكز العناصر الذين يحرسونني أحدهم الآخر وأشاروا إليه. المجنون نكتةٌ ودّية. بسرعة تصفحت عيناي الوجوه الأخرى. نزيلٌ آخر أبعد يحدّق بوجهٍ طافحٍ بالشفقة. تبّاً لك! تبّاً لك ولأمثالك! لا تبدي شيئاً سوى الكره. اكرِه. اللهيب المحترق النقي للكُره يدفئك عبر الكآبة ويشحذ روحك إلى سلاح رهيف من أجل البقاء. لا شفقة على الضحايا المعتوهين بل فكّر بألا يكون ثمة ضحيا البتَّة! وإلاّ استلق ببساطة ومُتْ.

مشهد أشيائي هزلي ورثّ. مشط، صدرية بلون أبيض مصفر منكمشة من الغسل والاستخدام، بنطال احتياط صقيل من وطأة الاستخدام، منشفة يد، فرشاة أسنان ومعجون. التالازول وأقراص الأسبرين حُجزت في انتظار رأي الطبيب، اليوم التالي أفرج الطبيب عنها ـ وثلاثة كتب من مكان إقامتي الأخيرة ممزّقة من كثرة الاستخدام ومن المطر الذي جاء فجأة في إحدى الليالي وغمر كل محتويات الزنزانة. فيما بعد تختفي حتى هذه الكتب ذات صباح دون تقديم أي تحذير أو أسباب. أقلام الحبر، قلم الرصاص، كل قصاصات الورق جُرِفت بما فيها حتى علب السجائر الفارغة التي كان غلافها الداخلي ورق كتابة فاخرة.

يحدث ذاك بعد بضعة أيام فقط، وفق تمرين معتاد ومدروس، بعنف يندفع فريق تفتيش إلى الباحة وبعنف يتوزعون في كل الاتجاهات. يبحثون شقوق الجدران كلّها، ينبشون الأرض، يقلبون الفرش ويتفحصون الفجوات التي في الناموسية. إنها باحة صغيرة إذن فهم يملؤونها دونما عناء، جزمهم تدوس على جلدي حيث أقف قرب الباب تماماً أراقب. بوليفيموس يعطي التوجيهات ولكن التمرين يجري

تحت العينين المشرفتين الثابتتين لأحد الضباط المتقدمين. على كل حال مهمتهم ليست مجرد الأخذ. انتهت المرحلة الأولى، تطهّر وجودي من أي حضور مُفْسِد ومؤازر (وخطر!) للورق والطباعة، يتفقدون أساسيات الحياة وحيث ثمة نقص يكملونه. وهكذا أقف ولديَّ: في الخارج غرفة دوش بدون رشاش. مرحاض، ثقب في الأرضية الإسمنتية، قرفصة. في الداخل زنزانة نوم، سطل للماء بغطاء، كوب ألمنيوم وصحن، سرير حديدي، فراش من مادة قاسية، بطانية، شرشف صار لونه بنياً غير أنه نظيف، كتلة غير مهضومة تلك هي الوسادة، صندوق مرحاض مع دلو من أجل الاستخدام الليلي، أربع عصي من الرافيه[1] على زوايا السرير تحمل أوسخ ناموسية بعوض يمكن تصورها، لاقط غبار غير مستخدم وغير منفوض لأسباب تتعلق - اكتشفت ذلك فوراً - بعجزه الواضح عن منع دخول أي كائن أصغر من غراب أعمى يطير باسطاً جناحيه على اتساعهما. في الزنزانة الأخرى، زنزانة (النهار): كرسي، طاولة، صندوق مرحاض آخر لكنه يقوم هنا مقام خزانة لمواد الطعام. هذا الصندوق مصنوع من خشب أسمر وبالرغم من الغسل فإن ثمة لطخاً دائمة عليه تشعرك أنها تلوّث كل شيء. جاءت النقطة القاصمة ذات يوم عندما فتشت خلفه وهبَّ وباء من البعوض من شقوقه المظلمة، بعوض سمين كالذباب الأزرق (الذباب الأزرق الحقيقي أسمن من النحل) بطونها السوداء المثقلة توحي على الفور، ليس فقط بدماء السجناء الذين وراء الحائط - إذ لا يمكن أن يكون كل ذلك الدم مني! - بل بالقذارة واللحم البشري الفاسد والإفرازات. انخبلت لرؤيتها فهاجمتها «بمقشة» ثم رميت الصندوق بالطعام الذي فيه. في اليوم التالي زوّدوني بصفيحة كيروسين مقصوصة.

---

(1) ليف نخل الرافيه المستعمل في حزم الأزهار وصنع السلال والقبعات. م.

الزنزانتان، وهما غير متحاذيتين، تتوسطان مسكناً من أربع زنازين ضمن فناء العزل. الأخريتان مقفلتان دوماً. عرض كل زنزانة أربعة أقدام وطولها ثمانية. هذا المبنى مخصص أصلاً للعقوبات، فصُراخ السجين الذي يخضع (للمعالجة) هنا لا يصل أحداً ما خلا، ربما، ذاك القفص الأخير المجاور لقفصي، وذاك هو قفص الحالات المستعصية المحجوز للمعتوهين والمؤبّدين والسجناء العنيفين. معظم الذين يأتون لقضاء فترة تأديبية في هذا الفناء يأتون من هناك على كل حال. لكن هذه اكتشافات متأخرة. مواردي الطبيعية الحالية من الأشياء لا تشمل سوى زنزانتي ذات السقف العالي (أعتقد بهدف منع الانتحار شنقاً)، النوافذ الصغيرة توجد في أعلى الجدار ولا تشرف سوى على أفق من الأسلاك الشائكة وآلة نقر من الزجاجات، وفسحة التمرين حول المسكن ضمن الفناء والحضور العدائي للحارس المكتوب عليه ــ أجل المكتوب عليه - أن يحبس نفسه في الفناء ويقوم بدوراته اللانهائية إلى أن يأتي من يحل محله. ومن رؤية نفسك تحت رحمة قوى مغفلة بلا ملامح يأتي الإرباك العميق الثقيل بالعزلة الكتيمة.

أدرك وأرحّب ببداية عملية الانسحاب، تشديدٌ للعزلة المفروضة بعزلة ذاتية غريزية. أجد بادئ ذي بدئ أن جسدي يرصد كل الأشياء، هذه عملية لم تحدث خلال أربعة الشهور التي قضيتها في لاغوس، في لاغوس حدث الشيء المناقض. تأقلمَ جسدي مع المحيط، التقط إيقاع السجن، قَبِل وامتصّ نبض وأصوات ولمسة الأشياء والشعور بالطعام. ارتدَّ فقط ضد الأشياء التي تثير قرفي عادة: الوسخ والروائح السيئة والخيانة بين السجناء وفظاظة العناصر. انزلقت في حياة السجن كما يغوص المرء في جدول، عنصر غير طبيعي ولكن جسدي تأقلم معه. نقيض ذلك

جدث لي هنا. هنا أنبذ كل شيء، لا أقيم أية صلة، ينبذ جلدي موضوعاً إثر الآخر. الاستلقاء، حتى هذا لا ينطوي على أي اتصال. المشي، لا أشعر بملمس الأرض. تتسارع العملية نحو اكتمال كلي. قُتِل الواقع ودُفِن في ذكريات الماضي. للكلمات دورها في هذه العملية، تنوّم الذهن مغناطيسياً وتنزع من الجسد حواسّه. مثلاً: حين انفتحت البوابة الأخيرة وجدت نفسي أركّب حلقة لا معنى لها من الكلمات. كررتْ نفسها لمرة تلو المرة، مرَّة وراء الأخرى إلى أن انتبه ذهني الواعي أخيراً إلى هذا التعزيم. مقتطف من كتاب منسي من زمن بعيد؟ أم أنها ببساطة تنويعةٌ من أصالة عنيدة لذهن مبدع على تلك الأطروحة المألوفة: الداخل إلى هنا مفقود؟ لا يهم، إنها تمضي هكذا بنبرة موسيقى الأجراس: في زمن الشر أجيء إلى مكان الشر هذا، جلبتني أيدي الشر ومن يعلم قد أنتهي إلى الشر في مكان الشر هذا... ثم تبدأ من جديد. الآن فقط بعد أسابيع أدرك أنني قد نقشت هذا التعزيم على المدخل المقنطر للبوابة الأخيرة حين احتضن بوليفيموس القفل الهائل براحتي يديه الخانقتين واهتزت البوابة وهي تنفتح على الجحيم.

الآن كل الأصوات تصطدم ليس على الجدران الشائكة للفناء بل على جدار زنزانتي. لقد ابتدأت أنغلق على نفسي. أمبروزي، أقْدَر معذّبي، كان ذا عون كبير لي في هذه العملية. الحراس الآخرون، في الغالب، يختارون محيط الفناء كممشى لهم أثناء مناوبتهم، يمشون بتراخٍ داخل الجدران ولدى مرورهم أمام المسكن يلقون على الزنزانة نظرات يقتضيها الواجب. أما أمبروزي فلا. إنه يمشي تماماً على الدرب المرصوفة أمام المسكن ويستدير عند نهايتها ثم يمشي عائداً. حرفياً يقيس الدرب بالخطو جيئة وذهاباً. ابن الحرام! من هو السجين أنا أم أنت؟ الشيء الذي لم أفعله وأتجنب فعله بصرامة هو التمشّي،

حتى الآن. جزمة أمبروزي الممسمرة تروح وتجيء في الممر - أرفض أن أنظر إليه، أن أراه، أن أعترف بوجوده. دوسه العسكري الثقيل، رتابة خطوه الذي ينسف المخ تجبرني، بوعي الآن، أن أسرع وتيرة انغلاقي. ليس ثمة حماية أخرى. لكن ذلك يعني أيضاً أن خطوط الدفاع الخارجية يجري التخلي عنها. حتى الأصوات البعيدة لم تعد الآن تضرب، كما في السابق، على جدران الفناء ثم على جدران الزنازين بل مباشرة على جدران ذهني الذي راح يفقد الاتجاه والمنظور. أقرر أن ذلك هو الخيار الأفضل. دع العالم يتركز على شخصي. عاد أمبروزي إلى خَطْوه ثانية والكبسولة لم تكتمل بعد. لم تصبح كتيمة على الهواء، ومقاومة للعذاب بعد. غضبٌ هائل يلفّني وأعلم أنني على وشك العنف أو الاستسلام. يمكنني أن أطلب منه بلطف أو أن آمره بغضب أن يبتعد. لكل خيار فرصة نجاح مكافئة للآخر، فهناك شيءٌ واحد بات واضحاً لي في هذا المكان، وهذه الحقيقة غدت واضحة لي: إنهم جميعاً بلا استثناء يظهرون رهبة ما مني. أنا متأكد بالمثل إنهم لن يترددوا أن يضعوا حدّاً لحياتي إذا تلقوا أوامر بذلك. لكنهم مفعمون بالاحترام. هذا عاملٌ أحفظه في مخزوني لكي أستخدمه عند الحاجة وحسبما تقتضي الحاجة ولكي أعزّزه إن أمكن.

أقرّر أخيراً ألا أفعل شيئاً إزاء خَطْو أمبروزي. سيطِرْ عليها، كُفَّ عن التفكير بها، تعوَّد عليها. لا تطلب شيئاً، لا تنبذ شيئاً مرئياً، لا تكشف شيئاً، لا تكشف أياً من الأشياء التي تؤثر عليك. لا تبدِ سروراً ولا ألماً، لا شوقاً ولا قرفاً. شيِّد الكبسولة التي تحمي ذاتك ناعمة لا تدع ممسكاً لهم. ارسم تكشيرة واحدة ثابتة على تلك الكبسولة ودع خواءها يضاهي خواء أذهانهم السَّابِرة.

ولكن مع ذلك يتطفل الماضي. فمنذ أن قتلت بنجاح الماضي العطوب (الحبّ، العلاقات، ذكريات تحقيق الذات)، الأحداث المباشرة هي التي تشقّ الكبسولة الواقية، تفرض عليّ غضباً عقيماً وتفتح الأبواب لاتهام ضد ذاتي. مزاج كهذا ليس من شأنه إلا أن يجعل البطن الضعيف المستور عرضة للجلادين. أشرع بالخيار الوحيد ولكن بصورة مدروسة. أبدأ أعيش من جديد السلسلة الكاملة للأحداث حتى في المدة الزمنية وإن تكن غير دقيقة دائماً من الناحية الكمية. في الحقيقة كلها تقريباً لم تكن دقيقة كمياً. الأفكار وحتى الذاكرة تلمع عبر الذهن بازدراء متعال للصداع المعذب من التخطيط والانتظار والتنفيذ والانتظار والاختتام والبدء من جديد في وقت نشط. مرّة تلو المرة أستخدم الكابح: لديكَ كل الوقت الذي في العالم أيها الأحمق. خلال بضعة أشهر أعيش مجدّداً بضعة أشهر ماضية فتنطمس بضعة أشهر في مستقبلٍ خاو. سوف يصبح ذلك، أعترف ببطء، نموذج وجود. فقط سيطِرْ على ذلكَ يا كرونوس. سيطر على حطام الذاكرة في مياه ليشي، نهر النسيان. شيئاً فشيئاً بالتعاقب ألغِ الواقع الملموس للحاضر. التورية تسلّيني مع أنني أنكمش عن الأرضية الإسمنتية[1].

الماء هي الاستثناء الوحيد من رفض هذا الجسد. بينما تمطر السماء، أو حتى في أبرد الأوقات في الهارمَتان، أقف تحت الأنبوب الذي لا ينتهي برشاش وأترك رأسي تحت قوة خرطوم الإطفاء. نظيفاً، معزولاً وقوس قزح يتعلق على الرذاذ في وقت العصر. هديرٌ مروحيّ صلب عندما يضرب تدفقه على الأرضية الإسمنتية. عندئذ لا تنكمش قدماي عن الأرضية. ولكن بعدئذٍ، المسير المتباطئ إلى نعش حليم.

---

(1) التورية هنا تقوم على أنَّ كلمتي ملموس واسمنتي لهما في الإنكليزية مقابل واحد. م.

17

هرااا غره هرااا غره هرااا غره.. بتوه ـ بصاق!

خنزير!

هرااا غره هرااا غره.. بتوه ـ بصاق!

خنزير!

هراااا غرررره هرااا غرررهاررره... بتوه ـ بصاق!

خنزير همجي قذر!

لا توجد حافة للغضب. لا شيء سوى غيظ رخو مُتعَب، شكٌ منهك... أيوجد حيوانات مثلك؟ هل تنتمي أنت إلى نفس النوع الذي ينسب إلى نفسه روحاً وإحساساً وتفكيراً؟... الثالوث القذر انتهى الآن، أرفع أصابعي من أذنيّ، وهو إجراءٌ لا جدوى منه على أية حال، فحمأة تنخّم الأعماق هذه تكسر كل الحواجز المضادة للصوت. لا شيء يقاوم الغور الكريه حين يدوزن نفسه لقذف نفاياته. بمعدل ثماني عشرة مرة في النوبة الواحدة. اسمه سهل – هو غروث. ببطء تعود المعدة إلى حالتها الأولى وتكفّ عن الجيشان. مضت ثلاثة أشهر ومع ذلك لم أتعلّم التعايش مع هذه الحالة. أعرف أنني لن أتعلّم ذلك مطلقاً.

أحياناً يعطي إشارة تحذير. سمعت يده الجرباء تنغمس في دلو تسخين وبعد ذلك في الحال صوت خرخرة المياه تقوم بأعمال الدورية في فمه المطلي بلون قاتم. عندئذ تطير أصابعي لتسدّ أذني. أعرف ما سيلي ذلك. وبالفعل، كما لو أن كل العلاجيم اجتمعت

في واحد وأن هذا العلجوم العملاق المُغْثي محشورٌ في حنجرته ـ هراااغه ـ وبصاق! كتلة البصاق تضرب على الحائط. لهذا الرجل، لهذا الشيء، عائلة. له زوجات، له أولاد، وله على الأرجح عيال يذعنون له وينادونه بابا. وبالتأكيد له أصدقاء يزورونه وهو يزور جيرانه. يحضرون الأماكن العامة ويقف وسط حشدٍ ما يحدّق إلى غرابةٍ ما، ويقضي يوماً في مناسبة اجتماعية ما، أمسية في حانة، أمسية لتقطيع الوقت في أنشطة لاهية مع آخرين. إذن هل تُحدِثُ ذاك الصوت الخنزيري في كل هذه المناسبات ومع كل أنواع الصحبة؟ أجل أيها الخنزير، أنت بخلاطة الإسمنت التي هي حنجرتك وهي تتقيأ اللِّبْن والخَبَث والملاط الروثي، صحيح؟

على بعد أربع ياردات، كتلةٌ من مادة لزجة تضرب الحافة المعشوشبة من المزراب، نهاية قوس غائم يبدأ مع بتوه! وينتهي ببصاق! ويُستأنف المخض في الحنجرة مهيّئاً العالم لكتلة أخرى من الغورو[1] المحبحبة. وهو يتمشى، وهو يجلس، وهو يتكلم عبر الثقب الذي في الباب مع زميله الذي يحرس في الجهة الأخرى، حتى حين يغلبه النعاس وهو يجلس على سطل مقلوب ورأسه ساقطٌ إلى الخلف مستنداً إلى الحائط، فمٌ متعدد الألوان مفتوحٌ على اتساعه، بثرة أسنان نخرة يعلوها فطرٌ أخضر مصفر، سقف مطلي بلون قاتم سميك يتلاشى في مداخل عاتمة تقود إلى المخامر الزَّنخة، في مكان ما وسط متاهاته المستنقعية ثمة شريط من الكولا يدغدغ الضجر الذي يغلف حنجرته ويطلق الوباء الرهيب، يلي ذلك ثالوث التجريف ثم تنقذف إلى العالم المادة اللزجة المائلة للحمرة. دون أن يستيقظ، ودون أن ينقطع الشخير المرافق.

---

(1) اسم محلي لجوز الكولا.

رقبته توأمٌ لرقبة النسر. توأمٌ حقيقي، رقبة مستجدية ذاوية مُلطّخة وذات جلد رخو. لن يستغرق طويلاً وضع حدّ للكارثة، ولكن كيف يعيش المرء بعدئذٍ وهو يحمل ذكرى التماس مع ذاك اللحم البشري مهما يكن تماساً وجيزاً؟ ليس لديّ يدان إضافيتان من أجل هذا العمل. ومع ذلك، إذا لم يكن ثمة خيارٌ آخر بمقدور المرء أن يفرك الجلد حتى يتقشّر برمّته. وإلى أن ينمو جلد جديد سوف يمر الكثير من الزمن وأنت تقضي حياةً كاملة في السجن. إذا كان الشنق حتى الموت هو العقوبة فعندئذٍ ليس هناك فرق. أما إذا كان السجن المؤبد. اقشُط جلد يديك حتى الإدماء واجلس في الصمت إلى أن يحترق كل ذاك التماس ـ لكن بعد ذلك لن يجرؤ أي عنصر يقوم بحراسة معتقل انفرادي أن يثير مثل هذا الاشمئزاز لدى المسجون الذي في عهدته. هو غروث ميت. وهجٌ جديد على العالم، أسمع السجن يحتفل. المشكلة هي كم يقتل المرء منهم، لأن ثمة آخرون كلٌ منهم، يكاد لا يكون هناك استثناء واحد، قد طوّر صنفه الخاص من الإزعاج. الإزعاج بالصوت ناجعٌ هنا لأن السرداب حجرة صدى. تأتي الأصوات، العالي المدى منها والمنخفض، إلى المستودع، إلى مضخِّم الأصوات المؤذي. من جوار حمأة القنوط تتناهى إلى أسماعنا، السرداب وأنا، صرخات الأرواح المعذبة وعويل المجلودين وعواء اللواحم في جوف الليل البهيم. حوارٌ مغمغم مع أرواح زائرة لا مرئية. القوقأة المجنونة للضباع. كل ذلك يعبر من طرقات هوائية مختارة إلى السرادب، مضخَّماً مئة مرة وفي حجرات الذهن تتردد الأصداء مضاعفة ألف مرة.

الخنزيرة عدوٌّ آخر. لا، ليس الخنزيرة هي من جاء بعد هو غروث مباشرةً. خذ كاليبان، استراحة خفيفة.

لم أرَ كاليبان البتّة. من الناحية البصرية يبقى كاليبان لغزاً. لكنني أعلم أن لديه ساقاً ونصف. أو ثلاثة سيقان. لا شك أن إحدى ساقيه لها من الطول (أو الوزن) ضعف الأخرى، لا يمكنك أن تخطئ اللاتكافؤ في أصوات ارتطامهما المكتوم بالأرض حين، في نوبته الليلية، يخبط وهو يمشي في تجاويف رأسي. جرّة قدم ثم ضربة مهدّة. في صمت الليل وعلى إيقاع خطوة اللامتساوي، جـرَّة وخبطة ثقيلة، يعبر شبحٌ من الروائح ويعاود العبور. إنها رائحة خمير في أقصى التخمر، عبور بقٍ منتن تجذبه رائحة زيتية رديئة. أهو كريمٌ بالروائح إلى هذا الحدّ كي يغطي على رائحة الكحول؟ كاليبان يشرب جرعة سرية لم يبلغها إنسان أو بهيمة، حتى بمجرد عبوره تمتلئ الزنزانة بمزيج من زفيره ورائحته.

كما أن كاليبان يغني. في سكون الليل وعلى إيقاع الـ(جـرَّة ـ خبطة ثقيلة) ينطلق في محاورةٍ لها تماماً إيقاع وقع خطواته. مقاطع متناوبة من أغنية حزينة غامضة لنفسه أولاً ثم في تحدّ متهور إلى السماوات. السماء تُروَّع بالنفس القدير وبحكمةٍ منها تبقى صامتة. من زاوية نائية في الفناء يجيء صوت جديد ممزّقاً مرثاة كاليبان السماوية الروح. إنها معركة مشمّعه المطري وقد تعلق بالمرشة أو دخل في مشادّة مع شجيرة الليمون. استمرت المعركة زمناً طويلاً، في البداية تحوّل الصراع الصامت كلياً إلى هزّات عنيفة للشجيرة أو إلى ولْولات المرشّة، في حين راحت جزمة كاليبان تبحث عن صفقةٍ أرسخ مع الأرض الحصيّة الخائنة. ثم تتدخل الشتائم وقد حرضتها الروح المعذبة لكاليبان. يتسع إيقاعه الآن، إيقاع واحد ـ اثنين الذي طال انقطاعه، ليسير خطوات انزلاقية غير متكافئة، والآن يبدأ المسخ بمحاولة فك المشمع المطري من العقبة لبضع

دقائق، وقد بات ذا ذهنٍ تحليلي في غمرة سكره، بعدئذٍ يندفع إلى معمعة الشجار بسيلٍ قوي من الشتم القسري، وقد اقتنع أخيراً ألا شيء يحل المشكلة سوى الهجوم المباغت.

يطوف النوم عائداً إليّ برفق مع هجوم الليل، ولكنه مرة أخرى يُجبَر على التراجع. فرقعة عنيفة تمزّق الهواء، فرقعة شراع وتَرته الرياح على اتساعه. إنه كاليبان مرة أخرى. تحرّر مشمعه المطري وهو الآن ينفضه وينشره من أجل صلاة الفجر. ترانيمه مُعدّةٌ كي تصلِ بالدفع الفيزيائي المحض إلى إلهٍ ينتظر على الجانب الآخر من الكون. يسبِّح بقوة الصوت نفسه، يطقطق بقماش الشراع في نهاية صلواته، يرفس السطل مرة أو مرتين، ويستأنف جوسانه غير المنتظم إلى أن تنتهي مناوبته. كاليبان لا ينام أبداً. ولا أنا أنام حين يناوب كاليبان في الليل.

18

لقد تغلّبت على وقع خطوات أمبروزي ولكنني الآن أواجه خطر صوت جديد، إنه يحفر الكبسولة ويهدد بنسفها كلياً. كيف بقي هذا الصوت غير ملحوظ طوال هذه الفترة، ذلك، كما أعتقد، إما بفضل قوة التعذيب الأمبروزي، أو بفضل قوى الحذف التي كنت أمارسها في السابق. أقول في السابق لأن التعذيب الصوتي بات واضحاً الآن، الشيء الذي لم يكن من قبل.

إنه يصدر عن المشرف الأول الذي يقوم بالتفتيش الصباحي متبوعاً بخمسة أو ستة عناصر من ضمنهم بوليفيموس ومرشح ضابط غرّ. يصيرون على مرأى مني، هو يستند إلى الإطار المقضّب مغلقاً طريق الضوء، والآخرون غير واضحين في الخلفية. أستيقظ دائماً قبل بضع ثوان فقط من الظهور الفعلي، يطلقني إلى الحياة صوت صرير الجزمات وتحرر المزلاج في بوابة الفناء من موضعه.

حتى الآن كل شيء مرَّ بسلام. لا أرى، لا أكون. نعم أعتقد أنني ألغيت كينونتي كما ألغيت المحيط - إحساسٌ عائم غامض هو كل ما يبقى، ثقالة المكان والزمان. إذا كان من الممكن أبداً للذهن أن يغدو خاوياً، خاوياً بالمعنى الحرفي، فقد أنجزت ذلك. بفعل الضرورة والمعرفة الغريزية بسبل البقاء. الطعام، مجرد واجب. لا أسمح لنفسي بالتذوّق ولا بالمتعة أو القرف، لا تماسّ فيزيائي أو حسّي، لا حميمية مع جسدي ولا إقرار بذهني. عند نقطة ما، دوَّنت نموذج الطعام وأنا أوجّه جسدي: كُلْ هذا، دائماً كُلْ هذا.

ارفضْ هذا، جسدك يمكن أن يستمر بدونه. آكل البرتقال متغلّباً على نفوري من البرتقال. أكره الحمض الشاحب اللزج الذي ينبجس من القشرة، أملّ طعم البرتقال نفسه. على خلاف الماندرين، فلقاتٌ رقيقة من الشمس في فمك، أو العنب. على خلاف دزينة من الفواكه الأخرى من هذه الطبيعة. وليس حتى كمثل المانغا التي لا أتناولها إلا نادراً بسبب لزوجتها المشابهة، ولكنها فاكهة أعترف لها بنكهة مميزة. غير أن البرتقال هو الفاكهة التي يوزّعونها دورياً في السجن، وثمة في لحمته كمية غير عادية من الفيتامين C. أذكُر ذلك بهذا القدر، إذن كُلْ برتقالاتك! مرة تلو الأخرى أذكّر نفسي، المرض هنا مصيبة.

ولكن إصابات الذهن تواصل تهديدها من كل الجهات، والتنويعات الصوتية هو الأسوأ من بينها. ذات صباح صقيعي أستيقظ على هذا الوابل الجديد، صوت أسطوانة مشروخة: صباح الخير. كيفك اليوم... كك... صباح الخير كيفك اليوم.. كك... صباح الخير كيفك اليوم.. كك... أقاوم مستيقظاً، وأعلم الآن أن هذه الأسطوانة تعزف منذ أسابيع. وجهٌ مخادعٌ نحيف على الجانب الآخر من القضبان، المشرف الأول يقوم بجولته، لا يفتش شيئاً ولا يعالج شيئاً ولا يقدر على شيء سوى على إثارة حنقي: صباح الخير، كيفك اليوم.. كك.. صباح الخير كيفك اليوم. كك. صباح الخير كيفك اليوم كك.

مثل الأمس يا ابن الحرام وأول الأمس، مثل الغد والأيام الطويلة التي تليه أيها اللطّخة العديمة الإحساس!

أعتاد على النهوض حالما يتحرر قفل الباب، أعني باب زنزانتي، مضيفاً إلى امتداد الزمن ساعة أخرى كنت أقتلها من قبل

بالبقاء مستلقياً في السرير، لا أعلم شيئاً ولا أشعر بشيء تاركاً أبخرة النوم تتبدّد ببطء كما يطيب لها. وأحياناً أنجرف ثانية إلى النوم مؤجّلاً المواجهة مع الجدران والخفر والطعام والرياح وحتى أشعة الشمس. أختصر اليوم، أنجرف بسهولة متزايدة إلى تمرينات انعدام الوزن تلك التي قبل اعتقالي كنت أمارسها كيفما اتفق لبضع دقائق من الاسترخاء. أعتاد على النهوض المبكر، أبدّد بالمشي توتر انتظار التحية الغبية المتوقَعة. في الهواء الطلق أشعر أنني بشكل ما أقل عرضة للأذى.

خطأ تكتيكي. في السرير كانت الصرخة تتخمد في شرنقة الجسد المسترخي، الشتيمة التي كانت تصاحب تراجعي عن عدم الرد على تحيته حيث كنت أشعر حرفياً كأنني أتسلق حائطاً. أي غمغمة أتفوه بها من خلال البطانيات كان يستقبلها بسرور عظيم كردٍّ مُرضٍ على استفساره اللجوج. كنت أنوِّع ردّي كل يوم من (ماشي الحال) إلى (مثل كسّ جدتك). ولأن البطانيات أو الوسادة كانت تخمد الصوت فإنه لم يكن يميّز بين الردّين. كنت أحمقاً حين تخليت عن امتيازي بردّ التحية عليه وأنا مستلق في فراشي. الآن في الهواء الطلق، المثلث الأبعاد لم يعد وجهه النحيف مسطحاً مثل كرتونة، مضغوطاً على القضبان إلى درجة التسطح، صار علي الآن أن أقاوم نفسي حين يعاودني التوتر من رؤيته وانتظار تحيته، ضد إغراء أن أصفعه على وجنتيه بكلتا يدي في ضربة واحدة، لأن لديَّ هذه القناعة التي تزداد رسوخاً وهي أنني بمجرد أن أقوم بهذا الهجوم فإن وجهه سوف يتسطح إلى أسطوانة فونوغراف بين يدي... عندها سأتناول القرص وأحطمه على الحائط مُصمِتاً عادته السخيفة إلى الأبد.

أهرب عائداً وألوذ بالسرير. المضايقة تستمر. إنه الهارمتان وما من رجل عاقل يأخذ دوشاً بارداً قبل منتصف النهار، ولكن لم يبقَ لي من دفاع سواه. أتناول صابونة واسفنجة وأهرع إلى المحراب المتجمد لغرفة الحمام المفتوحة. حين أسمع النقرة الملكية لمخصرته على البوابة أفتح الصنبور. رعشة ترهق جسدي وتيارٌ جليدي يحطم جمجمتي. لكنه ملاذ.

فلأرجع إذن إلى ترميم الكبسولة. يسحب الحلزون قرنيه، يختم فتحة القوقعة بلعاب مقوًى، قنفذٌ يتكوّر إلى كرة شتوية من الأمينزيا. يمكنني تجاهل سقوط ورق أشجار، هباءً منبثاً في أشعة الشمس وحتى حبات البرد، ولكن ليس الإيسكا، ليس ريح الشمال، ريح الهارمتان الضاربة تلك، ليس وأنت في زنزانةٍ الباب يشغل القسم الأعظم من أحد جدرانها والنصف العلوي من هذا الباب مفتوحٌ سوى من قضبان قطرها إنش ونصف. والإيسكا تُحيل حتى النصف السفلي منه إلى شيء لا معنى له. فخشبات هذا النصف تترك فيما بينها فجوات باتساع إنشات لاستقبال الدخول الجشع لثورة الرياح وحقدها. السرداب بالنسبة لعاصفة الهارمتان هو أكمل مصيدة بُنيتْ حتى الآن. تقذف الرياح نفسها من جدارٍ إلى جدار، تصفع وتهز المسكن وهي تعول وتصفر بالتناوب كآلة جهنمية تحفظ توازنها في الفضاء بين الزمجرة والانفجار. أسمعها بوضوح تتجمع في الممر تماماً خارج زنزانتي، تهدأ وتحتشد وتبدأ هجوماً جديداً في اتجاهات عديدة في آن، تزرع السكاكين في عروقي وتجفف العظم والنخاع، ثم تصبح الزنزانة مركزاً جديداً للعاصفة، تنصبّ الرياح عبر كل شقّ، وتستفحل إلى ضغط صقيعي لا يطاق، قبل أن تحرر نفسها شيئاً فشيئاً عبر القضبان

المفتوحة والنافذة التي تحت السقف مباشرة. وتتواصل الحلقة طوال الليل. النوم خلال فترات هدوئها موسومٌ بحلمٍ واحد، حلم واحد فقط: أنا مكسوٌّ بكتلةٍ من الجليد خلال عرض من عروض السحر، فقد تبرَّعت أن أُنشَر إلى نصفين على يد ساحرٍ يفقد أعصابه ويتسلل هارباً. أصرخ أو بالأحرى أومئ بعينين رأراءتين طلباً للنجدة، يندفع بعض الحضور إلى الخشبة ويهاجمون كتلة الجليد بالمطارق. أستيقظ على الإيسكا تدقّ صدري.

صباح الخير كيف. كِك. صباح الخير كيفك. كِك ـ برد! أريد بطانية إضافية. ماذا؟ كم بطانية لديك؟ واحدة. ماذا؟ واحدة فقط؟ يلتفت إلى بوليفيموس. أعطهِ بطانية إضافية من المخزن. مخزن؟ أجل أعتقد أن لدينا بعض البطانيات سأزوّده بواحدة اليوم. إنها المرة الثانية، يخيَّل لي، التي أكسر فيها قانوني في البقاء، المرة الأولى كانت تتعلق بناموسية البعوض. لقد راعني في العمق نهر الدم اليومي على شرشف سريري. أسراب البعوض التي تهبّ من الزوايا المعتمة حين يقلقها شيءٌ ما في النهار. مئاتٌ من البعوض السمين المنتفخ بالدم، فقررت أن أطلب ناموسية صالحة للاستخدام. وجاء قراري بعد جدل مع نفسي كنت سعيداً أنني كسبته. أسمع، هكذا كانت تمضي الحجة، في المهاجع الأخرى يوجد مئات النزلاء والبعوض يقتسم مؤونة الدم هذه، كل نزيل ينال على الأكثر أربع بعوضات. أما أنت فعلى العكس، أنت وحيدٌ في هذا الفناء تقتسم دمك مئة بعوضة. طلب الناموسية ليس إذن امتيازاً بل ضرورة وإذا أنكروها فذلك ظلم. لم ينكروها. استلمت ناموسية ليست نظيفة فقط بل إنها لا تحمل سوى ثلاثة ثقوب يمكن إصلاحها كلها.

ذلك النصر الصغير، إضافة إلى سكاكين الإيسكا، حرَّض تصميمي كي أطلب بطانية. مضى أسبوع ولم أستلم البطانية. ذكّرت بوليفيموس مرتين. الإيسكا تبقيه في سريره أو ربما لأسباب أكثر شؤماً الصفر الأول لم يكن ملتزماً التزاماً دينياً بتفتيشه الصباحي كما اعتقدت. لم أعد أراه. لفترةٍ، صار مساعده يقوم بالواجب، وهو متلفعٌ حتى عينيه بالمعاطف والتلفيعات. يسرع أخرساً ورأسه محنية للريح عبر الفناء. ثم حتى هذا تخلى عن الظهور. إنه وقتٌ آمن. صمتت كل الأسطوانات. الخَفَر جميعهم محزومون بشكل دائم في معاطفهم الضخمة، القانون يسمح لهم الآن بارتداء ملابس سميكة تحت قمصان الخاكي. صدورهم مكسوَّة بلا استثناء بصدريات صوفية معظمها إصدار عسكري من الحرب العالمية الأولى. الكثير من واقيات الأذنين. حتى الباحاتي الذي يحضر لي الطعام يرتدي الآن فانيلا داخلية. مناوبو الليل يحزمون أنفسهم مثل سكان الإسكيمو، طِماقات ثخينة حول الساقين ومعطف إضافي من اللِّباد. بوليفيموس يستخدم أغرب كساء بينهم جميعاً، معطف عسكري ثقيل يداخله المطاط على ما يبدو. للمرة الثالثة خلال أسبوعين أذكّره بحاجتي للبطانية. وللمرة الأخيرة أيضاً. أصمّم ألا أطلب منه أبداً مرة أخرى. عليَّ أن أواجه الإيسكا بقميص صيفي وبطانية واحدة.

لا مراهم لدي ولا أحذية، فقط شحاط. جسدي هو المركز الغباري السميك لبردٍ جاف. بات الجلد حراشف، وتحولت الشفتان والراحتان وباطن القدمين إلى جلدٍ عتيق. أراقب شقوقاً هائلة تتثاءب في عقبيَّ وعلى جوانب قدميّ. يصبح جسدي شغلاً شاغلاً جديداً بالنسبة لي، انهماك جديد أبدّد به الساعات. حتى الآن لم ألاحظ الحقيقة الفيزيائية للجسد، لم ألاحظ سوى

إحساساته. لقد غدا الآن مجالاً غريباً حيث تتوسف القشارات من كل جزء بمجرد التدليك. تصلب جلد عقبيَّ وابتدأت تتشكل عليهما جُسأةٌ مشققة بسماكة إنش. أقشر شرائح من لحم ميِّت، وأظافري تتكسر هشة بينما أقوم بذلك. شفتاي مؤلمتان وداميتان وقد ابتدأت شقوقهما تساهم في حصاد القشارات. بمجرد أن أفرك يدي ببعضهما بلطف تتولد كهرباء ساكنة تستطيع جذب قصاصات من ورق التواليت. يتقصّف الشعر بشكل لا معقول بمجرد أن أمرّر فيه المشط. يطقطق كعيدان ناعمة.

معاناة العينين من البرد والغبار هي الأقسى. باتتا محمرّتين باستمرار، أخشى أن اليمنى منهما قد تلفتْ. أصبح مقتنعاً أن نورها سينطفئ، وأتساءل هل ستكون المونوكل مضحكة إذا ما اضطررت لوضع نظارات؟ ما من فرصة كبيرة لذلك هنا على كل حال. فمطالباتي بمقابلة الطبيب قوبلت بإيماءة غير مبالية من الرأس يمكن ترجمتها بـ (لوحظ الطلب)، فيما بعد صارت طلباتي تُقابل بضجرٍ صريح. ذات مرّة جاء الممرض، رمى يديه إلى الأعلى ورفع كتفيه.

صارت اللعبة مع جسدي مملّة. ابتدأ جسدي - لمسة وسخ من قميصي تلخّصهُ الآن - يثير قرفي، ومع هذا لا أجرؤ أن أسلم القميص للغسيل إلى أن تخرج الشمس ثانية أمامي. فقط خيار واحد، أن أواصل دوش ما بعد الظهر حتى ولو كانت الشمس ضعيفة ورطبة. أو أن أغسل القميص وأبقى طوال النهار في السرير. فبعد الدوش تمسُّ حاجتي لدفء الملابس وليس لديَّ سوى قميص وصدرية فيها ثقوب بحجم ثقوب ناموسيتي المُنسَّقة. هذه يمكنني أن أغامر بغسلها لكن القميص يقوم مقام واقية رياح، وإذا لم يجف خلال ما بعد الظهر فسوف أقع تحت رحمة ضراوة المساء.

إحساسٌ غريب في جلدي. لقد بلغ مرحلة التجفاف التي تجعل التشقق مؤلماً. العملية تجري في الحفرة الخبيثة في الظهر. هذا يعني أن عليَّ ألا أقوم بحركات مفاجئة. يجب أن يكون التمطط بطيئاً، ليس لي أن أنحني فجأة، وليس لي أن أطأطئ البتة. يجب أن أتحرك بشكل يسمح للتشقق أن يكون بطيئاً ومنتظماً. أتعلم الدرس شيئاً فشيئاً تذكرني وخزات حادة. صارت الأصابع ناميات غريبة متيبسة عند المفاصل، وتحتاج معاملة لبقة لإنجاز أبسط الأعمال. الكوب الذي لا يتكيّف بسرعة مع وزن الماء المضاف إليه ينزلق من أصابعي. أتعلم أن أحسّ بقبضتي من خلال حاجز من الجلد المتيّبس على يدي.

فكرةٌ بارعة. حتى الآن، وباعتبار أنني لا أحب المارغرين، كنت دائماً أعيد حصتي منها إلى المطبخ (وغالباً ما أتظاهر أنني لا ألاحظ الخفير وهو يدسّها في جيبه ليزيد غذاء عائلته). أنا شديد الحاجة الآن إلى نوع ما من المرهم قبل أن يتحول جلدي إلى جلد تمساح، أبتدئ بتجريب المارغرين. أبدأ بالقشرة الأرضية المنكمشة في حفرة ظهري، وأنا أقاسي الآلام كي أشحمّها وأتجنّب في الوقت نفسه انشقاق الجلد المفاجئ. ثم الشفتان، وحتى باطن قدمي وبالطبع مفاصل الأصابع. ما من شيء سينقذ القدمين حتى ينتهي الهارمتان ولكن كل الحراشف الأخرى تستسلم لإسعافات المارغرين. الأصابع والشفتان حفرة الظهر تصبح مرة أخرى ليّنة وبشرية. لا بد أنها عملية، كما يخيل لي، تشبه طرح الجلد القديم عند الأفاعي. خلال أسبوع آخر يصبح لي جلدٌ ناعم أُحْسَدُ عليه، جلد لا ينتظر سوى مستطلع يكتشفه ـ ثم ـ عقود بالجملة للإعلانات عن آخر كريم تجميل! هذا الجلد... أيضاً ... منتن بفظاعة.

19

جاء الضابط المرشح في أحد الصباحات يحمل كدسة من صفائح ورقية مقصوصة بترتيب، وتحمل مع ذلك، الإهمال المعهود لبيروقراطية نمطية.

ـ صباح الخير يا سيد، لدينا لك بعض الاستمارات كي تملأها. كانت ابتسامته ابتسامة من يحمل أخباراً طيبة. انتظرت منه أن يفسّر ما الذي رسم فرحاً كهذا على بلاهته. مدَّ لي ورقة وقد باتت تكشيرته أظْهَرَ للأسنان.

(على الأقل لن تتكلف القلق بشأن عائلتك. لا شيء أفظع من أن يكون الرجل هنا قلقاً بمشكلات عائلته...).

تناولت الاستمارة بامتداد غريزي من الشك في جسدي. المطلوب ببساطة شديدة أن أدوّن اسم وعنوان الجهة المستفيدة من راتبي ثم أوقع الاستمارة. على الجانب الآخر توجد سطور منقطة لملئها بأسماء المستخدمين.

ـ فكرة من هذه؟ أردت أن أعرف.

ـ إنه أمرٌ حكومي. أصدر غوون تعميماً إلى كل الدوائر والمنشآت الحكومية بدفع رواتب المعتقلين كاملة لعيالهم. بما فيه المؤسسات الخاصة وشركات التجارة. كل معتقل يجب أن يتلقى راتباً.

ـ وذوو المهن الحرة؟

ـ عفواً؟

ـ ذوو المهن الحرة، من سيدفع لهم رواتبهم؟ من سيهتم بعيالهم؟

تحديقٌ طويل فارغ. ثم أخيراً (حسناً، لا نعلم شيئاً عن هذا، كل ما نعلمه أن التعميم وُجِّه وجاءتنا هذه الاستمارات. لماذا تقلق بشأن هؤلاء الناس الذين لا وظيفة لهم؟ عائلتك هي الشيء الأساسي، الأقربون أولى بالمعروف).

(في لاغوس) شرحت له (كنت في مبنى زنازين مع عامل كهربائي حرّ وبعض المزارعين التجار الصغار والمحامين وقائد فرقة موسيقية وصاحب دكان فقط لأعطيك عيّنة. هل سيتلقى هؤلاء والمئات من أمثالهم استمارات مشابهة؟)

ـ بالتأكيد. أجابني. يجب أن توزّع الاستمارات على جميع المعتقلين، هذا هو التوجيه الصادر عن هيئة الأركان.

أدرتُ له الورقة، وأشرت إلى المكان حيث ينبغي كتابة اسم وعنوان المستخدِم: (ماذا سيكتب هؤلاء الناس في هذا المكان؟ أليس إلى هذا العنوان يجب إرسال الاستمارة؟).

ـ أجل.

ـ إذن ماذا سيكتبون في هذا المكان؟ ومن سيعتني بعيالهم؟

انتزع قبعته كي يحك رأسه وأخيراً (لا أدري).

أعدت الاستمارة له. كانت دهشته مؤثرة.

ـ ألن تملأها يا سيد سوينكا؟

ـ ليس بمقدور غوون ومستشاريه أن يمحوا العدالة بهذه الرشوة الصبيانية الفاقعة.

ـ ولكن عائلتك يا سيد سوينكا! أرجوك فكّر بهم! كيف سيتدبرون أمورهم دون....

ـ لا تقلق إنهم لن يموتوا من الجوع. لنا أصدقاء وأسرتنا كبيرة كما أن زوجتي موظفة.

ـ حتى لو كانت روكفلر يا سيد، المال مال.

ـ ليس دائماً. أو على الأقل هناك شيء اسمه ثمن الدم، أو مال السكوت. هل سبق لك أن سمعت هذا التعبير؟ مال السكوت هو مال يدفعونه لك كي تبقى صامتاً، أو كي تشعر بالامتنان تجاه مضطهديك.

ـ لا أوافقك يا سيّد. هذا المال ليس مالهم. إنه مالك أنت، راتبك. إنه المال الذي كنت ستقبضه لو لم يضعوك هنا. بعد كل شيء أنت لست مجرماً. على ما أعتقد هذا يظهر الفرق بين المعتقل والمُدان. لو كنت مداناً لطُردتَ من وظيفتك، لكنك لا تزال رئيس قسم، لذلك يجب أن تقبض. وهذا ما تقوله الحكومة.

ـ أنت غلطان. حتى لو اتسع البرنامج ليشمل الجميع يبقى الخداع الأصلي. من أعطاهم الحق بأن يحسنوا على الناس من الأموال العامة في حين لا يتطلب الوضع منهم إلاّ العدالة؟

ظلَّ مشغولاً بوضعي الخاص ويبدو عليه الغضب.

ـ يا سيّد إذا لم توقع الاستمارة فسوف تقاسي عائلتك بلا معنى.

طمأنته وأنا أقف على نحو غير مألوف بجوار ذاتٍ غريبة طرحت شكوكها وارتاحت وأطلقت العنان لقوتي المُجهدة في ثقة غاضبة مفاجئة.

- كل يوم أقضيه في هذه الحفرة سيدفع ثمنه شخصٌ مثلي عملي وحياتي المعلقة وحرماناتي. من غير الممكن قياس ديون كهذه بالنقود(1).

(1) في عام 1970 أردت أن أكرس وقتي للكتابة فاستقلت من وظيفتي في جامعة إيبادان. لم أقدّم أية أسباب تاركاً الباب مفتوحاً واسعاً لاختلافات المجتمع الأكاديمي المتبطّل. إحدى القصص الأثيرة تحكي ما يلي: بعد أن أعطى يعقوب غوون تعليمات خاصة إلى الجامعة لتدفع لي كل رواتبي المستحقة أثناء فترة اعتقالي وبعد أن استلمت هذا المدّخر غير المتوقع قرّرت أن أقبل عقداً هوليودياً وأقضي بقية حياتي في الإثارة والرفاه.
وعلمت أيضاً للمرة الأولى أنه بعد توقيفي الرسمي، قررت إدارة الجامعة أنني لم أكن أشغل فنياً منصبي كمدير لمدرسة الدراما ولذلك فليس ثمة على الجامعة أية التزامات مالية تجاهي. النتيجة واحدة فقد رفضتُ إحسان السيد غوون.

20

شمسٌ واهنة عبر هـواء غـشائي، كـان ثمـة هـدأةٌ في هبـوب الهارمتـان، حـين دخـل أخـيراً مـن جديـد المـشرف الأول إلى الـسرداب يـسبقه خفـير يحمـل كرسـيين. بوليفيمـوس يمـشي في المؤخرة ثمَّ يحوم في الخلفية بينما يتواصل الحوار.

لقد طلبتُ هذه المقابلة. رأيـت الحيـاة في كادونـا تـسقط في نمـوذج محـدَّد أو في لا نمـوذج. كنـت أعلـم آليـة عمـل الـذهن المشروط بالروتين، إذا كانت البداية تلائـم الوقـت والتـسهيلات، وجبن العمل والبلادة، وفضول السجن وعناصـره، عندئـذٍ سـوف تتكـرس هـذه البدايـة وتترسـخ. أي مكـسب يجـب نيلـه مبكـراً أو إقصاؤه من الذهن بعد ذلك. وعلى هذا ذات صباح قاطعت تحيتـه (صباح الخير كيفك اليوم) بملاحظـة أن نهـاري سيكتـسب مـسحة إشراق إذا تكرَّم، في وقت فراغه، ومنحني مقابلة. حين يسمح لك وقتك فقط، ألححتُ، أحتاج إلى ساعة من وقتك على الأقل.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع وجد لديه الوقت. اعتقـدت بـسذاجة أنهم سيأخذونني إلى مكتبه، غير أنه اختار أن ألعب دور المـضيف على أن يـساهم هـو بالأثـاث. جلـسنا في الخـارج تحـت الـشمس الفاترة:

ـ (عندي عدد من الأسئلة) ابتدأتُ (والمطالـب ولكـن سـأبدأ بالأسئلة على اعتبار أن المطالب تتوقف على الإجابات. أعلم أنـني سأقضي هنا وقتاً طويلاً...).

أصدر ضجيج استنكار:

- لا. لا، لا تقل هذا. سترى كيف ستنتهي الحرب قريباً وعندئذٍ....

- حتى لو انتهت الحرب اليوم فلن يطلق سراحي. أعلم سبب التلفيق المُحاك حولي وعلى هذا وطّدت نفسي على أقامة طويلة. ما يهمني فقط هو تحسين شروط حياتي في هذه الظروف. أودُّ معرفة التسهيلات التي يمكن أن يقدمها لي السجن. الكتب مثلاً. ما هو وضع الكتب؟

واصلَ: لا أدري. لماذا تعتقد أن اعتقالك سيطول إلى هذا الحد إذا كنت بريئاً تماماً...

- لا. ما من رجل بريء تماماً في زمن الحرب، غير أني بريء تماماً من التهم الملفقة حولي. وفي البداية يمكنني أن أخبرك صادقاً أنني لم أقدّم أي تصريح اعتراف.

- قل لي كيف حدث لك أن تورطت في هذه القضية؟

- أنا لم أتورّط وحسب. أنا كنت دائماً متورطاً. في أيار الماضي مثلاً أنا كنت هنا.

- (أجل أعلم) وحين لا حظ دهشتي فسَّر (بمحض المصادفة. التقيت شخصاً رآك في نادٍ ليلي اليوم السابق للشغب).

سألته إن كان هذا الشخص من معارفي.

- لن تتذكره. لكنه عرفك من صورك في الصحف. وذكر ذلك عندما قرأنا أخبار اعتقالك. أعتقد أنه قال إنه وصل إلى طاولتك وصافحك.

- ممكن. قابلتُ عدداً كثيراً من الناس في تلك الرحلة. كنا نعلم أن اضطراباً ما سيحدث...

فجأة سألني:

ـ ما رأيك بانقلاب الخامس والعشرين من كانون الثاني؟

كنت على دراية بالدفاع النموذجي. منذ مجازر 1966 أصبح هذا الدفاع دفاعاً ليس فقط لأولئك الذين، بصفتهم شماليين، تمرسوا مباشرة بالإثم، بل حتى لأولئك الذين فرض عليهم الإذعان أن يصمتوا على الجريمة. بالمقابل أعطيته جوابي النموذجي:

ـ شأنٌ أسيئت إدارته. كان ثمة أصحاب مُثُل يحفّزهم أساساً الاندفاع الثوري الأصيل، لكن المجموعة ضمّت أيضاً من لم يكونوا أنقياء في دوافعهم.

ـ أها! بالضبط. أقصد الجميع يعلم أن نزوغو[1] كان مخلصاً تماماً....

نزوغو. هل يتقلّب في قبره غيظاً حين يسيئون معاملته دائماً بالنظر إليه كامتياز نموذجي تلقائي؟ راقبت الألسنة تنزلق بنعومة ويسر من التحدي المباشر إلى نهايات التملق باستخدام اسمه. قلت:

ـ أجل كل العالم يعرف نزوغو.

ـ التقتيل كان فظيعاً للغاية. لقد كان وحيد الجانب بوضوح.

ـ من المؤسف حدوث أي حالة قتل على الإطلاق لكن الثورة التي تنجح في تفادي الدم نادرة ومحظوظة. أيّاً يكن، بعضنا شاهد العواقب المحتملة لما دعيته أنت بحقّ التقتيل وحيد الجانب، وذلك

(1) زعيم انقلاب كانون الثاني 1966.

هو ما دفعني للذهاب إلى الشمال. كنت منخرطاً في حركة حاولت أن تتجنب العواقب بالكامل أو أن تَحدَّ منها. وألقي القبض عليَّ خلال حوادث الشغب. من الفظاظة الاعتراف بأن الموت شيء فردي للغاية، يجب ألا نقيسه بالأرقام، غير أنني ارتحت لأن عدد القتلى كان أقل مما خشينا. وبعد حزيران اعتقدنا أن ذلك زاد عن الحد بالتأكيد.

انتظرت محرِّضاً إياه على التعليق. ولأنه اكتفى بأن أومأ برأسه إيماءة ملتبسة سألته بدوري:

ـ ما رأيك بمجازر أيلول؟

كان جوابه انحرافاً مفاجئاً.

ـ حذرناهم، أنا شخصياً حذرتهم أكثر من مرة.

ـ حذرت السياسيين؟

ـ لا. أصدقائي الإيبو. معظمهم يتحمل مسؤولية معاناتهم. لا يمكنهم أن يقولوا إنه لم يكن لديهم علم.

كانت أغرب إضافة تنضم إلى جملة صيغ التبريرات الذاتية. وإلى ذلك كانت أيضاً دحضاً آخر غير مقصود للنظرية (العفوية) لتلك الإبادة الجماعية.

عاد إليَّ تبرير ذاتي آخر شهدته قبل وقوع المجازر. في إحدى العواصم الأوروبية حيث كنت سأسافر لأحضر برنامجاً ثقافياً لمدة شهر حدث الكشف في الدور الغريب لي كأحد المرشحين الحكوميين. المرشح الثالث، أونوارا أنزيكوو من الإيبو كان على علم أن محاولة صعوده الطائرة في إيكيجا تكلّفه حياته. حتى أنا أرجعوني من المطار في جوّ من التوتر تملؤني التحركات المشؤومة للجنود المناوبين ولم أتمكن من المغادرة إلا بعد أسبوع.

تجشمتُ عناء المغامرة وكررتُ مواجهة المطار تلك، ليس بدافع القيمة التي أعزوها إلى المؤتمر، بل بدافع حاجتي الدورية، التي تسيطر عليّ فجأة، لفترة من العيش المنعزل بعيداً عن التوترات داخل البلد. سنة كاملة من الانهماك المشحون بشدة، سنة يزيدها فقدان الأصدقاء والرفاق قسوة، ويلوّثها الإذلال العاري لشعب بأسره على يد جندٍ متغطرسين مغتصبين قتله إرهابيين. أسابيع (بعد التاسع والعشرين من تموز) من الإشراف على رابطة حساسة في (سكة الحديد السريّة) لإنقاذ الجنود الشرقيين - إيبو، إيفيك، أوغوجا، ري يرز، وحتى بعض الغربيين (هؤلاء تم الاكتفاء بإخفائهم) ، فقد كان حتى ذوو الرتب الدنيا هدفاً لقنصٍ حاقد من قبل زملائهم (استهلكت نصف ملابس زوجتي لأغراض التخفي). لم يكن عندي القدرة على تلبية وتهدئة مئات التماسات المساعدة التي كانت تصلني من مدنيين لا حول لهم ولا قوة (غربيين وغرب أوسطيين وشرقيين أيضاً)، وقع أقاربهم أو أصدقاؤهم في القبضة النزوية للجنود. كنت شاهداً على العمليات اليومية الهادفة إلى قتل خصوبة شعب كامل على يد عصابة من انتهازيين وفاسدين يحوزون على سلطة خفية. في أواسط أيلول 1966 كنت في تلك الحالة حيث كان يمكنني أن أهاجم دبابة مصفحة برأسي لمجرد أن أقضي 48 ساعة خارج البلاد.

استعدت جواز سفري وأصريتُ هذه المرة على أن يكون طيراني نهارياً. قضيت لحظات استيقاظي في مطار إيكيجا متظاهراً أنني لا ألاحظ آمر المطار، صاحب السوابق، يدخل مع بضعة رجال ويجلس على بعد بضع طاولات مني ويعاينني بحذر، كما يعاين امرؤ لقمة سهلة ولكن قد تكون عسيرة الهضم.

ربما خُدع ذاك الدبلوماسي[1] بحقيقة كوني مرشحاً حكومياً، فاعتقدَ أنني بتّ الآن زلمة حكومة من أنصار نظام غوون، أو ربما ظن أنني أصبحت النموذج الأكثر وفاءً لمرؤوسه وزميله «الكَرْدَم» من اليوروبا الذي كان الثالث على العشاء الذي أعدّه لي في مطعم الدبلوماسيين السويسريين المطلّ على نهر، ذاك العشاء الذي كان الحدث الأبرز في الأسابيع الثلاثة في الداخل. تبقى في البال التصريحات الجليّة لهذا الموظف على مائدة العشاء، حيث قال:

- لم يتعلم الإيبو درسهم بعد. انقلاب الخامس عشر من كانون الثاني لم يحقق الاستيلاء الكامل، ولكن لا تقلق. واحد من جماعتنا وصل مؤخراً، جاسوسنا الدبلوماسي، حتى أن وزيراً سابقاً قضى يومه هنا قبل ذلك وتحادثنا طويلاً. المسألة مسألة أيام وعندئذ، صدّقني، لن يثير الإيبو لنا أية مشكلة بعدها.

استفسرت عن قصده وأنا أحتقر تعبير الاستحسان الذي على وجهي.

- ما عليك إلا أن تنتظر وترى. ألم تلاحظ كيف يواصلون إثارة المشكلات في المؤتمر التأسيسي؟ أوجوكوو ذاك! يعتقدون أن لهم الحق بالتذمّر بسبب أيار وحزيران. لم يتعلموا درسهم. هذه المرة سينالون فعلاً ما يجعلهم يتذمرون.

بعد ثلاثة أيام وصلتني أول أخبار مجزرة الإيبو. لم يستدع الأمر مني جهداً كي أستحضر ذاك العشاء وذاك الحديث. لقد انطبع في ذهني إلى الأبد.

---

(1) موظف السفارة هذا كان يشغل - أثناء صدور هذه الرواية - منصب سفير معتمد في عاصمة أوروبية أخرى.

21

لا تتحامق ثانية هكذا أبداً، أبداً! من تظن نفسك؟ فقط قل لي أين تظن نفسك؟ هل تعتقد حقاً أن هذه المخلوقات بشر؟

ثلاثة أسابيع من الكتب ثم لا شيء! لقد رضيت جداً عن نفسي فالمقابلة مع الصفر الأول أثمرت أهم تنازل بشأن الكتب، ولو أن وصول أول كتاب استغرق أسبوعاً كاملاً. وصلني من (مكتبة) السجن مجلد رثّ مشوه تكاد لا تستطيع فكّ حروف عنوانه (رسائل الملكة فيكتوريا). في غضون ساعة واحدة قرأت الصفحات المتبقية منه وفي غضون تسعة أيام انتهيت من مجموعة كتب السجن كلها، أغرب تشكيلة جمعت الغبار وبيوض الصراصير على صفحات متآكلة الزوايا كآذان الكلاب. ولم يكن أمامي خيار في نظام القراءة. في البدء لمتُهم على أنهم لم يجلبوا لي القائمة لكي أختار منها - من الواضح أنهم لن يأخذوني إلى المكتبة كي أنتقي ما يعجبني. عندما قال لي الضابط المرشّح في اليوم التاسع إنني قرأت الكتاب الأخير. فهمت. بعد أن انتهيت بسرعة من الملكة فيكتوريا ابتدأ الضابط المرشح مذهولاً يجلب لي الكتب أربعة أو خمسة كل دفعة. قرأتُ ب. ج. وود هاوس وأغاتا كريستي ونباتات غرب أفريقيا وتقوى أراضٍ أخرى.

لا بد أن هناك مكتبة عامة في المدينة قلت، لماذا لا يذهب أحد العناصر ويجلب الكتب لي؟ وعدوني وكلّفوا الضابط المرشح. قلت له الموضوع غير مهم، ما عليك إلاّ أن تختار أسمك الكتب وتأتيني به. الأسمك هو الأفضل. جاءني تشارلز ديكنز مرتين على التوالي، ثم بوزويل ذاك الشرير. تلاهم شرير أكبر أيضاً والمجلد الأسمك على

الإطلاق، إنه مدير السجن، ضفدع معلوف زيادة عن اللزوم، يجهل القراءة والكتابة، مجلّد منتفخ يقتل كل المجلدات!

لم يحتج الأمر إلى كلمات كي أفهم أن تغيرات مفاجئة سوف تطرأ على نظام حياتي هنا، عقب زيارته غير المتوقعة. فجأة انقطعت الكتب. وذات يوم جاء العناصر ومسمروا لوحاً مُصمتاً على هذا الفراغ.. الثقب المربّع الصغير في الباب هو ثقب تلصص على الحياة. إنه يقود العين إلى فناء المطهر، منزل المعتوهين والمؤبدين والمشاكسين والمعاقبين والمسلولين وضحايا سادية السلطة جميعهم مخبؤون جيداً هنا بعيداً عن الأسئلة. يدفع الحراس أيديهم عبر الثقب ويعالجون المزلاج من كلا الجانبين، وأنا لدى تمشّيَّ عبر الفناء أسرق عَرَضاً، أوه عرضاً جداً، نظرةً سريعة إلى الالتماع النادر ليدٍ أو وجهٍ أو حركة في ذاك المطهر. وللأسف غالباً ما يكون كل ما أراه هو مجرد غبش خاكي، المؤخرة الراسخة المربعة للحارس على الجانب الآخر.

حتى هذا الصباح أسمع وأنا مستلقٍ في سريري ضجّة الطَّرْق. طوال الصباح يتضاعف هجوم الضربات ويتضخم بفعل القوى الإصدائية الفريدة للسرداب (حين ترعد تصبح جمجمتي هي سندان الآلهة). خرجت كي أستطلع فوجدتُ فصيلاً من الخفر على البوابة يقطّعون وينشرون ويُمسمِرون حتى الظهر، خُتِمتْ الثغرة. السماء وحدها الآن مفتوحة، سماءٌ باتساع غطاء مائدة واقع في شَرَكْ خوازيق طويلة وزجاجات مكسورة، لكنها سماء. تجثم النسور على سطح تمكن رؤيته من فناء آخر. وغربان. طيور البلشون البيضاء تحوم فوق السرداب والخفافيش تملؤه عند غروب الشمس. خفافيش مُهْق شاحبة شحوباً مَرَضياً تصدر نبضات لاسلكية لتجوس حجرة الصَّدى لكن العالم ميّت، بغتةً. ظلَّ عنف الطّرقات حياً لفترة طويلة بعد أن توقف. حتى السماء تنكمش، تموت.

تمر الأيام، الأسابيع، الشهور. تختفي المعالم والطّافيات. شيئاً فشيئاً تنحلّ الحقيقة بلا رحمة واليقين يخون الذهن.

وحيدٌ مع الأصوات التي تكتسب بعداً رابعاً في سرداب حيّ، وتكتسب وضوحاً يصبح كما في حالة الرعد لا يُطاق فيزيائياً. نبضات من خفافيش مُهْق ترصّع همهمة صلاة المساء. مسلمة ومسيحية، وثنية وخارجة عن التصنيف، وتُحيل سردابي إلى مِرْجل، إلى كرة مقلوبة من العقائد التي تتجمع أصواتها الرنانة وتُمزَج وتُستخلص زبدتها وتُنَخل في لُحمة وسداة عفَنٍ فطري أسخم على الجدران، فطر مخمليّ أخضر حاكته أصابع المطر الماكرة.

مدفون حيّاً؟ يجب أن أقاتل كي أحرّر نفسي عبر الباب المسحور لذهني. يجب أن أتنفس، بعمق.

أيامٌ لا تحصى من الجلوس في الفناء والتحديق في لا شيء، صرير الكرسي يجلب السجّان الذي يتمشى (عرضاً) في الجوار، دوسُه على الحصا ثقيلٌ جداً فلا يستطيع الذهن القطني أن يمتصّه، حادّ جداً، عدائي جداً، مرعوب جداً من أن يقع في شَرَكٍ ساذجٍ ما، متوترٌ جداً ومستجدٍ، تبريري ولا يُطمئنُ الشخص فيغوصَ بسلامٍ في مشهد راحةٍ داخلي. مع ذلك تمر الساعات، الأيام، الأسابيع. حين يعاود الهارمتان ثورانه أدخل وأغلق الباب. يجلس الحارس في الخارج متوتراً، يخطو جيئة وذهاباً وهو متلفعٌ بمعطفه الثقيل، ويحرف عينيه كي يرى من فوق الإطار. أستلقي ساكناً وأنا أحدّق إلى الثقوب في ناموسية البعوض. أنتظر وأقدِّر اللحظة التي يمكنني فيها أن أمدَّ قرن استشعار حساساً خارج الشرنقة دون أن تهبط دوسة ثقيلة على المِجَسّ.

22

من بين الأشباح الكثيرة التي تتردد عليَّ، فإن أشباح الموتى من أقاربي هي الأكثر تردداً، وخصوصاً جدي وشبح كل من كريستوفر أوكي غبو وأديكونلي فاجويي... بانجو وعلالي يزوران أيضاً ولكن ليس تماماً كأشباح...

يجلس جدّي مثل قزم عجوز، يضحك بينه وبين نفسه، كل جزء من جسده ينبض بالحب والقوة.. أين كنت، إلى أين أنت ذاهب، متى ستعود ثانية، لماذا لا تمكث أبداً؟ أونغه. لا تخبرني، ليس أنا من يطلب الإجابة. أنا أخبرهم، لا تسألوني، اسألوه حين يعود. كل ما أعرفه هو أنه يختبئ في مكان ما في ذاك الصندوق المهذار لأنني هناك سمعت اسمه. أُشغِل الصندوق فيقول إنك تعمل شيئاً ما في أستراليا. لكنه كان هناك البارحة فقط، فقط البارحة! على كل حال ما لم تتذمر مما أنت فيه فلن أتذمّر أيضاً. أخرِجْ يقطينة الخمر من خلف تلك الخزانة. لقد فسُدَ ولكنك لم تنبهني كعادتك وأفترض أنك لا تستطيع البقاء حتى المساء دون زادٍ جديد...

من الملائم أن العلم بموته يجب أن يصلني أيضاً عبر الأثير، كما لو في انتقامٍ قزَميٍّ من أنني لم أترك له من نفسي أكثر من صوت في الأثير. كنت في استوكهولم عبثاً أنتظر تشينو وآخرين في شهر نيسان المتوتر عام 1967 وأحاول مرة أخرى بناء جبهة مشتركة من حطام 1966 مثل شبحٍ يلاحق ملعوناً طاردني التلغرام الذي يحمل النبأ من نقطة إلى نقطة من اليأس وزوال الوهم... أتساءل هل سيكون لي حقاً مرة أخرى ذكريات خاصة غير مرتبطة

وغير موسومة بتوتراتٍ وقسوة ذاك الماضي القريب؟

يندفع كريستوفر إلى مكتب أحد ضباط القيادة في اينوغو، يندفع مثل زوبعةٍ كعادته. أنا غائصٌ في كنبة عميقة خلف الباب حيث وضعني ذاك الضابط بعد أن تعرّضت إلى معاملة خشنة تعسفية على يد قوى الأمن البيافرية، وهكذا لا يراني كريستوفر مباشرةً عندما يدخل المكتب. حاراً ومتقطع الأنفاس ينقل التعليمات التي جاء بها من الجبهة. مضى على الحرب ثلاثة أسابيع. الضابط يدوّن ملاحظات سريعة ويقول: انظر وراءك. تجحظ عينا كريستوفر ويندلع في الصراخ ورقص الجيغ الذي لا مثيل له على طريقة التشيروكي الذي أثار التلوّي والقلق بين جمهرة من المعارف الواعين في كل زاوية من العالم. بعد دقائق يهدأ ويفسح لي مكاناً في سيارته ذات الغطاء القابل للطي بأن رمى بدلة الرائد خاصته إلى المقعد الخلفي. وبينما يقود السيارة نحو الجبهة: (تعرف، تعلمت استخدام المسدس وسط الميدان. لم أكن من قبل قد استخدمت حتى بندقية ضغط في حياتي. أقسم لك. أنت تعلم أني لست رجلاً عنيفاً، أنا لست مثلك. لكن هذا الشيء سأثابر عليه إلى النهاية).

كريستوفر يجلس ساعات قبالتي على الطاولة وأنا أنتظر المحاكمة في زنزانة بوليس في تشرين الثاني 1965 نتناقش في الشعر...

يبدو فاجويي[1] من بين كل الأشباح صاحب الجسد الأكثر صلابة. يتمشى في حيرةٍ وهو يمضغ شفته السفلى، الحركات المباغتة من عادته.

---

(1) المقدَّم أديكونلي فاجويي، الحاكم العسكري الأول للغرب قُتل على يد الانقلابيين في التاسع والعشرين من حزيران.

ـ كيف فعلتَ ذلك؟

أنظر إليه بخواء متصنعاً الجهل. لمعة الأذى في عينيه أوضح من أن يفوتك معناها، ولكني قلت (كيف فعلتُ ذلك؟). يرمي يديه إلى الأعلى في يأس ساخر ثم يزأر.

ـ تقتحم محطة الإذاعة! أنت تعلم جيداً ماذا فعلت. كيف فعلت ذلك؟ كان هناك جنود ورجال بوليس يحرسون المكان. كيف تسللت إلى الداخل وخرجت ثانية بعد إعاقة الجميع...

قاطعته مذكّراً أنني قُدِّمتُ إلى محاكمة وبُرِّئتْ ساحتي.

ـ هَهْ، هه هه، حلو! الآن ارم جانباً كل ما قالته المحكمة، أريد أن أعرف كيف فعلت ذلك.

ـ ألا تؤمن بنزاهة المحاكم؟

أطلق هديراً من الضحك ثم فجأةً صار رصيناً.

ـ حسناً، أؤمن فعلاً بشجاعة تلك المحكمة وذاك القاضي. وماذا عنك؟ كيف تجد محاكم العدل في القطاع الغربي عموماً؟

ـ بلا قيمة. لم يعد ثمة أحد يؤمن بالمحاكم.

يقف إلى جوار مكتب فيكتوري ضخم في إحدى الزوايا، من بقايا الأذواق البليدة للحاكمين الاستعماريين السابقين، يرفع الغطاء المشطوب الحواف ويُخرِج مسدس خدمة. يلعب بالمسدس.

ـ (تعرف، كان هنا جالساً تماماً حيث أنت الآن في ذاك الكرسي بالضبط. أنا استدعيته. كنت متشوقاً للقاء الرجل المسؤول عن كل حالة الاضطراب في الغرب. عندما يكفّ الناس عن

الإيمان بعدالة المحاكم عندئذٍ يجب أن يطبّقوا القانون بأيديهم. وهكذا افترضتُ أن رئيس المحكمة هو المسؤول شخصياً عن كل الموت والدمار الذي حدث هنا. من اليوم الذي أرجأ فيه عمداً التماسات الانتخابات هذه ثم عاد ليعلن أن الأحداث تجاوزت القضايا المرفوعة، أصبح مسؤولاً عن الفوضى. القتل، الحرق المتعمَّد، الاغتصاب وكل شيء. يقولون إننا نحن الجنود ساذجون. صحيح. عقلي الساذج يرى الأمور على هذا النحو. استدعيته على كل حال. حين جاء علمتُ أن محاكمتي العقلية الساذجة كانت صحيحة. قلت له، أخبرني بالحرف ما الذي جرى في المحكمة ذلك اليوم. أريدك أن تعطيني نظرتك أنت لما جرى. تصوَّر، ابتدأ يرتجف. أخذ يهتز حتى أنني اعتقدت أنه سيسقط عن الكرسي. سألته ماذا بك؟ قلت له: هل أنت خائفٌ مني؟ انتظرت وانتظرت لكن الرجل لم يستطع أن يتفوَّه بكلمة.

(عندئذٍ تناولت هذا المسدس. تعرف، نحن الجنود ساذجون حقاً. لم أقصد أن أخيفه على الإطلاق، في الحقيقة كنت أبغي تهدئته. تناولت المسدس وفتحت المغلاق وأريته. قلت: انظر هذا هو المسدس الوحيد في هذه الغرفة وهو فارغ من الرصاص لا داعي للخوف لمجرد أنني جندي. نحن هنا وحيدان أنت وأنا فتحت الباب والنوافذ وأكدت له أن ليس ثمة أحد مختبئٌ في الغرفة لإطلاق النار عليه. لا بأس، دعنا نتكلم. ذهَب ملايين الناس إلى صناديق الاقتراح لاختيار حكومتهم. أنت رئيس المحكمة في المنطقة ومن المفترض أنك فوق السياسة. ولذلك أعتبر أنه من المفروغ منه أن كل ما قمت به يتوافق مع مهنتك كقاض وينسجم مع المُثُل العليا للعدالة. الآن كل ما أريد معرفته هو ما جرى في المحكمة ذلك اليوم من وجهة نظرك أنت. أخبرْني القصة خطوة خطوة.

(شعبنا غريب. هل تعلم ماذا فعل؟ لا، سأخبرك أولاً ماذا توقعت منه. اعتقدتُ أنه إما أن يقدِّم لي دفاعاً جيداً أو حتى أحمقاً أو أنه سيقدّم استقالته في الحال. هذا كل شيء. لا بأس، رجل ما أخفق في أداء واجبه. شيء مخزٍ يجب أن يدفع ثمنه لكنها ليست نهاية العالم. الطريق المشرِّف هو أن يستقيل! ولكن هل تعلم ماذا فعل الرجل؟ ركع هناك، هناك بالضبط، رجلٌ عجوز مثله، رئيس محكمة بحالها، نزل على ركبتيه وابتدأ يتوسّلني. غضبت. صرخت به كي ينهض لكنه لم يفعل. ولم ينفك يقول: أرجوك يا سيدي. لذلك خرجت من المكتب. وحين شعرت أنه يمكن أن يكون قد تمالك نفسه أرسلتُ الحارس كي يخبره أن ينصرف).

امتدادٌ طويل آخر من الاستغراق الصامت في التفكير: (هذه هي المشكلة كلها. الناس لا يحبون أن يتنحّوا. ربما أنظر إلى الأمور بسذاجة مرة أخرى لكن هكذا تبدو لي الأمور. الناس عندنا لا يعترفون لأنفسهم حين يكفّون عن النفع. السياسيون يريدون البقاء إلى الأبد وهكذا يدفعون البلاد إلى الفوضى. قاضٍ يعلم أنه تصرف بفساد، غير أنه مع ذلك يتوسّل كي يبقى في منصبه. ظل يركض هنا وهناك منذ أن أرسلت إليه أمراً بالمغادرة، يحاول وسطاؤه إقناع إيرونسي. أيّاً يكن، ذاك هو قراري الأول في هذه المنطقة. أن يرحل. وإذا لم يقدّم استقالته حالاً فإنني ببساطة سوف أنحّيه.

ثم بغتة (يجب أن تعود إلى هنا. المنطقة بحاجة ماسّة إلى إعادة بناء).

أقول له (كان تصرُّف جامعة لاغوس تجاهي جيداً أثناء محاكمتي وأنا مَدينٌ لهم بخدمةٍ ما على الأقل).

ـ لديهم الكثير من الناس. يمكنهم الاستغناء عنك. يضحك فجأة. يمكنني أن أصدر مرسوماً بشأنك. أنت تعلم. ماذا ستفعل إذا أحضرتك إلى هنا بمرسوم؟

تظاهرت أنني أفكر بالأمر (حسناً، في الواقع لا أدري فأنا لستُ جيداً جداً في الخضوع للأوامر. ربما أختفي بكل بساطة).

مرَّة أخرى يهدر بالضحك (مثل ذاك الغامض الذي اقتحم محطة الإذاعة).

أجيب بعبوس (يا سيدي هل لي أن أذكّرك أنني...).

(بُرّئت وأُطلق سراحك. لا بأس. لكن يجب أن تفكر في الأمر قليلاً. حاجتنا إليك أشدّ من حاجتهم، تذكّر هذا).

ـ (الحقيقة لدي حساسية من أن أكون في الاستخدام الحكومي. على كل حال سوف أعمل من أجلك إذا كنت تحتاجني، غير أني لن أكون مستخدماً من قبلكم، أقصد إن كان لديك مشاريع محدَّدة تحتاج إلى مساعدة من الخارج، وما شابه ذلك).

تهديداته ترنّ في أذني وهو يصاحبني إلى الباب (سأستخدم عرضك هذا بأسرع مما تتوقع!).

إشاعات عن محكمة ميدانية وشيكة وحتى عن إعدامات سرّية طالت قادة انقلاب كانون ثاني 1966. نشكّل مجموعات ضغط ونوقع عرائض تطالب بالإفراج عنهم.

إنه التماسٌ غير سهل. الحقائق التي ابتدأت تنبثق، التفاصيل عن الضحايا والاستنتاج الذي يجب الخروج به، كلها أخطار جسيمة على الشعور القومي رغم إخفاق العمل البدئي، وقيام رجل

مؤسسة مثل إرونسي بإضعاف هذا العمل، فمن المؤكد أن الوضع، أيّ وضع يولد من تدمير الماضي، يبقى وضعاً مطواعاً في أيدي قلّة ملتزمة. إن رفض أو إدانة صانعي ذاك الوضع ينطوي على نصر ما للقوى التي جرت الإطاحة بها. والتصميم على المشاركة في حركة تعمل على تبرئة تلك القوى لا يمكن أن ينتهي بمجرد التوقيع على التماس فما بالك إذا كان التصميم على قيادة حركة.

بداية لا يمكن أن يصدر قرار الفرد في التوقيع على الالتماس إلاّ من قبول عقلي بأن الوضع ينطوي على اختلالات صميمة وهذا يعني القبول بإدانة السلوكات التي أدّت إلى هذا الوضع. أثور على غباءات البعض وسوء دوافعهم، وأدرك حتى أن هناك قلّة تواصل استغلال الوضع الجديد استغلالاً مخادعاً ودنيئاً ومحازياً وقليل العقل، أواجه المشهد الذي يعمي الأبصار حيث الرفاق القدماء لا يفهمون الوضع الجديد في كلّيته ويجردون أنفسهم من المنطق والتماسك ليغوصوا بجشع في استغلال الوضع على الفور استغلالاً فكرياً ومادياً.

ولكن هنا تأتي اللحظة حيث على الملتزمين أن يسألوا أنفسهم، هل أقبل بما جرى، المقصود في هذه الحالة ما جرى في الخامس عشر من كانون الثاني، كأساس للهدف النهائي أم أرفضه؟ وإذا تم الرفض فثمة طريقان للعمل: الإدانة العامة والمباشرة لمنفذي ما جرى في الخامس عشر من كانون الثاني والمطالبة بعودة الوضع إلى ما كان عليه قبل /15/ كانون الثاني.

الخيار الثاني، القبول بكانون الثاني كأساس. كان ذلك بديلاً يستدعي الكثير من العمل وما كان يمكن اجتراحه دون امتعاضٍ عميق من جانب أولئك الذين انخرطوا في الانتفاضة الغربية، في

استراتيجيتها العريضة على الأقل. لقد قُبل تدخل الجيش بامتنان لأنه أعاق تدخلاً آخر للجيش خطط له الحلف الإقطاعي الماقوي على أساس أن يتم بعد يومين. كنت قد قضيت الليالي القليلة قبل الخامس عشر من كانون الثاني أغيِّر مخابئي لأنني علمت ببرنامج الأرض المحروقة في الغرب، تمشيط نظيف لكل «المثقفين المنشقين» والنقابيين وحتى بعض القضاة الذين فشلوا في الالتزام الحرفي بالخط السياسي. أمضيتُ عشية الانقلاب في مكتبي في جامعة لاغوس قريباً من زورق «صيد» يقبع في الهور الواقع وراء مبنى الجامعة. وقد رتّب هذا الوضع أحد أفراد قبيلة إيفيك من فصيل مكافحة المهربين في قيادة أركان /أويالينـدي/، وهو أحد الأنصار الجوّانيين الكثر للحركة.

لم أكن قد غسلت وجهي بعد في صباح الخامس عشر من كانون الثاني حين دخل إلى مكتبي بصخب اثنان من الصحفيين الأجانب: /وولتر شوارتز/ من الغارديان و/لويد غاريسون/ من النيويورك تايمز. اختبرت حدسهما بأنني أعلم شيئاً ما عن الانقلاب، ورحت أنا أوجه إليهما الأسئلة. جعلتهما يكرران تفاصيل ما سمعا وشاهدا حتى علّق/ لويد غاريسون/ «يدهشني أنك غير متفاجئ على الإطلاق».

لم أفاجأ بل احترت. لم يفاجئني أن حدثاً ما قد وقع في الجيش لكن التفاصيل التي زوّداني بها الآن كانت في غاية الغرابة. لم أكن أتوقع أن يتخذ تدخل الجيش هذا الشكل. كان عسيراً جداً القبول بأن /أكينتولا/ العائد حديثاً من لقاء حاسم مع /سارادونا/ قد قتل بالرصاص أو أن المخططات الشيطانية التي أعدّاها بينهما، بالموافقة المباشرة من /ياليوا/، قد أُحبطتْ «بضربةٍ وقائية».

لم أستطع إنكار دفقة البهجة حين توضحت أخيراً طبيعة الخامس عشر من كانون الثاني. كنت أتمنى ولا أزال لو أن التمرّد في الغرب قد حقق انتصاراً كانتفاضةٍ شعبية وكان يمكن لهذا أن يتحقق لو أتيح له بضعة أسابيع أخرى. سقطت جميع المدن والبلدات باستثناء إيبادان. والحكومة، كما وضح الرجال المنبوذون من (الحزب الديمقراطي النيجيري)، كفّت حتى عن التظاهر بأنها تعمل في الغرب حيث كل المجالس المحلية تقريباً كان يديرها وكلاء الثورة. وفي المرحلة التالية، ابتدأ محو سلطة تلك الحكومة في العاصمة، إيبادان، وكان يمكن لهذه العملية أن تكتمل في غضون أسبوعين آخرين. قرأ /أكينبتولا/ و/ياليوا/ وأسيادهما من مؤتمر شعب الشمال وفهموا النُذُر جيداً. كان لديهم أيضاً تقارير أمنية من البوليس والمخابرات العسكرية. في بعض أقسام إيبادان كانت السيطرة في الليل للقوى المضادة للحكومة. ولم يكن ثمة من خيار آخر سوى الاستسلام أو الخيانة العسكرية. اختار قادة التحالف القومي النيجري الخيار الثاني، واجتمعوا في كادونا لتنظيم التفاصيل. كان قد فات الأوان على تسريع عملية خنق إيبادان في الوقت المناسب لإحباط الإعلان الكلبي المخطط له لحالة الطوارئ والإبادة التي لا ترحم لكل معارضة تقف في وجه الاستبداد البغيض. حتى لو نُفِّذَ ما شاع من خطط لاغتيال /أكينتولا/ لدى عودته من /كادونا/ بعد ظهر الرابع عشر من كانون الثاني، لما غيّر ذلك من مجرى الاستعدادات لردة الفعل الإقطاعية المافيوية. الاستعدادات التي كانت تجري بقوة لا تقاوم. لم يتبق ما يمكن فعله سوى التحضير لمواصلة المقاومة السرية بعد أن باتت الضربة الآن محكمة.

كان الخامس عشر من كانون الثاني مقبولاً على ما فيه من هفوات ونقصان وانفضاحات ذاتية وتحطيم مُثل، أم أنه لم يكن مقبولاً كقاعدة لنضال قومي؟ العنف والموت أشياء شخصية وما يبقى أخيراً هو هذا المبدأ الذي وفقاً له تؤخذ المسؤولية على العاتق أو تُرمى: إذا علمت مسبقاً ما هي النتائج المترتبة وأعطيت الخيار في القيام بدور في دفع والمشاركة في مجرى الفعل الذي قام به هؤلاء الضباط الشباب، فهل تقبل دوراً كهذا؟ سيكون جوابي هو نعم صريحة.

أخيراً ابتسم الحظ للغرب بعد كابوس طويل. كنّا نراقب فاجويي من بعيد وهو يتحسس أفعاله وقراراته. اللقاء الأول أخبرني كل ما كنت أريد معرفته غير أني بقيت على إطلاع، حتى الملل، بنموذج الانحطاط التدريجي للسلطة. التقينا ثانية. قررت أن أحمل إليه بيدي طلبنا نيابة عن قادة الانقلاب.

قال فاجويي: «يجب فرزهم. هناك بيوض فاسدة بينهم لديهم أحقاد شخصية يريدون إشفاءها. عُيِّن رئيس الأركان الشاب غوون للقيام بتحقيق وسوف يرسل تقريره إلينا. أنا نفسي حققت مع البعض منهم، أقول لك إنها الشياطين والبحر الأزرق العميق. لا أحسد أحداً منّا، فبعد كل شيء نحن جميعاً في الشوربة نفسها، حين نتخذ قراراً خاطئاً! ولكن علينا أن نتخذ قراراً. حالما يقدم غوون تقريره سنعمل شيئاً ما، ولكن ليكن الله في عوننا إذا عملنا الشيء الغلط».

ـ «بمناسبة الحديث عن القرارات، ما الذي يحدث لـ /اوولوو/ وشركاه؟

ـ «وافقنا جميعاً على إطلاق سراحهم ولكن /حَسّان/ لا يكف عن الاعتراض. هو ليس ضد الإفراج عنهم ولكنه يقول إن علينا أن ننتظر، أو إن شعبه سوف يتهم الحكومة بأنها معادية للشمال. يقول إنهم سلفاً يتذمّرون من أن الانقلاب معادي للشمال تحديداً أياً يكن، يريدنا أن ننتظر اللحظة المناسبة».

ـ «الشمال هام» وافقتُ «لأن الأمر حدث في معظمه هناك ولكن الشمال الجديد وليس القديم. لا يجب أن يكون هناك أية تنازلات للشمال القديم ويجب القيام بشيء ما بسرعة لجعل ذاك الشمال الجديد قوةً ملموسة.

ـ «كيف يمكن عمل ذلك؟».

ـ «سأقول لك، لأنني أعتقد أن بإمكانك المساعدة. تعلم أن المبادرة في معظمها يجب أن تأتي من الغرب. لدى الناس القناعة أننا أبرياء من حوادث الموت في الخامس عشر من كانون الثاني وهذا امتياز لنا. مجموعة منّا تخطط للقيام بجولة في الشمال حالاً. آمل أن أجد الوقت كي أذهب أنا نفسي».

بينما كنت أراقبه عن كثب خطرت لي نقطة كنت وعدت نفسي أن أفاتحه بها:

ـ «رأيتك تصل أحد الاحتفالات بسيارة رولزرويس...».

قاطعني:

ـ «آه، أعرف ما تريد قوله، وسأعترف أنني لم أحب ذلك أنا أيضاً. ولكن لم يكن بيدي ما أفعله عندئذٍ. كنا على وشك التأخر وكان رجال الأمن أولئك قد عيّنوا لي السيارة مسبقاً. ويمكنك القول إنني بشكل ما دُفعت فيها دفعاً. لكنني أوافق معك بالكامل.

من المعيب أن نتبنى نحن الجنود تباهي أولئك السياسيين العديمي النفع. ما نوع السيارة التي عليّ استخدامها برأيك؟».

ـ «سيارة جيب» قلت.

ـ «جيب مفتوحة؟» تفاجأ.

ـ «مفتوحة أو مغلقة المهم جيب».

هزّ رأسه:

ـ «لا، هذا كثير. أولاً لن يوافق رجال الأمن وعليَّ أن أقوم بجولات كثيرة، أنت تعلم. سأقطع آلاف الأميال».

ـ «ماشي الحال، من أجل الجولات استخدم سيارة أريح قليلاً».

ـ «مثل؟» وقبل أن أتكلم تابع ثانية «ما الخطأ في المرسيدس بنز؟ إنها سيارة شائعة بما يكفي في هذا البلد. أقل محام يستطيع اقتناء واحدة».

تظاهرت أنني أفكر في الأمر فأضاف بسرعة:

ـ «سأقول لك ماذا يمكنني أن أفعل، سأنتقي واحدة من الكاراج، هناك أسطول كامل منها. أجعلهم يدهنونها بألوان عسكرية. بهذا الشكل لن تبدو باذخة جداً، إذا كان هذا يزعجك».

ضحكتُ: «ماشي الحال! ربحت».

بالنسبة لبقية السيارات سأعرضها للبيع. الكاديلاك والرولز، كل الغواصات. العائد يحوّل للاستخدام الحكومي.

أيار 1966، رسالة منه يطلب مني القدوم لمقابلته حالاً. كان ذلك تماماً بعد المرسوم رقم 34، مرسوم التوحيد. لحظة دخولي بادرني بالهجوم:

- «أنتم المثقفون كلكم متشابهون. لماذا لم تقم بجولتك تلك إلى الشمال؟».

بررّت لنفسي:

- «لم أستطع الانصراف. لدينا نقص عناصر في قسمنا. لكن كان لي اتصال دائم مع زملاء من الشمال. نحن الآن نخطط لمؤتمر في نهاية الفصل الجامعي».

- «قلت لك بأن تأتي إلى الغرب. كان يجب أن أحضرك بمرسوم. متى يمكنك المغادرة».

- «من الجامعة؟».

- «لا. متى يمكنك القيام بالجولة؟ تفضّل إلى المكتب. أريدك أن ترى تقارير المخابرات من الشمال. هل تعتقد حقاً أن الأمور يمكنها أن تنتظر إلى أن تعطّل جامعتك؟».

عندما قرأت التقارير قلت:

- «الأمر لا يتعلق فقط بمرسوم التوحيد. ذاك ليس إلا حجّة».

- «أعلم. ولهذا أريد في الحال وجهة نظر غير بوليسية».

حدث ذلك في غمرة التدريس الجامعي ولكنني مع ذلك طمأنته أنني سوف أغادر في غضون ثلاثة الأيام القادمة.

في /بيركين لادي/ على بعد حوالي /30/ ميلاً من /جوس/ صادفنا الشغب على طول الطريق إلى الشمال. كنت مسافراً بصحبة فرانسيس، أحد أصدقائي، وهو مخرج في إحدى شركات السينما، وكان الموضوع الأثير هو مرسوم التوحيد الذي ألغى المناطق نصف المستقلة ذاتياً وردّها، كخطوة أولى، إلى

مجموعات الأقاليم. لقد كان قراراً ثورياً جريئاً. ثمة طرق بديلة لمحاربة البيروقراطية المتوالدة والفاسدة ولتحطيم الميل القبائلي وتنمية إحساس صادق بالانتماء الوطني. مرسوم التوحيد لم يكن أكثر من انطلاقة ممكنة بين ممكنات كثيرة، وقد لاقى القبول من الجميع ما خلا المحتكرين الإقطاعيين في الشمال والموظفين المدركين للوضع والذين خافوا من اختفاء مناصب الخدمة المدنية الفخمة وذات الرواتب العالية. أغرق الترحيبُ بهذا التحرك الهائل أصواتَ الاعتراض التي حمل بعضها مخاوف حقيقة من دوافع لم تكن نقيَّة، مثل سيطرة الإيبو. وعلى انعدام الثقة المفوَّت هذا كانت مافيا الشمال تعمل سلفاً يساعدها حلفاؤها الجنوبيون الذين تحرك الكثير منهم إلى الشمال محمّلين بالأموال من أجل العمل القذر العتيد. لم تكن تهمنا أرضهم المعروضة للبيع بل كان يهمنا جيل التنوير الذي من المفترض أنه مختلف. لم أكن قد أدركت بعد أن التمييز بين هذين الشيئين كان ضبابياً.

لقاء غريب عشية المحرقة. مع ذلك فإن هذه الفانتازيا الساخرة في توتر التاريخ أكدتْ، عَرَضاً، الدليل الأول لانقشاع الوهم. جرى في فندق /هامدالا/ عرض أزياء شكل الحدث الأساسي بالنسبة لست البيت العصرية في الشمال، بالطبع تحت رعاية القنصل البريطاني. كانت /شادي/ هي المصممة البريئة لهذا الاصطناع، فقد كلّفها القنصل إعطاء زوجات الطبقة المتوسطة من النخبة الجديدة في كادونا محاضرات توضيحية حول التجميل والماكياج والموضة والسلوك وما يرتبط بها من اهتمامات نسوية. بعدئذٍ ذهبنا مع /شادي/ إلى نادٍ ليلي تصحبنا أيضاً صحيفة جاءت إلى كادونا كي ترسل تقريراً عن الحدث إلى الصفحة النسائية في الديلي تايمز.

من الفندق هتفت إلى زميلنا الشمالي. وافق أن ينضم إلينا في النادي. وصل وهو يكاد لا يستطيع إخفاء توتره. لم يقل شيئاً أكثر من المشاركة الغامضة في الدردشة العامة. من صوته على الهاتف كنت قد تحسست النُذُر الأولى من الشك لكنني استبعدتها. فالصوت الذي أجابني لم يكن صوت ترحيب صريح، مع أنني قمت بهذه الزيارة تحت إلحاح طويل منه ومن نظرائنا الشماليين. في النادي انتظرته كي يختار اللحظة التي تناسبه ويلخّص لي الوضع في كادونا ولاسيما إخفاق أو نجاح مهمته التربوية الخاصة. اقترحت أن ننفصل كلانا عن المجموعة ونختلي بأنفسنا فأجاب أن لديه ارتباط وأنه سوف يعود فيما بعد. أخيراً غادر بصورة جافة وقلقة تماماً كما كان جالساً إلى الطاولة جافاً وقلقاً ووعد أنه سوف يعود في غضون ساعة. لم ينظر في عيني ولو مرةً واحدة ومنذئذٍ لم تقع عيني عليه.

عدت إلى الفندق وحاولت الوصول إلى أسماء أخرى ولكنني خرجت صفر اليدين. وبما أنني كنت متطفلاً على سيارة فرانسيس ومقيداً بالتالي ببرنامجه، لم يكن بوسعي ما أفعل سوى أن أترك ملاحظات تحدد متى سأمرّ ثانية عبر كادونا. لقد عدنا بأسرع مما خططنا له.

هبّة من العنف كانت سلفاً تملأ الهواء بين /جوس/ و/بيركين لادي/. في بيركين لادي امتدت لتصبح رائحة دم محتملة. الرجال يتجمعون ويلتفون دوائر دوائر مثل لوالب رملية نحو دوامة العنف. لم يتكلّفوا إخفاء السيوف والسكاكين والأقواس والنشاشيب ذات الشوك الحديدية. لم يتكلفوا ستر الشرخ في العيون التي مسحتنا نحن الغرباء، شرخ الموت المزمن الجشع. المناشير والملصقات كانت توزع علناً. التقطتُ أحد المناشير، كان مكتوباً بلغة الـ «هاوسا» لذلك وضعته جانباً من أجل الترجمة فيما بعد.

كان عم فرانسيس جيولوجي في مناجم القصدير، وكان بحوزته بندقية مرخّصة. حتى أننا في طريقنا إلى شلالات كاورا قمنا ببعض الصيد دون أن ندرك أننا تركنا صيداً أكثر فتكاً في القرية التي غادرناها للتو. في وقتٍ متأخر من بعد الظهر عدنا إلى قريةٍ هادئة هدوء غير دنيوي، وثمة شعور بأن العيون تراقب من وراء الأبواب والمصاريع. في منزل الجيولوجي علمنا أن الشغب قد حدث وسقط بعض الضحايا. عندئذٍ تذكّرت المنشور وطلبت من الرجل، وهو يتكلم الهاوسا بطلاقة، أن يترجمه لي. لقد كان دعوة صريحة وملتهبة إلى الجهاد[1] ضد الـ «ياميرين». يدعو المعلمين لإبقاء مدارسهم مغلقة والآباء لإبقاء أبنائهم في المنزل وكل أبناء البلد الحقيقيين للبقاء داخل بيوتهم إلى أن «نشفي غليلنا من الكفار الجنوبيين».

قلت لفرانسيس «يجب أن أسافر في الحال، بالقطار، لا أدري ما هو موقفي مع نشطاء قوى الأمن في لاغوس، لكنني لا أستطيع تحمّل أن أكون في منطقة الشغب. قد يعتقد رجال إيرونسي أنني جئت هنا كي أؤجج الشغب».

قرر فرانسيس أنه أيضاً سيلغي ما تبقى من مشاغله وينتقل إلى منطقة آمنة.

انطلقنا قُبيل اندلاع الموجة الثانية من الإرهاب. فصائل القتل كانت تعيد تجميع نفسها. تناهت إلى أسماعنا صرخة التحشيد: أرابا![2].

---

(1) هكذا في الأصل. م.

(2) ترادف، توزع.

وصلنا في ضواحي كادونا إلى (بونكا) محليّ وهو كوخ طعام حيث توقفنا كي نتناول شيئاً من الطعام على الطريق الخارجي. كان المناخ هادئاً عادياً، لم يبدُ أن الشغَبَ قد وصل بعد إلى كادونا. أحدٌ ما اقترح أن نلتقط أنفاسنا ونتوقف هناك لتناول وجبة خفيفة. عندما خرج فرانسيس بالسيارة عن الطريق ليوقفها في الفناء الوعر ضربتني انطباعات متزامنة: بابٌ لا يمسكه سوى برغي واحد في المفصلة السفلى، وجدار متفحم داخل الكوخ البائس، بشرٌ صامتون مسمرون مترقبون في الجوار. حين صرخت لفرانسيس ألا يتوقف تمسّك بذراعي وأشار. على الشجيرات كان ثمة ساقٌ بشرية عالقة.

تذكرت ونحن نمضي صامتين إلى قلب كادونا بأقصى سرعة، أن ذاك الكوخ كان يديره اثنان من الإيبو.

كنا محظوظين أننا دخلنا كادونا، فبعد دقائق فقط حلَّ الظلام وأغلقت المدينة ولم يكن بمقدور أية سيارة أن تدخل أو تخرج. بدت الشوارع خالية مسبقاً، المتاجر على جانبي الطريق خالية من الناس. أغلقت المدينة مع أنه، للغرابة، لم يتم فرض حظر تجول ليلي. كان بمقدور المرء أن يتجول بحرية في المدينة.

سوانا لم يتجول أحد. ربما لأننا، رغم حدسنا، فشلنا في إدراك الحدث والتقاط الخطوة التي يندفع فيها نحو تكامله؛ بات يهمّني فجأة أن أتعلم كل ما كان يمكن تعلّمه حول هذا الاستهلال - ذلك أني لم أخدع نفسي أبداً بالنظر إليه على أنه الفصل النهائي - بدا لي أن رحلتي المتأخرة لن تكون فشلاً تاماً إذا استطعت أن أتعلم شيئاً عن النموذج المستقبلي للاضطراب من الدلائل الحاضرة. قلت لفرانسيس سآخذ السيارة وأقوم بجولة في المدينة. قرروا جميعاً المجيء معي تحت تأثير الملل من الحبس المفروض في الفندق. حتى مصممة الأزياء رفضت أن تبقى وحيدة.

سقت إلى نادي (برانسيس أوتيل) الذي يعود إلى أحد أفراد اليوروبا يدعى أديجومو. كان لديَّ رفيق يعمل هناك نادلاً وهو نقابي سابق انكشف وذهب ضحية منذ إضراب لجنة موران. لم يكن في خطتي أن أقابله، ذلك أنه فقد حماسه منذ إخفاق تلك الحركة التي شملت الأمة. الآن لم يبدُ لي أن ثمة من أقابله غيره.

وصلنا المكان، لم يكن ثمة (برانسيس أوتيل)، الجدران لا تزال واقفة، ولكن لا شيءٍ آخر. قبل ساعة فقط من وصولنا غادر المخربون. انبثق نادلٌ وحيد من خلف حطام الكراسي والطاولات، سألته أين يمكنني رؤية صديقي. فلم يعلم، والمدير؟ ابتدأ يلفّ ويدور ولكننا طمأناه أننا أصدقاء أديجومو من إيبادان فإذا لم نره كيف نستطيع طمأنة أهله؟

اتبعنا تعليماته نصف المترابطة فوصلنا إلى منزل أديجومو في قلب كادونا. انشقّ الباب عندما طرقتُ. تلصصتْ عيون لا مرئية من شقوق خفيّة في البيوت المجاورة. شعرت فجأة أن وقوفي على الرصيف أمام بيته يجعلني عرضة للخطر. لقد صارت الجولة المسائية نوعاً من الطيش والغباء. لفترةٍ طويلةٍ لم يستجب مدير الفندق للطّرقات.. أخيراً سمعنا حركة وصوتاً مرعوباً سأل عن هويتي بالتفصيل قبل أن تنشق نافذة بعيدة ويطلّ رأس حذر يتفحص أولاً الآخرين الذين في السيارة ثم يتفحصني طويلاً قبل أن تمتد أيدٍ أخرى لتفتح الباب ويقودنا المدير إلى الداخل.

أشبعت نفسي بمجرد الإصغاء إلى قصة تحطيم النادي والهجوم على كل القوادين والمومسات غير الشماليات، قبل أن أكفّ عن البحث. بتّ متشوقاً للعودة إلى أمان الفندق. كانت سيارتنا العربة الوحيدة في شوارع كادونا مرة أخرى. في طريق العودة وصلنا نقطة بوليس ذات حراسة شديدة. توقفت وتكلمت مع الضابط المناوب.

في طريق عودتنا سألتُ شادي إذا كانت قد صادفت صديقي أبداً خلال فترة الشغب. قالت (لا) ثم أضافت (أفترض أنه كان وسط المعمعة. كان يحمل سيفاً طويلاً تحت عباءته في تلك الليلة في النادي. انسحب كُمَّاه مرةً فرأيته قبل أن يتمكن من إخفائه ثانية).

من رفيق إلى متمرد. لم يبقَ شك في ذهني أننا لم نشهد بعد سوى فاتحة إرهابٍ عشوائي أوسع.

في إيبادان انغمس فاجويي في قراءة المناشير التي جلبتها معي ليسأل أخيراً (وماذا بعد؟).

لم يكن الوضع ميئوساً منه بعد. قلت إنني سأقوم بجولة إلى الشرق حالما أستطيع.

تنهّد: (ليتني أستطيع التحدث إلى إيرونسي. لكنه لسوء الحظ لم يعد يثق بي. هل تعلم كيف يخاطبني هذه الأيام؟ «مرحباً يا راديكالي» ذلك منذ أن حسمتُ أمري في قضية رئيس المحكمة. لو كان مكاني لانحنى للضغوط كما تعلم. فهو لا يحب مخاصمة الناس ذوي الألقاب. إذا تكلمت معه حول هذا التطور بجملته فسوف يشك فوراً بدوافعي. الناس الذين حوله...) رفع كتفيه (أمازلت تنوي المضيّ قدماً في الكونغرس؟).

ـ بات الوضع أكثر حساسية حتى. سأعطيك الموعد بعد جولتي إلى الشرق.

لم يستطع أن يتخلص من الأسف الممضّ الناتج عن عدم ثقة إيرونسي به.

«اعتاد أن يهتف لي كل مساء.. لكنني أخبرتك من قبل عن كل هذا، لم أعلم بقراره حول جعل منصب الحاكم دوّاراً إلا عبر المذياع. هل تستطيع تخيّل ذلك؟ أنا موافق على القرار طبعاً...».

ـ «أنا غير موافق».

ـ «لماذا؟ إنه صحيح من حيث المبدأ».

ـ «طبعاً، من حيث المبدأ رائع. ولكن الوقت مبكر. حتى الآن قطعنا مشواراً طويلاً من الحظ السيئ في القيادة، والآن يريدون تغييرك. من سيحلّ محلك؟ ذاك الغندور الاحتفالي في الشرق أم سكران لعِب البولو من الشمال؟ وأنا لا أعبأ كثيراً أيضاً برجلك ذاك الذي من الغرب الأوسط».

«الحقيقة أنني لست سعيداً جداً بالقرار. أريد أن أنهي ما بدأناه، أعني لم نكد نبدأ بعد! ومع ذلك أذكّر نفسي دائماً بما أنتقده في الآخرين. لا أحد يريد أن يتنحّى. ابتدأت أخشى أن الجيش نفسه قد لا يعرف متى يحين وقت عودته إلى الثكنات. إذا شك الناس بذلك مرة واحدة!....».

زيارتي إلى الشرق أعادت التفاؤل، وعودتي بعثرته. في الشرق كان هناك سيطرة وقد خمدت نوايا الانتقام والحقد، كان هناك بداية إعادة تقييم ذاتية للوضع ضعيفة ولكن كافية لخلق مواجهة عامة، الشيء الوحيد الذي يولّد جبهة قومية. ابتدأ يبرز عدم الرضى من العنجهية النخبوية لإدارة أوجوكوو. وقد انكفأ الميل الراديكالي في الشرق بتأثير أضرار الشمال. ظاهرة غريبة وغير متوقعة، بدا أن طاقتها الداخلية لا محدودة.

ليلة عودتي من الشرق دفعوا إليَّ نشرة من الأخبار المشؤومة التي أنهت ابتهاجي الوجيز: تركّز النشرة على نشاطات المافيا بين الجنود، على مبالغ ضخمة تقاسموها ضباط في الثكنات الغربية والشمالية، على زوجات الوزراء السابقين من التحالف القومي النيجري اللواتي يقمن بدور السعاة بين الجيش والسياسيين. بدا أن

فاجويي كان ينتظر زيارتي. جلسنا في البهو في مبنى المجلس التشريعي وقارنا الملاحظات.

فجأةً صدمني الصمت والخلُو. قد يكون الإحساس الأجوف بداخلي قد بلَّد حساسيتي الخارجية بالمحيط. قبل ساعتين من إطباق الظلام سألت: «بالمناسبة، أين الناس؟».

لوّح يده بسخط «طردتُهم. في كل مرة ألغي هراءً احتفالياً ما يطلع عليّ أحدهم بهراء جديد. وبشكل خاص رجال الأمن».

قلت: «لا يمكنك التخلي عنهم بالكامل».

«إنهم أذى. منذ بضعة أسابيع نظرت حولي فرأيت كل هؤلاء الحرس قلت في نفسي، اللعنة، إذا كان هناك من يريد قتلي فلن ينفِّذ ذلك هنا. سوف ينتظر إلى أن أخرج في العراء». وضحك ضحكة خافتة «في إحدى سيارات الجيب المفتوحة».

هبط الظلام. وسقط هو في فترات صمت متكررة أكثر مما هو معتاد منه، صمت يغري بالاعتقاد أنه كان يعاني هواجس موتٍ وشيك. أرى مرة أخرى رباطة جأشه، امتدادات طويلة من الاستغراق الثقيل في التفكير. كنت أشرب أما هو فلا. لقد أقلع عن الشرب في إيماءة إرادةٍ جديرة به. كان يتذمّر من أن هناك الكثير جداً من اللقاءات والاستقبالات الرسمية، وكان فيما مضى صاحبَ كأس لا يشقّ له غبار. تخلّص من المسألة بأن امتنع ببساطة عن الشرب نهائياً. وردَّ شعائر واحتفاليات المجلس التشريعي إلى الصفر.

كرّر قناعته بأن أتكلم إلى إيرونسي. «هو يعلم أنك غير متحزّب وسيصغي إليك».

«لا أعتقد أنه سوف يصغي. وعلى أي حال لا أظنه قادراً على فهم شيء. إنه لا يحسّ الأشياء حتى. أي قائد وخصوصاً أي قائد عسكري يسمح لزوجته أن تذهب إلى الحلاق بدراجات مرافقة ودويّ صافرات....».

تبعثر هدوء البيت الخالي بضحكته «أنتم أناس لا يفوتكم شيء».

«الحادثة بحد ذاتها ليست مهمة، ما تشير إليه أعراضٌ كهذه هو ما يخيف. الرجل يمضي قُدُماً إلى الانتحار ولكن الطريق التي اختارها ستغرق الأمّة معه».

«تكلم إليه على كل حال. لا بد له أن يصغي إليك». ثم بدا عليه الحزن ثانية. «إنه فعلاً لا يثق بي كثيراً. أنت تعلم. شيء مؤسف. أوه ـ لم أخبرك من قبل ـ في أحد اجتماعاتنا حاولتُ أن أطرح بعض تلك الأفكار عن السيارات والبيوت وما إلى ذلك وعن الأرض. أنت تعلم كيف ابتدأ ضباطنا الكبار بحيازة أراضي التاج. قلتُ: علينا أن نكون قدوة حسنة» ضحك ضحكة خفيفة «ليتك كنت هناك. أنا استسلمت فوراً. ما أن يبدأ الناس بالنظر إليك نظرات تريد أن تقول «لا تزاود علينا» حتى ترى أن من الأفضل لك أن تستسلم. أياً يكن...» رمى ذراعيه في الفراغ «لقد حاولت تسوية وضع منزلي».

ـ «إنه أفضل ما تبدأ به».

«لو يَتسع لنا الوقت». حرَّر نفسه من الشؤوم المفاجئ لما بدا أنه تعليق عفوي، واستعاد ذاته النشطة ثانية «هل ستتكلم إلى إيرونسي؟».

رفعتُ كتفي «ماشي الحال».

«اللعنة! الآن تذكرت أنه في الشمال، في هذه اللحظة. لكن يمكنك الاتصال بمكتبه وتحديد موعد» توقف على حين غرة «أوغو نديبي! لماذا ليس هو؟ إنه رئيس الأركان، هو الثاني في القيادة. في الحقيقة... أجل، تلك هي. سوف يفهم بصورة أفضل بكثير. تكلّم إلى أوغو نديبي».

افترقنا على درجات مبنى المجلس التشريعي. في حوالي الساعة السابعة مساءً من السادس والعشرين من تموز. في اليوم التالي سقتُ إلى لاغوس. وهتفت من مكتب فرانسيس إلى أوغوندبيي في قيادة الأركان العليا. طلبت منه تحديد موعد وأكّدت على إلحاحية الأمر بعد 15 دقيقة كان علي أن أضع الهاتف وأبدأ النضال من سديم من اللاواقعية. سألني فرانسيس ما الأمر. حتى الكلمات بدت غير قابلة للتصديق. وهي تنسل من لساني.

«يلحّ علي أن أكتب إليه مذكرة أولاً»[1].

في غضون أقل من 36 ساعة بعد ذلك كان أوغونديبي يبحث عن ملجأ له في إحدى سفن البحرية. وفاجويي كان ميتاً.

---

(1) في أيار 1972 التقيت بالمصادفة مع الرجل الذي سعى أوغونديبي لتأمين ملجأ معه وكشف لي هذا اللقاء أن أوغنديبي لم يكن وحيداً حين استلم مكالمتي وأنه لم يستطع أن يتكلم بحرية. التحرك كان قد ابتدأ سلفاً.

23

وفيكتور بانجو...

كانت ثورةً تفتقر إلى الحس بالتاريخ، إن كان ثمة ثورة كذلك، والآن لا يتعلق الأمر بتلك اللحظات الشهيرة بل بأيام! أربع وعشرون ساعة بحالها ثم يومان ثم يوم ثالث. حتى بعد أربعة أيام كان هناك أملٌ لهذه الحركة. بعد اليوم الخامس ابتدأت الفرصة تفلت. في نهاية الأسبوع فاتت الفرصة إلى الأبد. قضية خاسرة أخرى.

ما الذي حجزه؟ ماذا حجزه في (بنين) في حين يستلقي البطن العاري للاغوس عاجزاً في فساده الهامد الفاحش لا ينتظر سوى الطعنة؟ أستطيع أن أخمن الجواب، لكن ذلك لا يشكل تعزية من أي نوع. نسي بانجو وهو ينتظر الدلالة الأولى من الدعم النشط الذي وعده به أولئك الذين لا تحركهم مثاليةٌ كمثاليته، نسي أنه من أمة التريُّثيين وأنه في الأزمة تبدأ السلطة الموطَّدة بتفوقٍ ما، تمارس شللاً سيكولوجياً على الجميع باستثناء أقلية شديدة التمسك بمبادئها. تخيَّل بانجو، بعد أن أعلن قوّته المقتحمة ضد انفصال الشرق، أن ذلك جوابٌ كافٍ على معضلة المتذبذبين وهكذا، خطابات عبر المذياع، اجتماعات طويلة مع القادة المدنيين من الغرب الأوسط، محادثات هاتفية طويلة مع من يفترض أنهم رفاق سلاح في أقسام أخرى من البلاد. القاعدة الثورية، التي من المفترض أن «تتعزز» بوجوده المتواصل في الغرب الأوسط، ابتدأت تتقوض.

لقد دفع حياته ثمناً ومعه غلالي وإيباجونا وأغبام...

حتى لو سلَّمنا أن الأمة لا تُختزل بما هي عليه في لحظة معينة بل هي كل الطاقات الكامنة، فإن ثمة خطراً يبقى يحيق بكل من يتساءل أحياناً، كما يحدث لي غالباً، ما إذا كانت الأمة التي يعرفونها مجرد صنيعة اصطنعها خياله. ذلك أن هذه القوى الكامنة المواسية المستقبلية هي بدورها سلاحٌ ذو حدين كونها تنحو نحو الخير أو الشر، التقهقر أو التقدم، التوطّد الرجعي أو إعادة الخلق الجذري. إن التاريخ يبرهن باستمرار أنه لا وجود لحتمية حتى وإن تطابقت الشروط.

أحذّر نفسي وأحاول أن أستبدل الأمم بأفراد. وذلك يعود في جزء منه إلى أن العامل البشري هو المحدَّد الأكثر بروزاً. من الأفضل أن تؤمن بأفراد من أن تؤمن بأمم. في لحظات الشك القاتم شيء أساسي أن تتمسك بحقيقة البشر، فهؤلاء لا يمكن أن يتلاشوا، أسبقيتهم لا شك فيها، إنهم موجودون. من السهل دائماً على المفكر المستقل، ومن صلب الموضوع، أن يسترجع الاصطناعية والغطرسة الفروسية والدوافع الاستغلالية التي فصلت الشعوب الإفريقية إلى قوميات. يمكن للمرء أن يتغلب على الإحساس بالإذلال المُصاحب لاسترجاع مثل ذاك التكوّن، بأن يؤسس هويته العميقة على تكوين كلية شعب ما. ولا أستطيع أن أرى ذاك الأساس على أنه جزءٌ من كلية الحدود السياسية فالأمر يتعلق فقط بالشعوب، أقصد أن الأمر بمعناه العرقي الأساسي ينطبق فقط على الشعوب، الولاء والتضحية والمثالية وحتى الإيديولوجيات هي مزايا تنشأ وتمارس نيابة عن الشعوب. وأيّ فعل من أفعال التقتيل الذاتي لمجرد الدفاع عن حرمة التخوم

الزائلة المسماة أمماً ليس إلاّ تقليد ساخر غبي من المثالية. الشعوب ليست زائلة لأنها قابلة للتحديد بأفكار لا نهائية، وهذا الأمر لا ينطبق على الحدود السياسية.

شاحنات الركاب (كيا، كيا) التي تعمل بمثابة سيارات إسعاف كانت تمر بجوار نافذة الشقة في إينوغو حيث كنا نجلس ونناقش الحرب، تمر حاملة الجرحى من جبهة نسوكا. قريباً سوف تحمل عربة كهذه أشلاء كريستوفر أوكي غوبو الذي فارقته منذ بضع ساعات فقط. مضى هو باتجاه صوت البنادق وأنا في أي اتجاه بالتحديد؟ نحو أي مستقبل يمكن التعايش معه مليء بالاستقالات الاتهامية.

«ما هي الرسالة التي يريد أن يوصلها الغرب، أقصد ماذا يقولون، ماذا يقولون حقيقة عن هذه الحرب؟» يسأل بانجو للمرة الخامسة على الأقل.

«الذي أعرفه فقط هو ما نشعره جميعاً تجاه الانفصال». ردّ بنزق «أجل، نحن جميعاً متفقون على ذلك. لماذا لم يكونوا فاعلين بنفس القدر تجاه المجزرة! لم يكن الإيبو خطراً على أحد. جرائم القتل في أيار وتموز أنهكت قدرتهم على أن يثيروا أية مشكلة خطيرة. ما التفسيرات التي لديكم يا جماعة كي تبقوا صامتين هكذا أمام تلك الأيام الملعونة من أيلول وتشرين الأول؟».

- «جوهر هذه المواجهة» قال علالي «هو رفض أو مساندة الإبادة الجماعية التي يحركها السعي وراء الربح أو الشوفينية القبائلية».

كانت الإبادة الجماعية العلاج المختار ضد التحري عن الأملاك. في لاغوس لم تبدأ هكذا تحريات بقدر ما يتعلق الأمر بالوزراء الفدراليين السابقين ومديري الشركات الخ... وبقيت الملايين المخزونة للسياسيين الشماليين سليمة لم تمسّها الحكومة رغم الصرخات الصاخبة للصحف الجنوبية وللجيل الجديد في الشمال. والأمثلة عديدة: كان بحوزة أحد أمراء الشمال، وهو مدير شركة أيضاً، ستة ملايين جنيه غير مُفسَّرة في حسابه الشخصي. فجأة أوقف التحقيق دون أية عواقب اللهم سوى إبعادهِ عن منصبه. وابتدأت تظهر تصريحات غريبة عن الحاكم العسكري حسَّان، مثل الحاجة إلى التركيز على ترميم الشروخ في الوحدة الوطنية بدلاً من إضاعة الوقت على شرور الماضي. وبقيت لاغوس منيعة بشكل غريب، الذين استفادوا من الجهاز المدني المُقصى لتكوين مدخرات خاصة يتجولون عبر البلاد سالمين ومنيعين كما يبدو. الغرب وحده ظلّ أميناً للمثل الثورية بالحذافير. فهناك أعيدت الأملاك لأصحابها الشرعيين بالكامل علناً ودون مساومة.

ولكن أصوات المعارضة لن تسكت. النقابيون والمثقفون وأصحاب الأعمدة في الصحف استنكروا الخيانة وطالبوا الحكومة أن تنقذ أهداف الخامس عشر من كانون الثاني خصوصاً وأن حكومة انقلاب حزيران المضاد أيّدت هذه الأهداف علناً.

مع الزمن تبيّن المضاربون المدنيون السياسيون الخطر على أنفسهم. يجب إذن إثارة الارتباك، إثارته على مستوى يعمي المجتمع كلياً عن أية أهداف يسعى إليها. اجتمعت المافيا الشمالية مع نظرائهم في لاغوس وساهموا في الاستثمار الضروري للحفاظ على النفس. وبدمٍ بارد خُطّط للمذبحة، تمَّ تدبير كل خطوة،

وزّعت أموال العمليات على مختلف مراكز التشويه المستدام. الإيبو، ضحايا مرتين، كانوا أيضاً الضحايا الأكثر بروزاً ومنطقية لهذه المجزرة التي يحركها السعي وراء الربح. ولكن لكي يكتمل الدرس ولكي لا تبقى أية خشية من خطر العودة للتدخل القديم بين المناطق في شؤون هذه القاعدة التي تنطلق منها كل المؤامرات الرجعية، فقد شمل الكنس الجنوبيين (مثيري المشكلات)، من أية منطقة كانوا، ولكن كان الإيبو هم الضحايا المستباحين.

ـ «عندما انسحب الشرق» قلت «تركوا لنا المافيا والجيش في تحالف لا تنفصم عراه، تحالف إثم مشترك مُربح مع فلسفة ناجحة من الإبادة الجماعية. لأنه إذا ذهب الشرق لا يتبقى هناك جريمة في البلد التي لا تزال تعرف باسم نيجيريا. وستكون الأمة مشغولة بإصلاح سياجاتها غير قادرة على الاهتمام بالمطالبة البليدة، عندئذ، بتطهير أخلاقي شامل. أما فيما يتعلق بآمال أبعد عن بناء أي شيء يؤسس لدولة اشتراكية...».

انفجر علالي ثانية: «أتوافق على أن تلك هي الفرصة الوحيدة أمام نيجيريا؟».

«ليس ثمة بديل. يجب أن يعود الجيش إلى وضعه الشرعي كجزءٍ من البروليتاريا. الذهنية السياسية النزيهة تدمّرت الآن لكنها بدأت حياة جديدة بدخول مغمور لجيش ساذج وغريزي محض. نحتاج إلى قوة ثالثة تشكل قاسماً مشتركاً للشعب. إذا تردد الشرق طالبوا بوقف إطلاق النار وامنحوا القوة الثالثة الوقت كي تنمو في كل الأماكن المفتاحية... حسناً، التوقيت صحيح. لم أقطع كل هذه المسافة كي أطلب الاستسلام من الشرق. ولكن يجب إلغاء الانفصال».

هزّ بانجو رأسه.

«لن يقبل أوجوكو أبداً. وإنصافاً للرجل أقول إنه لم يكن بمقدوره أكثر مما عمل. أنا رأيت المظاهرات. لو لم يستسلم لها لأطيح به فعلياً».

«أخبرني بكل شيء. مشاهد عاطفية جيَّاشة في الشوارع وأمام مبنى المجلس التشريعي.. أنا ميّال للموافقة أن يده أرغمت، ومع ذلك أعتقد أنه من الذكاء بما يكفي لإيجاد مخرج ما، لو أراد ذلك حقيقة».

«بالطبع! تلك هي النقطة. إنه لم يُردْ إيجاد مخرج وأنا سأقول لك لماذا؟ لأنه رجعي بالفطرة. إنه يعرف رأيي به فأنا أخبرته ذلك في وجهه».

دخل ضابطٌ شاب الشقة وسلّم بانجو قصاصة ورق، مُذكّر آخر بالوقائع الرهيبة لحربٍ كانت تُخاضُ فقط على بعد عشرين ميلاً منا، قرأها بانجو ومررها إلى علالي ثم التفت إلي.

«هل تعرف جو أخاهان؟».

«أجل».

«لقد مات. تحطم هيليكوبتر. تلك كانت إشارة فدرالية معترضة».

الضابط الشاب لم يذهب. قال:

«كنت حاجبه خلال الحملة التلفزيونية».

لاحظ بانجو.

«لن يكون علينا الآن أن نقلق لمعرفة مع أي جانب كان سيقف».

قال الضابط الشاب بفتور.

«لا أظنه حادثاً».

الحوار، كمعظم الحوارات في زيارتي تلك إلى إينوغو، يجب أن يبقى جزءاً من أحجيةٍ أكبر هي الحرب. مثل وجودنا نحن في تلك الشقة، مسكن بانجو ومكتبه في آن. لم يكن أحدٌ منا من الإيبو. فيكتور بانجو من اليوروبا، مثلي. علالي من الإيجاو من الغرب الأوسط وهو ماركسي خريج موسكو وكان مع نيكروما إلى أن صار وضعه حرجاً بسبب دعوته إلى تقليص عبادة الفرد والتباعد المتزايد بين النخبة الحزبية والجمهور، مما أدَّى إلى توقيفه احترازياً فترة من الزمن. علالي رجل رشيق لا يهدأ، يذرع الغرفة بخطوات طويلة مرنة ومن حين إلى حين ينفجر سائلاً: «كيف يخطر لأمثال غوون هؤلاء أن بمقدورهم بناء أمة على عملية إبادة جماعية ناجحة؟ أو أوجوكو على ردّة فعلٍ عاطفية على الإبادة؟ ماذا عن كل هؤلاء المثقفين الذين نسمع كثيراً عنهم وعن لغطهم شبه الاشتراكي؟ اعتدنا أن نسخر من أولئك الدجّالين عندما كنت مع نكروما. وهكذا ماذا يحدث عندما يقع شيءٌ ما معادٍ للاشتراكية ويهدّد بتفكيك الأمة؟ لماذا لا نسمعهم إطلاقاً في وقت الحدث؟».

- «ولن تسمعهم في حياتك». قلتُ «إنهم يتلذذون بقلق الخيار بين الشرّين».

قال بانجو: «أمتنا لا تواجه حتى الخيار بين الشرّين. كائنة ما تكون الطريق التي ستمضي بها الحرب فإن النتائج لن تكون سوى تعزيز أسوأ الشرين».

«السوفييت خاضوا حربهم الأهلية، البندقية في اليد والإيديولوجيا السياسية في الرأس. هذا منذ نصف قرن. نحن نُقحم الجنود في الميدان تحت شعارٍ واحد: اقتل اليانميرين أو اقتل الهاوسا. ولمصلحة من؟ لمصلحة الرأسماليين الذين ابتدؤوا سلفاً يجنون الأرباح من تنامي صناعة الحرب. كيف نتخلص من التحالف بين المغامر الرأسمالي والضابط البورجوازي بعد الحرب؟ أليس كل هؤلاء المثقفين على دراية بتاريخهم؟ ألم يسمعوا إطلاقاً بإسبانيا».

«وكلما طالت الحرب...» ابتدأ بانجو. قاطعته كي أسأله إذا كان يعتقد أن الإيبو سيقاتلون حتى آخر خندق، إثر ملاحظةٍ لجورج أورويل طافت عبر أفكاري: «هل من الصواب... أن نحثّ الإسبان على المضي في القتال حين يكونون غير قادرين على الانتصار. إنه سؤال تصعب الإجابة عليه. أنا شخصياً أعتقد أنه صواب لأنني مؤمن أن من الأفضل، من زاوية البقاء، أن تقاتل وتُهزم من أن تستسلم دون قتال» أنا أرجح أن الإيبو لن يستسلموا، بناءً على ما سمعت وشاهدت.

تنهّد بانجو.

«من يستطيع معرفة ماذا سيفعل الإيبو. كل ما حدث منذ البداية كان جنوناً ولكن من لا يفقد صوابه بعد كل ما حدث؟».

مرة أخرى وأخرى عاد، مثل علالي، إلى لبّ الفشل نفسه، الإحباط الممضّ من القصور الأخلاقي العجيب الذي أظهرته الأمة. «لكن ماذا حدث لكم جميعاً، أنتم أهل الغرب؟ أوتيغبيي وكل أولئك الذين لا يغيبون عن صفحات الصحف. لا كلمة إدانة من أحد، لا احتجاج على غوون، ولا حتى مظاهرة طلابية أو

حركة تضامن واحدة مع الضحايا. كيف توقعت بقية البلاد منهم ألا يشعروا بالعزلة؟».

«ربما أرادوا لهم أن يشعروا بالعزلة» قلت «هناك أساس مشترك لهذا الشيء لدى كلا الجانبين بالنسبة لأصحاب المصالح المكتسبة».

«المقاولون!» بصق علالي الكلمة بقرف «ستجدهم في التجارة وفي الإدارة المدنية. الأخيرة أسوأ في الحقيقة. على الأقل تعرف رجل الأعمال الذي تتعامل معه، رجل الإدارة المدنية أخطر. يتظاهر أنه لا يخدم سوى مصلحة الدولة». شق الهواء بحركات قتالية قصيرة مفاجئة إلى اليسار واليمين والأمام من جسده «ليس الأمة هي ما تحتاج إلى تفتيت بل عقلية الناس ككل. يجب أن تفكك ويعاد تركيبها من جديد».

ليس للرجل الأسود أن يبعثر ما جمعه الله (الرجل الأبيض). مضاعفات السياسة الاستعمارية الجديدة في التدخل تجبر المرء على قبول تعاليم لعبته مثل هذه الآن، كضرورة براغماتية. ربما تجلس الأمم السوداء نفسها مع بعضها فيما بعد وبالورقة والقلم تعيد صياغة العبء الثقيل لهذه السلطة السماوية، العبء الخانق والمبلد والذي يستهلك الحياة. من الواضح، واضح بشكل مذل وبائس، أن ثمة حرب تخاض الآن دون برنامج إصلاح أو تحديد هدف اجتماعي. حرب تماسك، لأن التماسك كلمة أكثر دقة من الوحدة لوصف حرب لا تعمل إلا على تقوية القيم نفسها التي أشعلتها منذ البداية، لأن تلك القيم لم تمتحن في أي وقت، في أي مكان. لم يظهر في أي مكان برنامج معد لاستئصال المظالم الأولية التي أدت إلى اندلاع الاشتباكات.

بالطبع سيكون هناك منتصرون، لكنهم لن يكونوا جماهير يافرا ولا بقية الأمة. الهرم النخبوي، بعد أن أترع وأتخم بالأرباح المنتظرة من الحرب، سيتجاهل الضرطة الناجمة عن الآلية الطبيعية للتخمة، وسيمتص إليه قطاعات نخبوية جديدة خالقاً عناصر مافيا رثة منبوذة متماسكة ذاتياً من الجيش والسياسيين القدماء ومشاريع الأعمال. بعد كل شيء الإرادة المقاومة لدى أي شعب ليست بلا حدّ. والحرب ستنهك تلك الإرادة بحيث تعجز عن تحدي أثرياء الحرب (السلطة) عندما يبدأ هؤلاء بامتطاء الأمة حتى الموت. سيصبحون، وقد انتفخوا بربح انتصاراتهم، الحكام المطلقين والمستفيدين الوحيدين من نتن الموت. إن القوة المناضلة لشعب ما تنتمي، بالأسبقية، إلى المهمة الحاسمة للثورة الداخلية. أما إجهادها وصرفها بلا معنى فإنه يؤدي إلى وضع الشعب تحت رحمة الانتهازيين بعيدي النظر، انتهازيي الاضطراب والفوضى.

مقاولون عسكريون ودكتاتوريات مركبة: هذا هو ميراث الحرب التي تُخاض وفق الشروط الحالية. فراغ القاعدة الأخلاقية ـ ذلك أن الحدود القومية لا تشكل أساساً أيديولوجياً أو أخلاقياً لأي نزاع ـ هذا الفراغ سوف يملأ بأخلاق عسكرية جديدة: الإكراه، الصيغة النخبوية للجيش، ومجمل المخلفات الاستعمارية التي تخلّفت بسبب نقص التطور القومي، سو تحافظ بذاتها وتعزّز الميراث الطبقي للمجتمع. لا نهاية للعواقب الناتجة عن تحالف العسكرية الفاسدة مع مافيا ضارية في المجتمع، وهي عواقب لا تشفى بسهولة. الحرب تعني دعم الجريمة والقبول بمعيار القيم التي ولّدت الصراع، إنها في الواقع إخلاص وتقديس لمعيار القيم ذاك لأنه الآن وثيق الارتباط بمعنى الهوية القومية.

يتحدد كل شيء حين يدوي شعار الهوية القومية. كل شيء يتوحَّد في العناق اللامتبلّر للوحدة القومية. التفكير (لا أستطيع العثور على كلمة أخرى، ولكن السياق سياق لا معقول إلى حد بعيد) هو أن تلك القيم التي تكون حاضرة عند تحقيق الانتصار هي القيم التي خلقت الانتصار. في السديم المُشوِّه من النشوة القومية يكفّ الانحسار الأخلاقي والعقم الأيديولوجي عن أن يبدوا كذلك، كما أنهما لا يظهران كاستمرار في هوية الأمة، بما أن تلك الهوية لم تتغير ولم تخضع إلى أي تطهير ثوري سواء في أحشائها أو في رأسها. الحرب، بالمعاناة البشرية التي ترافقها، يجب أن يُخاض غمارها، إذا لم يكن ثمة مفرّ، لتدمير ما هو أكثر من الأبنية: يجب أن تبعثر أسس الفكر وتعيد الخلق. بهذه الطريقة فقط يشارك الجميع في الغِمار ويفهمون هدف التطهير.

بعد كل شيء أعتقد أن هناك تعريفاً واحداً فقط لشعب أمة ما: وحدة بشرية تربطها أيديولوجيا مشتركة. لا بد أن هذه الهوية أو فقدانها هو ما أعانيه في لحظات التشاؤم عندما تطوف في رأسي أبيات «بلاتين»:

وأولئك الذين يمقتون الشر في أعماق قلوبهم

سيُطرَدون من مواطنهم عندما يصبح الشرّ

معبود أمة من العبيد

من الحكمة أن تنكر بلداً كهذا

لا أن تحمل نير كره الغوغاء الضريرة

في النكوص الطفولي لشعب.

أو في لحظات أكثر بهجة عندما أسترجع، بثقة، أبيات كاسترو:

هذا الكوكب لنا

والهواء

والسماء

وعنها سوف ندافع

دفاعاً عن ذاك الكوكب، عن ذاك الهواء وتلك السماء التي شكّلت رؤيتها بعيداً عن الخطوط التي رسمها الأسياد من الماضي الاستعماري أو أعاد رسمه الهياج الغريزي للمُنْتَهكين، دفاعاً عنها نشرع نحن، كلٌ منا لمصيرٍ مختلف.

24

اللحظات قبل الصحو التام، لحظاتٌ سريعة العطب، تلك اللحظات بين الطفو إلى الطبقة العليا من الوعي وحقيقة الصعود إلى الشاطئ. في الصباحات المحفوفة بالخطر أفكّر كالتالي: قد يكون هناك الكثير من الإدراكات تحوم على سطح مشترك في تلك الساعة، والكثير من كومات الملابس على الشاطئ، والعقول المخدَّرة تنجرف داخله خارجة من دون وسمات ذاتية. لو أن رجلاً في حالة كتلك يلتقط الملابس الخطأ أو ينجرف دائماً إلى الأبد دون أن يعثر على شيء، كل شيء يختفي على نحو غامض.

كل يوم يستغرق مني الأمر وقتاً أطول كي أعثر على ملابسي. أشياء غريبة تحدّق إلى وجهي، قميصٌ ملطّخ، سروال داخلي طويل، صندل غريب. عندئذٍ أرتكب أخطاءً وأتلقى نظرات غريبة وأحياناً ضحكة ساخرة. كم يستغرق الأمر؟ ومضةً كما في الأحلام؟ أم أبدية؟ كم استغرق البحث؟ كم يطول البحث في كل يوم طويل؟ لمن تلك الوجوه التي لا أميزها بوضوح؟ كيف لمجرد كنايةٍ أن تحوز جذوراً حقيقية كهذه؟ من غير الممكن أن تحلم الحلم عينه فجراً بعد فجر. ربما يستولد الفكرُ الرعبَ، والعقل يثبُ غريزياً إلى الخوف الدفين متزامناً مع اقتراب الصحو.

أرجع في حلم اليقظة إلى تلك البحيرة، مستعيداً مرة تلو الأخرى بحثي الملازم بين وجوهٍ غريبة وأقدامٍ تدخل المشهد لتزيد الخوف، الخوف من الخطأ، الخوف من أن أستيقظ غريباً عن نفسي.

أعرف السبب. أعرف الحدث الذي وقع منذ بضعة أيام والذي أتملّص من تحديده. إنه رعبٌ بوضوح ولكن ما السبب المباشر؟ البوابة. المَسْمَره. أشخِّص هذه التجربة التي لم أمرَ بها من قبل: رُهاب الاحتجاز.

فيضٌ بشري ساحق أعمى ولَّده قمعٌ مديد، أبخرة سامة تندفع إلى الأعلى بعنف من الثفالات العالقة في كبسولة انعزالي.... وفجأةً أجد نفسي في جوف الليل مرغماً على مفارقة النوم كما لو أن كبسولتي الذاتية غدت مجرد فقاعة في بحيرة الوعي. الكبسولة تتماسك وترفض الانفجار. وأنا أحفر بأظافري على السطح الأملس وأستجير من أجل الهواء. لقد كان استيقاظاً مقروراً، إنها ليلة هارمتان.

البرد شدَّد من عزلة الكبسولة. وجاء الرعب على شكل طعنات من ضغط جليدي. لماذا؟ لماذا هذا الانسداد المفاجئ لرئتيّ؟ اضطرابٌ فظيع في نبضي أسمعه يدقّ في رأسي وتصبح قبضتاي المغلقتان بإحكام شيئاً حياً، عصفورٌ مذعورٌ ينضغط في راحتيَّ حين أغلقهما. إنه النبض، نبضٌ صرف. أحسست أن قلبي على وشك الانفجار، تتفكك الكبسولة. قطيعٌ من فحول الجياد ترتطم على صدغيَّ.

هل يمكن احتمال هذا؟ سألت، تكاد جمجمتي أن تنفجر.

البحيرة الرائقة ثارت فجأة وأنا أرتفع نظيفاً، قفص بلاستيكي، فقاعة زجاجية، كبسولة لامعة، حشرة مصطادة ومثبّتة؛ أرتفع نظيفاً يرفعني الثوران ويدفعني من عُرْفٍ إلى عُرْف في خضم الأمواج الهائلة. ذراعٌ طويلٌ من الموج يمسكها في محجنٍ شرير ويغرقها ثانية في سرير الطمي، ننزلق من قمة موحلة

إلى أخرى، لا ضوء ولا اتجاه. البحيرة كهفٌ تحت الأرض مغلقٌ من نهايتيه. لا مَمْسك فيه، فقط زئيرٌ في آذان القبو، عِثَةٌ من لبٍّ طيني عارٍ، شظايا من الماء تولِّد مراكز نبضٍ وتخلق التمزّق.

لكنك تعلم مرماها! الرعب! أنت تعلم أن ذاك مرماها الوحيد! إنها بلا معنى.

سمعت صيحتي واستيقظتُ. والآن جاهدتُ في سريري ونهضت وجلست متربِّعاً. هذا ما تريد فعله. أمرتُ نفسي: اقفزْ، امسكْ تلك القضبان وهزّها مثل قرد هائج، واصرخْ! لأن هناك هذا الشيء، هذا القيد الحديدي تحت القلب والتنفس بات عذاباً. الجسد يشبّ ليطير في هجوم ساحق على الجدار ويمزّقه ويكتسح كل شيء بتلك القوة اللابشرية التي انتابتني. أحسست بالقوة الجبارة. إنها هنا! قوة ملموسة. لو أدعها تحكم جسدي ولو لمجرد أن أغيّر بلطف ذاك التقييد الطفيف لساقيَّ المتصالبتين تحتي، فإن قوةً ستنطلق في تدمير ذاتي.

لماذا؟ لكن لماذا؟ ألستَ سيّد هذا المحيط؟ ألم أتوّجك ملكاً للعزلة؟

اضبط نفسك. اضبط نفسك تنفس بعمق. زفير. لا تدع صوتاً آخر يفوتك. تمسَّك بالقضيبين المتوازيين على الباب، إشارة معادلتك لتلك العلوم السريّة التي تبقيك مشغولاً، قضبان ومعادلة واحدة. الآن وازن السماء قياساً على الأرض. الأرض قياساً على السماء. تمسَّك بهما بقوة لكن بصمت. المسْ الحديد وحطّمه في روحك. دَعْه هناك.

لكن متى وصلت إلى الباب؟

الأرض. الأرض. اجلس على الأرضية. البطانية. فقط لولا الجليد. إذن الوسادة، اجلس على الوسادة كي تحمي كاحليك ولفّ البطانية حولك. تنفس، عدِّدْ كل الأشياء بدءاً من فرشاة الأسنان التي على الرف. ما الهدف منها؟ والصابونة؟ عدّ القضبان واحداً واحداً مُقصياً إشارات المعادلة. لا، عبر الأنف، تنفس عبر الأنف فقط. كل ما تحتاج من هواء يمكن أن يأتي عبر الأنف. لا تلهث، لم تكن في حالة جري، يكاد المكان هنا لا يتّسع لجريك. لا تدع العفاريت تدخل إليك. الآن أفرغ ذهنك. ارسُ.

في ليلة «الهارمتان» هذه تغمرني بِركٌ منَ العرق. قد يكون من الأفضل بعد كل شيء، أن أبقى في السرير، مسطحاً. يمتد سطحٌ أوسع. الذراعان منبسطان إلى الأسفل، والعقبان غائران في كتل حشوة الفراش، أنتظر اللحظة اللامبالية لهذا الهجوم، قوة تنظيم في لحظاتٍ مشرقة. كيف أصف ذلك؟ إنه يستقرّ على نموذج، إيقاعٌ مقبول من المدّ والجزر، تشوشٌ ووضوح. وحشيّة قطعان من الذئاب ثم ملاذٌ وجيز تحت شرفه. أصابع على الجرف تضعف بصورة مغثية. سقوط مديدٌ في فراغ، ثباتٌ متحيّر في أنبوبة امتصاص. مرةً أجد نفسي مستلقياً على وجه حرف شاقولي تماماً لا يمسكني شيء سوى القوة التي رفعتني إلى هناك في البدء. متى؟ لا أعرف. بطلينوس يمسك به أشأم توزيع للقوة، لا شيء يحرّره، ليس ثمة فجوةٌ لغرس وتدٍ من العقلانية. بعد كل انديـاح للمدّ يختفي العمق والامتداد: لقد مسحها المدّ بصبر، حتّها إلى صفيحةٍ حسّية مسطّحة. هل هذه أشعتي السينية على الطّفَل الصفحي؟

نثرات

لا نستطع التماسك، نتلاشى

قشارات من وقع خطا

الحدس الذي

يعبر ويعبر من جديد باب الإدراك.

على الأقل ذاكرتي تـصمد متماسـكةً. تلـك (الرقيـة) سـتنفع. تلفَّظْ بكلمات. نظِّم المزاجات إن لم تتماسك الأفكار. مرة أخـرى. مرة أخرى أيضاً. وأخرى. دحرجْ الكلمات في فمك. تذوَّقْ رشـاقة الخمـر، نكهـة غبـار الطلـع، غبـار الـروح. سـافرْ وراء اللحظـة الحاضرة، دعِ الكلمات تهيّئ عبورها ثم ارحـلْ عـبر المعـبرْ ناشـراً البخّور على الطريق. وسِّعْ فـتحتي الأنـف. بجشع. قلـتُ بجشع! التهمْ أكثر من الامتلاء.

النَّصر؟ لا، مدٌّ وجزر. ولكـن يمكـن للمـرء أن يكـون القمـر ويتحكم بالخطر وهو في أعاليه وإن كانت تتقاذفه الأغوار المظلمـة وتنهبه. افصلْ، بشكل ما، الذات الأساسية مـن الانعكـاس التـوأم واجعـل الأطـوار المعذِّبـة تجانسـاً حسياً. ظِلِّـي هـو مـا وقـع في المصيدة ولـيس جـوهري. كـرِّر. ظللـي وقـع في المـصيدة ولـيس جوهري. والآن ارمِ رقية جديدة تحسباً لهجوم متجدد:

أيتها الأقمار القديمة

ألقي عيونك الهلالية

على جسور يديّ

مشِّطي

أعراف ريح البحر

على رمالي التي غمرها المدّ

يشفى كبدي. وأنتظر النسور لأنه ليس ثمة صقورٌ هنا.

25

وصل أمبروزي إلى مناوبته متأخراً. ما لم أوقفه أو أجمّده في الحال بالعداوة فإنه دائماً سوف يشرح لي لماذا تأخر ولو دقيقة واحدة أو لماذا لم يأتِ في مناوبةٍ سابقة. وهدفه الحقيقي هو أن يرى إذا كان هناك بقايا طعام عندي قبل أن يأخذها الزبّال.

ـ يصبّحك بالخير أستاذ! مع إشارة تحية. «أنت لم رأيتني الأمس أنا ذهب إلى المحكمة» . «يمسيّك أستاذ، أنت يرى أنا متأخر قليل ـ نحن عَمِلْنا قليل حكي في المكتب». هذا الصباح كانت «يصبّحك أستاذ، العناصر كلنا يذهب يأخذ حقنة. لهذا أنا متأخر. في المدينة التهاب سحايا. كثير ناس يموت» بدرت مني ردّة فعل فانتهز الفرصة «أجل، أظن يقولون اسمه التهاب سحايا شيء يلف الرأس للخلف. كل واحد داخل السجن يجب يُحقَن اليوم، كل سجين وكل موقوف. جهز ذراعك يا أستاذ، شغلة توجع قليل».

أيّ حدث في السجن يستقبل بالترحيب، حتى التهاب السحايا الشوكية الدماغية ووخزات الإبر المزعجة. هناك ساعات انتظار الحدث ثم لحظات الحدث ثم بقية اليوم حين تفتح ملموسية ذاك الحدث فجوات في أبخرة وجود لا معنى له. لم أضطر إلى سؤال أمبروزي كي يخبرني كل ذلك عندما جاء إلى فناء المعتوهين. النقرات السلطوية المألوفة على الباب، دخول الفريق الطبي، نباح الأوامر، الضحك الذي يلي كل زعقة ألم. اندفع أمبروزي وأعلن إعلاناً نافلاً «جاؤوا!» واندفع عائداً إلى موقعه.

مرت ساعة. سمعت البوابة تفتح ويغادر الفريق كما جاء. فتح أمبروزي بوابته قليلاً غير مصدّق، ليرى ما الذي حدث ثم أغلقها ثانية وعاد إليّ «لا أفهم» قال «أظنهم ينسوا يقولوا إنك هنا. أو يجوز يعملونها لك غداً».

كل النزلاء بمن فيهم أولئك الذين في زنزانة الموت تم تلقيحهم ضد التهاب السحايا الشوكية الدماغية.

أحاول أن أسترجع ما أعرف عن هذا المرض. أهم شيء أنه مرض شديد العدوى وليس فقط عبر التماس. جراثيمه يحملها الهواء. أجد نفسي، وأنا أتمشى في السرداب، أرمي نظرات عفوية فوق الجدار كما لو أنني قد أتحرّى وأتفادى جراثيم هذا الخطر الجديد وهي تعبر متسللة عبر الأسلاك الشائكة لتحقق آمال أولئك الذين أمروا بمنع تلقيحي.

فأنا أعلم أن ذلك لم يحدث سهواً. إنها إمكانية «طبيعية» قد تنتهي بي إلى العزلة النهائية.

لم أنشل جيباً طوال حياتي. انتظرْ لحظة، قد أكون فعلت الآن. في المدرسة يمارس المرء كل أنواع اللعب. قصة تجسس مثيرة، رواية بوليسية، فيلم عن تحري خاص، أيٌّ من هذه يكفي كي يدفعنا لاختبار أصابعنا ومنعكساتنا. أليست أفضل من أصابعهم ومنعكساتهم؟ إضافة إلى معرفتنا المكتسبة عن الكيمياء والفيزياء. الآن، وطالما أنني أتكلم في هذا الموضوع، أذكر أنه سبق لي أن فتحت أقفالاً وليس لمجرد اللعب. حقيبة ضاع مفتاحها... كي لا أذكر عدد المرات التي عالجت بها مفتاح الباب الخلفي ودَفْعِه على جريدة كنت قد دفعتها بعناية تحت الباب. براعة أخرى مفيدة من خبرة المدرسة. لكن أن أنشل جيباً بالفعل، هذا ما لم أفعله من قبل، بقدر ما أذكر. وإن حدث فجزءٌ من جملة المزح الثقيل في المدرسة.

ذات يوم، منذ بضعة أسابيع ـ في الحقيقة كان يجب أن يكون ما أكتبه الآن أول كتابة بهذا القلم ـ نشلتُ جيباً بكفاءةٍ تليق بالتلاميذ الحائزين على جائزة فاجين[1]. وليس أي جيب، ليس الجيب الخلفي في بنطلون أو جيب معطف فضفاض، بل جيب الصدر في مريولة الطبيب. ما يدهشني ويثير استغرابي أن السلوك لم يبدُ لي استثنائياً حينها. إنه برهانٌ آخر كيف يصبح الإنسان يوماً بعد يوم، بل لحظة بعد لحظة، لدى حجزه بعيداً عن الحياة المتحضرة العادية، مثل الثعلب. ما أعاد ذلك الفصل إلى ذهني هو

(1) إحدى شخصيات أوليفر تويست لشارلز ديكنز. البالغ الذي يعطي التعاليم للتلاميذ في مسائل الجريمة. م.

أن القلم، قلم بيرو رخيص، ابتدأ ينفذ ووجدت أنني، بلا وعي، ابتدأت أتمنى عودة الطبيب. شيء محيّر، كيف تذكرت للمرة الأولى اللحظة الحية من أول مرة أقوم بها بعملية نشل جيب.

أخيراً جاء الطبيب. كانت جولة روتينية على الزنازين. في حالتي فقط لم تكن روتينية تماماً. يتجول الطبيب بين السجناء بلا حراسة يصحبه فقط الممرض وعنصر من السجن، خفير صغير عادةً. هذا، إضافة إلى الباحاتي العامل في المستوصف، هو فريق الفحص الطبي بكامله. في الحالة العادية، لدى دخول السجن يُعرض النزيل الجديد على موظف طبي في ذاك السجن فوراً، بالتأكيد في غضون الثماني والأربعين الساعة الأولى، لأنه هو من يجب أن يصف الحمية ويقر المهام التي يصلح لها النزيل بعد فحص شامل...الخ. أنا لم أُعرض على الطبيب رغم مطالباتي المتكررة. لدى دخولي هذا السجن قام مدير السجن نفسه بوصف حميتي. جاء في الصباح وسألني ماذا أتناول في العادة. ذكرت المادة الأولى والثانية فأشار لي أنْ يكفي. ومنذ ذلك اليوم حتى قدوم المدير الجديد اقتصر أكلي على اليام[1] بعد الظهر وعلى الأرز في المساء. وكان يصلنا أيضاً الحليب والسكر والمارغرين والبيض في الصباح. كان من شأن معظم هذه المواد أن يزيد فقط من عبء الزبّال وحراسي، وبالأخص منهم أمبروزي.

والآن، لسبب لم أستطع فهمه، ظهر الطبيب يصحبه مدير السجن وعنصران وأمين الخفر وخفير متقدم وفريق من الخفر الصغار. انتظر الممرض في الخارج. خضعت للفحص، أجبت على أسئلة الطبيب ثم سألته بدوري: «أنا هنا منذ أشهر. وحيداً. ليس

(1) درنات تشبه البطاطا الحلوة. م.

لدي كتب أو أي انشغال آخر. أتظن أن هذا جيد لصحتي؟». قرع صدري وأطلق ضحكة خفيفة: «هُوهُو.. تبدو لي سليماً معافى».

«لكن هل تعتقد أن هذا صحيح؟ هل تعتقد أنه إنساني؟ لأنه إذا كنت لا تعتقد فعليك أن تفعل شيئاً ما. أنا معتاد على استخدام وتغذية ذهني. هل من الصواب أن أخضع لحرمان مديدٍ كهذا؟».

امتقع وجهه. لم أقرف في حياتي من اللكنة الآسيوية مثلما قرفت في تلك اللحظة. عندما تكلم تذكرت الغزو الهندي الباكستاني للإدارة المدنية النيجيرية، بشكل أساسي لقطاعي السكك الحديدية والخدمات الطبية. المتوفّى سارداونا من سوكوتو يتحمل مسؤولية إحضار الموهبة الضعيفة إلى البلد من آسيا. إحدى الحالات المخزية، من بين آلاف مثلها، حالة ممرض عادي في مستوصف، ابن أخ مضيفه المسلم خلال إحدى المهمات الإسلامية للباكستان. في إحدى لحظات تمدّده الكثيرة على حساب الأمة، كفل سارداونا لهذا الممرض وظيفة مهمة في شمال نيجيريا إذا اختار أن يعود معه. وقد اختار. وجُعِلَ منه طبيباً ضابطاً. مارس الجراحة، والنتائج يمكن توقعها. وأخيراً في عام 1963 وبعد ملاحظة معدل الوفيات غير العادي تحت سكين هذا الجرَّاح، أجرى تحقيق في الأمر، ولم يتم الكشف عن سوابق هذا المدعوم، حتى أن القرار النهائي كان فقط حرمانه من ممارسة الجراحة بعد الآن. واستعاد هذا الجزار منصبه كضابط طبي مسؤول وأشرف على عيادات نظامية.

رأيتُ وسمعت طبيب السجن بلكنته الكاريكاتورية إلى حد لا يُصدَّق. إنه ببساطة واحد من الثفالة الباقية من استيراد سارداونا. في البداية اعتقدت أن الأمر لا يعدو كونه مزاحاً سمجاً عندما أصرَّ على فهم شكواي من الجوع الذهني بمعنى فيزيائي محض. ولكن فجأةً تبيّنت أنه كان في منتهى الجد.

«عيناي» شكوت. «الهارمتان أو شيء ما سبب لهما لأذى. إنهما بحاجة إلى فحص». وبمثل لمح البصر ضغطت سبابته على جفنيّ السفليين بسرعة الأول ثم الثاني.

«أجل، أجل» مضيئاً بيله البصري في كل عين «أجل، ممَّ تشكو عيناك؟ إنها في حال عادي».

«أرى أمامي بقعاً» نظرت إليه في العين أريده أن يفهم ويمارس سلطته «لا بد أن السبب يكمن في نقص القراءة» شعرت بالحماقة.

«لا، لا» ودون أن يهدأ راح يفحص كرة كل عين بمنتهى الجد «ربما قرأت أكثر مما يجب في الماضي. خيرٌ لك أن تريح عينيك».

في اللحظة التي استدار بها أمسكته. كان الآن بيني وبين عناصر السجن. أمسكت يده التي تحمل «البيل» ولفظتُ كل كلمة على حدة «إنهما يطلبان القراءة».

«أجل، أجل... آسف. هل أغاظك ذلك؟» وهو يحرر معصمه بلطف «سمعت أنك لا تأكل جيداً. يجب أن تأكل. أنت تعلم».

أظن أنه في تلك اللحظة عندما تيقّنت أنني لن أحصل على شيء من تلك الزيارة أو من ذاك الرجل، تثبّت ذهني على القلم الناشف في جيب الصدر. الكتابة! أن أستطيع تنزيل الأفكار على الورق. قد أبدأ مسرحية جديدة أو رواية أو قصة قصيرة أو حسابات شخصية... الكتابة عَنَتْ كل هذا ولكن الأهم أنها كانت انشغالاً. القلم وأنا سنمضي الوقت في عمل شيءٍ ما. وسيتآكل الوقت كثيراً أو قليلاً.

«بقع» كررت «مثلما هو الحال الآن، هناك فوق» وأشرت إلى السقف ولكن إلى مكان وراءه من فوق كتفه الأيمن. الجيب كان إلى اليسار. ورائي، بشكل يثير الاشمئزاز، كنت أعي أن عناصر

السجن يراقبون ولكن يحاولون ألا يراقبوا، يصغون ولكن لا يصغون، يتظاهرون أنهم تركوا سجينهم في عزلة خاصة مع طبيبه. التفت الآسيوي إلى الجهة التي أشير إليها وانحنيتُ أنا إلى الأمام نحوه. اقتلعت القلم حين استدار صدره من أمامي ووضعته في راحة يدي ثم فرشت راحتي على الطاولة والقلم مطمئن فيها.

«طبعاً أنت لن تراها» قلت له.

«السبب هو أكلك المضطرب». وابتدأ يحزم أدواته. علّقتُ عينيَّ على عينيه خشية أن يكون قد لاحظ، متحدياً إياه أن يشين نفسه ويخونني وهو من المفترض أنه ابن مهنة إنسانية. لكنه لم يكن قد لاحظ شيئاً. بالتأكيد لم تبدر منه أية ردة فعل «يجب أن تأكل بانتظام» هذا كل ما قال. «بعدها لن تجد بقعاً أمام عينيك».

حين أسترجع ذلك أعتقد أنني كنت أتمنى لو أنه عرف بالسرقة. لأن ذلك كان سيعني أن ثمة ضميراً بشرياً في المتناول يخفّف من واقع العزلة. ربما كان هذا ما منعني من التفاخر برشاقة تلك العملية السريعة الارتجالية. انشغلت جداً بمتابعة كل لحظة من مشهد ردود أفعاله، آملاً ضد الأمل أنه عرف وأنه أدرك حاجتي وأنه ربما يجد في نفسه الدافع للمساعدة، وإلا لماذا أرغب الآن، وقلم البيرو في يدي يوشك أن يجفّ، أن يزورني ثانية؟ بعد أن عرفت حقيقة أمره، فإنه على الأرجح لن يأتي ومن جيبه يبرز قلم بيرو. وإذا عاد فإن ذلك يعني أنه عرف وجاء عمداً لكي يعرّض نفسه للسرقة من جديد.

يجفّ الحبر. لا بد أنه من الممكن حساب المتوالية الحسابية «أم أنها هندسية؟» لجفاف الحبر في قلم البيرو. أو بشكل أكثر صلة بالموضوع، متوالية التكسّر السيكولوجي «هل من وجود لكلمة كهذه؟» للنزلاء تحت رعاية أحد أطباء سارداونا».

ابتدأ أنين العذاب مباشرة بعد وقت العشاء. جاء من جهة الحائط الذي قبالة مدخل زنزانتي. في الحائط فتحتا طوفان تعلوهما قضبان حديدية. الشبك واسعٌ بما يكفي لمرور هرّ. أعلم دائماً من نتف الوبر التي تبقى عالقة على القضبان متى استُخدم الممر في الليل. بعدئذٍ يثبُ الهر عبر المكان الفاصل أعزلاً ومفعماً بالخطر، يختفي وراء المسكن يبحث عن بقايا طعام. عبر ملكيتي يمرّ مزراب وراء المسكن مباشرة. إنه يربط فناء المعتوهين عبر السرداب مع مجمّع النساء. المزراب هو الرابطة السريّة بين كل سراديب هيدز[1].

الآن، ثمة رائحة موت في الهواء. لا يمكن أن أخطئها. إذن يجب أن أفكر بالأشياء الحية فقط، أن أغلق أنفي عن النتن، أن أبعد تضرّع الأيدي العظيمة عن عَجْزي.

حدثت هنا ولادة منذ بضعة أسابيع. سمعت صرخات وليد وتساءلت كيف يمكن لهذا أن يحدث. طفل في هذا الجحيم؟ كان الوقت مساءً، تقريباً في الوقت نفسه الذي ابتدأ فيه الأنين المقتحم الذي اسمعه الآن. من غير المعقول أن تكون زوجة تزور زوجها السجين وعلى يدها طفلٌ حديث الولادة.

أليس غريباً؟ سمعت قبل ذلك أصوات النساء لكنني اعتقدتها أصوات أطفال. شهورٌ عديدة مرت قبل أن أكتشف أن سردابي يقع بين فناء المعتوهين وفناء النساء! أصواتهن رقيقة جداً كأنها تصدر

(1) إله الموت عند الإغريق وهو أيضاً اسم العَالم السفلي الذي يحكمه. م.

عبر صدع في كهف ناءٍ. كنَّ يلعبن ألعاباً طفولية في المساءات. من الأصوات والقهقهات اعتقدت أنها لا بد من الألعاب التي يمارسها الأطفال. تلك هي الأصوات التي كنت أتخيلها قادمة من خارج السجن؟ في إحدى الأمسيات الهادئة استطعت حتى أن ألتقط بعض الكلمات:

أخي جوني

أخي جوني

أنت نائم

أنت نائم

أجراس الزفاف ترن

أجراس الزفاف ترن

دين دون دن

كن يغنين بذاك الأسلوب المتواني العابث الذي يغني به تلاميذنا الأغاني الأجنبية «زهرات الجريس في اسكوتلاندا»، «حقل الدردار»، «الفتاة بمحياها العذب»، الأغاني التي أقحمها في منهج التدريس مبشرون عديمو الخيال. يلفظون الكلمات بلا معنى حتى عندما تكون هذه الأغاني مصاحبة للألعاب لا معنى للكلمات بالنسبة لهم، المكان والأحاسيس غريبة، وهكذا فإن هذا الأداء الشاحب هو أقصى ما تستطيع معلمة الموسيقا المضللة أن تحصل عليه منهم. لا بد أن هذه النوعية العالقة في الذاكرة هي ما جعلني أتخيل لوقت طويل أن الأصوات التي كنت أسمعها من الفناء واللعب تأتي من أطفال يلعبون في العالم الخارجي تحت شجرات المانغو. ذاك العالم يستلقي وراء جدار الكهرمان الذي تشرق الشمس من ورائه تماماً.

على طول جدار الكهرمان هناك طريق، طريق غير مزدحمة، يمكن تخمين ذلك من الأصوات، أو أنها ببساطة تمر بعيداً عن الجدار بشكل يمنع وصول أصوات السيارات. لا شك أن هناك مقداراً ما من التشوه وخصوصاً في الاتجاه. الأكيد هو أن ثمة مجالاً واسعاً بين الجدار والطريق وهذا المكان يشغله حقل من أشجار المانغو التي تبدو لي رؤوسها.

أراقب ظهور البراعم والأزهار والأقراط الخضراء الأولى على الأغصان، الأسراب الكثيفة من الذباب الأزرق التي تلحق بالسارقين لدى بوادر النضج الأولى حيث تنقذف على الثمار كل أصناف القذائف التي يحويها الكاتلوج الواسع. وغالباً ما تحط هذه القذائف في السرداب وأسمع الخفير يشتم ويعيد رمي بعضها. أنا لا أكترث. حتى أن خطر أن يشق رأسي أحد تلك الصواريخ أثناء موسم المانغو بات إمكانية بهيجة كالبهارات، أشياء تدخل بعضاً من الحياة في السأم. شقٌّ مؤلم في الرأس يدل على الحياة، على حركة الحياة. لا، لا أظن أنني سأكترث لو حدث لي ذلك أبداً.

أنا أتمشى في الصباح الباكر من ساعة فتح الأبواب، ذات صباح نظرتُ، فرأيتُ على أعلى غصن، في مكان يكاد لا يستطيع، كما كنت أعتقد، حمل أكثر من وزن الثمار، طفلاً يجثم ويحاول الوصول إلى ثمرات المانغو العالية، كان رأسه أعلى من قمة الشجرة نفسها، وكان يتأرجح بلطف مع حركة الغصن. كنت على يقين أن تلك الثمرات هي آخر ما تبقى من ثمار على شجرات المانغو. في الغالب كان تاج الشجرة يتحرك ويُهَزُّ بعنف من الأغصان السفلى ولكن لم يجرؤ أحد من قبل أن يتسلّق إلى هذا الارتفاع. كانت يده على الهدف عندما نظر إلى الأسفل وقابل

نظرتي. توقف. حدَّق كلٌّ منا إلى الآخر. ابتسمت أنا، لكن ردّه كان نظرة ذهول تام. ثم سحب نظراته وابتعد بها إلى الجهة الأخرى. رأيت ذهنه النشط يدور بسرعة ويتساءل لأنه كان الآن ينظر إلى المجمَّع المكتظ المجاور لي. الشمس كانت ترتفع ببطء من خلفه، تشرق إشراقاً لا تستطيع نظرتي أن تحتمله فتابعت المشي حول المسكن، حين عدت رأيته يحدق من جديد في السرداب. في الدورة التالية كان قد ذهب ومعه ثمرات المانغو.

حين سمعت أصوات نديّة في وقت متأخر من ذاك المساء. تخيّلته بين مجموعة من أترابه يلعبون في ضوء القمر. وللمرة الأولى تنبجس، مهما حاولتُ كبتها، ذكريات الطفولة، بيت كاهن يعجّ بالأولاد. قمت بجهدٍ أخير وأزحتُ ذاك المشهد بالقوة. حلَّت محله رائحة الزهور، شروق شمسٍ، رعشة غيتار، النهاية الوثنية الكئيبة في عمل كوكتو (Orphee Negre)، رقصة الربيع يؤديها الطفلان وريثا سحر شروق الشمس المثير للذكريات، سحر بذرةٍ تستيقظ في التربة تحت دوسهم البريء...

لأنه وُلِدَ فينا طفل.. إنَّها صرخة الوليد، صرخة ذاك الطفل.

لقد احتوت الإلحاحية الموجعة التي شكّلت كل عالمها لجديد، طعنة متفانية من كل كثافة جسده الصغير. سمعت صوت هدهدة أم وكنت متيقناً. صوت نسائي آخر، صوت متشكي نكد دخل المشهد الذي بات بشرياً على وجه التقريب. صوت الأم المشتركةَ في كل نسائنا يقدّم نصحاً قلقاً وينصر الطفل. لكن الأصوات بقيت مخنوقة، النساء غير واقعيات. لم يكنَّ مخلوقات الشمس، لسنَ كثمرات المانغو التي تنبض عالياً على شروق الشمس. أشباح، مجرد أشباح لا وزن لها تنجرف في أبخرة

الكهوف. الطفل في عالمهم السفلي مشوَّه بالغ الحنجرة، طفلٌ بديل. الآن أفكر، بشيء من الحزن، أن الولادة تمت في الفصل الخطأ ـ كان يجب أن تحدث في الربيع. مع ذلك إذا كان المولود أنثى فنستطيع تجاهل التوقيت ونسميها بيرسيفون(1).

يقترب منتصف الليل ومع ذلك لا سلوى على جدار العويل. أغلقت ذهني عن بقية الأصوات التي ابتدأت منذ حوالي ساعتين، أصوات ردّها إلى الصمت صوت أعلى. النزلاء الذين كانوا مع الرجل المتوجّع أطلقوا صرخة استنجاد، سمعت أصواتاً هيستيرية تصرخ: يا خفير! يا خفيير! استمر الصراخ حوالي نصف ساعة دون أن يكترث به احد. عندئذٍ تزايد الصوت بالطَّرق على الأبواب والنوافذ والدِّلاء. كان الآن ثلاثون صوتاً على الأقل يطلبون النجدة. وتحت هذا الصراخ تواصل الأنين ثابتاً بنبرةٍ وإيقاع لا يتغيران كما لو أن وجعه قد صعَّد ذاته في هذا الصوت الآلي الأخير. سمعت صوت جري الأبواط، أبواط عديدة. سمعت رنين الحديد حين انفتحت البوابات، سمعت التهديدات، الصرخات. سمعت الردّ الحازم بالمطالب. اتهام. سمعت أصواتاً تقمع أصواتاً. خطوة طويلة من صاحب سلطة تقترب من سرير الرجل الشاكي. سمعته ينحني ويقوم بفحصٍ لا يخرج منه بشيء. سمعت الخطوات تعود. لغط أصوات مثارة كان يعني أنه غادر دون أن يقول ما العمل الذي يجب القيام به. هذا إذا كانوا سيقومون بأي شيء على الإطلاق. أظن أنني التقطت الكلمة المكرورة. دكتور.

(1) إلهة إغريقية للعالم السفلي، ابنة زيوس وديميتر. خطفها هيدز ديميتر، سمح لها زيوس، متأثراً بحزن ديميتر، أن تقضي جزءاً من كل سنة على وجه الأرض وهذا يمثل إعادة ولادة الحياة الطبيعية في الربيع. م.

أخمدها الدكتور زاعقاً بفجاجة وسخط. رنت الأبواب وقالت الأقفال كلمتها لأخيرة وابتعدت الأبواط. كانت همهمة العناصر الراجعين احتجاجات رجال مستائين، رجال أفسِدتْ عليهم راحتهم دون سبب موجب.

لا ينقطع الأنين ولا يخفت. الثبات اللابشري الجاف لصوت المعاناة البشرية هذا هو الجانب الأكثر إثارة للأعصاب من كل ما يجري. إنه لا ينبع من إرادة بل من العطالة الواهنة لنبض مكتوم، كما لو أن الرجل يقتصر على ترك فمه مفتوحاً ومع تنفسه ينبثق الصوت.

قبيل الفجر ينقطع الصوت. بغتةً. لم يضعف أو يَعثُر أو تزداد حدّته. أعلم أنه انتهى.

جسدي مُجْهَدٌ لا يطيق أبسط صوت. نهض رجلٌ ومضى إلى قرب الصمت مستفسراً، آخرون يسهرون في أسرّتهم، بضعة رجال ينضمون إلى الذي بجوار السرير. بعد لحظة أسمع همهمة صلوات. تتواصل الصلوات إلى أن تنفتح الأبواب. يدخل أحد العناصر، يتوقف، يصرخ لرئيسه.

سرعان ما تحلّ تلك الساعة حيث «يستيقظ كل الموتى». حين يدور المفتاح في قفل زنزانتي أسأل الخفير: ماذا حدث للموجوع.

«مات الرجل» قال.

28

سمّيت الجدران الأربعة. جدار العويل الذي من فوقه ينبعث لغط عقائد ثلاث مرات في اليوم، وفي بعض الليالي ينبعث الأنين الموحش لمريضٍ أو محتضر وأحياناً نادرة يستخدم جانباه كمعبر. في أسفله توجد فتحتان صغيرتان لتصريف ماء المطر. شاهدت من خلالهما، وهذا أقصى ما يمكنهما إظهاره، التماعة كاحلين عاريين لسجين، أو الحذاء الخشن المعهود للحراس، وفي بعض الأحيان حذاءً أنيقاً لضابط مرشح أو ضابط متقدم آخر. وهنا ابتدأت أيضاً هلوساتي.

خديعة الضوء، أوراق العلّيق عبر شبك الحديد إضافة إلى الضعف الجسدي في اليوم السادس من انقطاعي التام عن الطعام، جعلاني أرى وجه أدولف هتلر تؤطره الفتحة بوضوح، وجه محدَّد وكامل بناصية وشاربين كفرشاة الأسنان.

جلست ساكناً لدقائق تاركاً الظاهرة تتطور على هواها. لم يطرأ أي تغيير سوى أن محجري العينين ازدادا كثافة. أغلقت عيني وأدرت وجهي إلى الحائط، تنفّست ببطء وتركيز ثم استدرتُ ثانية ونظرت. واجهني الوجه البارد نفسه وعليه تعبيره لم يتغيَّر. علمتُ أن صرخة بدرت مني واندفعت إلى داخل الزنزانة، كنت أجلس في الممر في وقت مبكر من المساء، وقفت في العتمة إلى أن جاء الحارس للإقفال عندئذٍ استلقيت للنوم. أغلقت ذهني في وجه الأسئلة. مرَّت ساعات قبل أن أغفو، وما يثير الدهشة أن نومي كان خالياً من الأحلام.

المساء التالي كنت ثانية في ذاك الموضع نفسه، أعاير الوقت. هذه المرة كان وجه ألبيرت شفايتزر[1]. بتغيير الموضع أحصل على مجموعة واسعة من الوجوه. نهضت ومشيت ببطء نحو الشبك، راقبت انحلال الظلال، رأيت نبتة العلّيق ترسم معالمها ببطء وسلامتي العقلية تستعيد سلامتها قليلاً. في اليوم التالي قلّصت مساحة الصوم فقبلت بتناول البرتقال والفول السوداني. بعد ذلك انتهزت لحظة مناسبة في النهار وقطعت نبتة العلّيق بعد أن تيقنت أن الوجوه تعود دائماً تنزاح إلى الخلف وتتلامح فيما بدا مثل تلسكوب من الأثير في محاولات ضبط لا تنتهي. أحياناً تنزاح بعيداً إلى الخلف إلى أن تطفو في لانهائية محضة بلا أرجل ولا جسد تتحرك وتتكلم وتومئ بإصرار متزايد. منذئذٍ عادت الفتحة إلى ما كانت عليه. مجرد فتحة طوفان. في النهاية كفّت حتى عن الوجود. لقد كانت على كل حال تخطّط لانبعاث جنونٍ أشد. نظفت نفسها من الظلال فقط لكي تبدأ لعبة ظلال قذرة.

هذا الصباح، على الجانب الآخر من فتحة الطوفان، ثمة سَيْر، غير مسبوق. ارتبتُ في أمره طويلاً وانتابني شعور من الكآبة، كاحلٌ إثر كاحل، وسلسلةٌ إثر سلسلة. صوت السلاسل واقعيّ والوقت نهار. بطيئاً عبر الشبك أشكالٌ ممسوخة من أطراف بشرية: دلف، صلصلة، دلف، صلصلة، دلف، دلف، صلصلة... أقدامٌ عارية،

---

(1) لاهوتي وطبيب إرساليات وعازف أرغن مولود في الألزاس. في عام 1906 كتب «مسألة المسيح التاريخي» مؤكداً على بشرية المسيح. حازت كتاباته عن باخ وحفلات عزفه لموسيقا الأرغن لباخ تقديراً كبيراً ـ في عام 1952 حاز على جائزة نوبل للسلام. منذ 1913 وحتى وفاته عمل طبيباً في الغابون. م.

السلاسل مرئية وكذلك الكواحل. إنها من النوع نفسه الذي قيّد كاحليّ خلال التحقيق معي في لاغوس، قيودٌ باهظة من سلاسل وحلقة تعضّ حتى العظم لدى كل حركةٍ. الدلف هو الحركة الوحيدة، وضع القدم اليمنى بتثاقل من فوق اليسرى، اليسرى بعد اليمنى. رفع الأقدام يعني أن يتأذى الجلد فوق الكاحلين عندئذٍ يصبح حتى الدلف عذاباً. بالمقابل هناك جزمة خفير لامعة تحاول بخراقة أن تلائم نفسها مع رقصة المقابر المسطحة للسجناء، ولكن أنّى لها ذلك؟ تعوزها تلك البراعة الرنّانة، خطوٌ (ينظمه الصدأ). أحد عشر سجيناً وخفيران أعادوا الحياة إلى إطار اللوحة في فتحة الطوفان، مستبدلةً أقنعة الموت من المساءات السابقة باستعراض جديد لازال عليّ أن أستجلي غموضه.

حالاتٌ خطرة؟ مدمنو فرار أم مهووسو قتل؟ يبدو من الغريب أن يتكلم معهم الحراس. أصوات الخفر فيها راحة مدروسة وخفيفة، طمأنينة يبدو أنها مصطنعة. لم أسمع كلمات، فقط أصوات. أشك أن الأصوات تحكي قصة، شيئاً ما طريفاً للغاية. أنا متأكد أن الأصوات التي تضحك هي أصوات الخفر ولكنني لا أشعر فيها أية قسوة. حتى أنني أستنتج بذاك الحدس الاعتباطي الذي يتناول أبسط الأدلة والإحساسات في الحجز ويكسوها باللحم، أن القصة تغمز من قناة الموظفين الرسميين أو ربما حتى تغمز بالقاصّ نفسه. بعد الضحك، صمت، توتر حميم في التوقف قبل أن تستأنف الأصوات.

لماذا إذن هذا الجهد لاصطناع الكياسة؟ الغرض الخيري ينتقل عبر حاجز الجدران حتى عبر ضبابية الفاعلين. أعرف الأصوات المتنمرة للخَفَر، ضجيجهم السادي المبتز المتوعد.

أعرف أيضاً نبراتهم المهدِّئة المداعبة، سمعت مثل هذه الأصوات تطفئ سلطتها الخاصة. أصوات المساء بعد أن يغادر الضباط المتقدمون عندما، إذا استبعدنا جولات التفتيش المفاجئة من جانب الصفر الأول أو المساعدين المتقدمين، تنمحي علاقة سجان والسجين لتبدأ علاقة إنسانية مريحة للجانبين. رجالٌ محدودو الدخل ذوو مشكلات مستفحلة، مشكلات حب ومسؤوليات وبقاء. ميّزت أيضاً أصوات يهوذا المداهنة حين تخفف عن السجين الذي خانته هي عينها. هناك التزامٌ يقظ بقواعد الثقة بين السجَّان والسجين وما خلا الضرورة لا يُواجَه السجين إطلاقاً مع خائنه، أعرف صوت يهوذا الذي يرحِّب به عند عودته من المطهر، والصوت المنافق الذي يوبّخه على ثقته الزائدة بزملائه من السجناء. أصوات الخفر في هذا السَّيْر مرقشة بظلال من نبرة يهوذا لكنها مفعمة أيضاً بإخلاص خجول. إنه أيضاً صوت سلوى الليل المتبادَل لكنه متوتر كما لو أن الزيارة الغادرة متوقعة ولكن عبر مدخل أكثر شؤماً وغير متوقع...

غير أني مازلت لا أفهم. بعد ساعات يدلف الموكب عائداً من جديد، يتنامى صوت نبضه المميز إلى أن تدخل أصابع القدم الأولى في إطار اللوحة، تستقرّ تماماً في المركز إلى أن تتخطاها لقدم الأخرى ببطء، عَقِبٌ متشققٌ يرتاح وسط الإطار تماماً وعليه ينتقل وزنٌ ضجرٌ من الحياة. هذه المرة أسمع رداً أو ردين من السجناء. الحرس بدورهم باتوا أكثر وداً وأقل توتراً، ممارسة متراخية للرابطة بين من يعاني ومن يغفر لهم واجبهم جريمة التسبب في المعاناة.

بعد أسبوع يتكرر السير على الشاكلة نفسها، الآلية عينها. ثقيلة، متعبة، بلا أمل. أشكال كرتونية عبر الضوء. لصقت عيني

واستنفرت أذني إلى فتحة الطوفان تلك منذ العبور الأول، ولكن هناك انقطاع لعدة أيام. ثلاثة على ما أعتقد. هذه المرة هناك سلسلة من ثلاثة أيام مواكبيّة متوالية. يبدأ موكب اليوم وهو الموكب الثالث والأخير ـ فقد فهمت! ـ يبدأ باكراً وعلى نحو أشد غرابة. أية سدود أقمتُها في وجه حدسي كي يفوتني حتى الآن هدف هذه المواكب! إن بقائي أميناً ومتنبهاً إلى العبور يعني، أعترف الآن، وعياً بأن ثمة فصلاً لم يكتمل، إحساساً بالتصنع الذي لم يكن بالفعل أكثر من استهلال فظ. استيقظ بإعجاز في موعدي المعتاد، بإعجاز لأن الأصوات التي توقظني عادة كانت جميعها مفتقدة. يبدو لي للوهلة الأولى أنني استيقظت متأخراً ولكن ميلان الشمس يكذّب ذلك. أنا على دراية أنني أستيقظ في صمت مطبق. مفقودةٌ كل الأصوات، سخرة الفطور عبر السجن، الزبّالون، المجموعة المبكرة، استعراض الخفر وصراخ الأوامر. هذا الأسبوع مناوبة أمبروزي ولكن حين أذهب إلى الفناء أواجه شاباً لم أقابله من قبل. حتى عند هذه النقطة لم أحدّد غرابة هذا الصباح على أنها صمت، بل مجرد تغير ما في سلّم أصوات اليوم سأفكر فيه أثناء راحتي (يتعلم المرء كيف يدَّخر إلى فهم لاحق الأشياء التي لا يَسِمُها الحدس بميسم الخطورة المباشرة). أطرد الهدوء غير العادي وأتمادى في استحمامي ثم أتمشى في الباحة بلا اكتراث. في هذا التمشي الباكر لا أسمح لشيء أن يتدخل سوى حركة النمل والذباب والفراشات وعوارض أخرى من حياة الحشرات والمجنّحات. لا تبدأ بلادة النهار إلا بعد ساعة أو ساعتين من الظهيرة، إلى ذاك الوقت أدّخر مدخراتي. لا بد أن هذا الشرط وحده هو ما جعلني أخفق في تفسير صمت الموت الذي خيَّم على ذاك الفجر، وقع الأقدام المشحون بالعناصر والضباط، هؤلاء

خصوصاً، وجود دزينة على الأقل من وقع الأقدام الغريبة بينها، كلها مشحونة ومروِّعة وأخيراً، بنظرة استرجاعية، حتى قلقي الخائف اللاواعي من تشريح طقسٍ ما عصيّ على التسمية.

عندما تعبر الأقدام المسلسلة لا تبدي تحذيراً، ولا حتى حقيقة أنها أقل بخمسة. اليوم ستة أزواج فقط من الأقدام المغلولة تنجرّ عابرةً الإطار. هذه المرّة صوت الخفر أعلى، مُنَكَّهٌ بخشونة متوترة. من الواضح أن مرحهم زائف ولا يطاق، يعديني التوتر أنا الآخر فأقوم بجولة حول المسكن. قبالة جدار فتحات الطوفان، جدار العويل، يقع جدار الكهرمان الذي من فوقه تشرق الشمس. حين أقف قبالة الكهرمان أستطيع أن أنظر فوق جدار العويل وأرى أعلى نوافذ الطابق الثاني من مبنى السجن المجاور. في لحظاتٍ نادرة حين يتسلق أحد النزلاء، أحد الموقوفين حسب ملابسه، إلى عتبة النافذة لأسبابه المبهمة الخاصة كنت أرى حقاً وجهاً بشرياً وبشيء من الجرأة والحظ، حين يكون الحارس غافلاً، كنت أردُّ تلوحية يدٍ حذرة وحتى إيماءة رأس. اتصالٌ لي وله. تقوية للإرداة لي وله.

اليوم كل هذه النوافذ مغلقة، والآن أفسّر الأصوات البعيدة، أصوات سحب وصفق النوافذ الأخرى لإغلاقها. خليّةٌ بشرية هائلة ينكتم صوتها وتُعصَبُ عيونها وأنا لم أفهم بعد.

يستمر الصمت ثلاث إلى أربع ساعات. ومثلما يُدارُ شريط الصوت في فيلم، هكذا تعود الأصوات بصورة مفاجئة واعتباطية. الستة المسلسلون يعودون الآن. لا أستطيع تحديد في أية لحظة وافقت أخيراً أن أفهم، لأن هذه الالتماعة ألزمتني السرير حيث استلقيت أمتصُّ الصمت دون تفكير أو حركة. أفشل في أن أضع عودة السلاسل، التي بدت أثقل في لحظة ثم أخفّ على نحو

مرتبك، في علاقةٍ مع لحظة الالتماع. عطالة خَدِرة، شلل حواس يعقب شلل الفكر الذي شرب بالكامل صمت الساعات الأولى. فجأةً أنهض غير مكترثٍ بالقانون الذي يمنعني من الاتصال، لا شيء إلاّ التواصل الضروري مع حراسي. هرعت ساعياً وراء تأكيدٍ نافل من الخفير الشاب. لقد ذهب. وفي مكانه أجد أمبروزي، بعينين حمراوين ومنخرين مفتوحين على مداهما ومسام متسعة برائحة الموت. لا أتوقف حتى كي أعيد النظر في اندفاعي بل أتحدّاه مباشرة (شنقتم هؤلاء الرجال!). أومأ برأسه. وكما لو في حاجة عميقة تطير الكلمات بتلقائية بين قبص العُطوس:

«يلزم يكون الرجل قوي ليقوم بالنوع هذا من العمل، إذا لم يكن قوي لا يستمر. شيء يفتل الرأس، يخبل. العطوس هذا يساعدني. آخذ منه قبل وبعد. كل واحد يأخذ شيئاً خاصاً به. أنا هذا العطوس يساعدني. بعدين أشرب زجاجتين من الستاوت. أخلطها مع جن محظور. أشرب طوال ما بعد الظهر. عندما نعمل فصيل شنق لا نداوم بعد الظهر. بعض الناس لا يرغبون بذلك أما أنا فلا أبالي. إذا كان المشنوق قاتل أنا لا أشفق عليه. القاتل رجل شرير ولا معنى للشفقة عليه. الأفضل للعالم أن يقتلهم جميعاً دفعة واحدة...».

ـ يأكلون حمية خاصة، كل ما يشتهون. تماماً كالأشخاص المهمين جداً. الأوبئة المهمة جداً[1] مثلي يتخلصون منها بعد تسمينها؟

---

(1) لعب ألفاظ على «very important persons استبدل (person) بـ Pestilence) مستفيداً من أن الكلمتين تبدأن بالحرف نفسه حيث أن التعبير يختصر عادة بـ (VIP)».م.

يومئ أمبروزي برأسه ثم يلتقط المعنى ويصحح نفسه، منكراً بعنف تلميحاً كهذا «لا، لا، أنت لم ترتكب جريمة. أي شخص يمكن أني يكون سجين سياسي. يمكن أن تكون رئيس وزراء غداً». أعيده إلى عمليق الشنق... يأكلون ما يشتهون، لهم طباخون خاصون من بين الباحاتية، يزورهم الطبيب بانتظام ويغيرون مواد وجباتهم كما تهوى نفوسهم. ألعاب، هوايات، كل السخريات اللاواعية التي تلوح بالغة الأهمية في كاتالوغ الاستقامة الذاتية للنظام. السلاسل؟ لا، إنهم لا يُقيَّدون داخل باحاتهم الخاصة. فقط عندما يخرجونهم للفحص في المستوصف. أوه، عادةً يزورهم الطبيب ويعالجهم في مجمّعهم إذا اقتضى الأمر ولكن في الحقيقة هم لا يخرجون من أجل المعالجة يذهبون للمستوصف، صحيح ولكن أحياناً لا أحد يتكلف عناء النظر إليهم حتّى، إنه جزءٌ من التمرين. الخروج جيدٌ لهم على أي حال. هذا ما يحدث وهو في الواقع ببساطة....

حين يكتمل الإجراء الشرعي وتتلقى السجون تصديق الحكم بالإعدام من السلطة تبدأ ممارسة صريحة للخداع. المحكومون يعرفون السلوك. بعضهم له الآن حوالي أربع سنوات في فناء الإعدام، شهدوا هذه الحركات طوال هذه الفترة وما عادت تخدعهم. بعد الخروج الأول إلى المستوصف ما من أحد منهم يلمس طعامه. تُهجَر الألعاب، اللودو والدامة، لا أحد يقترب من المناضد، لا أحد يتكلم مع الآخر. وكلما طالت مشاركتهم في الكوميديا السوداء كلما عاشوا الموت أكثر لأن كل موعد يفوت وكل وصول لنزلاء جدد إلى فناء الإعدام يجعل منطقياً كل خروج خادع موعداً للنزلاء القدماء. قانون احتمالات بسيط. يؤخذون إلى المستوصف على دفعات تختلف دائماً. فحص طبي دوري، هكذا

يقولون لهم. ولكن حين لا يخضعون فعلاً لأي فحص ولو حتى فحص شكلي يفهمون بماذا ينذر ذلك في الحقيقة. يبقى فقط معرفة أسماء دفعة الشنق. كل يوم يمكن أن يكون الأخير. إذا أخذوك اليوم إلى المستوصف فذلك لا يعني إرجاءً طويلاً للتنفيذ. ألا يأخذوك فذلك بالطبع شيء أكثر رعباً بالنسبة للقدماء. هم يعلمون. ولكن حتى الذهاب مع (فصيل) المرضى قد يكون أسوأ. إنه يعني فقط أن اليوم ليس هو اليوم. ولكن ماذا بشأن الغد؟ إنهم لا يعرفون إلى أن يعودوا. إذا لم يُفتقد أحد عندئذ قد يتأخر الأمر أسبوعاً أو حتى شهراً. شهوراً. ربما مَرِض الجلاّد فجأةً.

حتى القانون لا يطلب من ضحيته سوى ميتة واحدة. هؤلاء يموتون، يُفرَضُ عليهم مقاساة حركة الإعدام مرات عديدة في آلية غريبة من التعذيب الشرعي والذبح القضائي.

اليوم مجموعة من تسعة، غداً أو في الأسبوع القادم مجموعة مختلفة. ربما ثلاثة أيام متتالية، موكبٌ كل يوم. دائماً يخلّف وراءهُ البعض. يقول إمبروزي: إنهم لم يكونوا أحد عشر في كل مرة، وأن العدد كان يختلف كل يوم، يختلف بين تسعة واثني عشر ربما. اعتقدت أنني أحصيت أحد عشر كل مرة حتى هذا الصباح. في اليوم المحدد يتركون المحكومين في زنازينهم التي تبقى مغلقة. بعد أن تغادر المجموعة (المريضة) يدخل فصيل الشنق، عنصران لكل رجل يكبّلان يديه وراء ظهره. البعض يصارع بعنف ثم يُخضَع. البعض ينهار ويُحملُ إلى المشانق شبه فاقد الوعي. خذ مثلاً بوليفيموس....

ما تكشَّف أمام عيني لم يدهشني. نال بوليفيموس ترقيته الأولى كمجالِد في خدمة الدولة بعد أن قتل في منازلة واحدة أحد المحكومين الذين رفضوا الذهاب إلى المشنقة. مشهد

ضراوة بدائية، طقسية بجزءَ، وبجزء آخر ارتجال قروسطي. أحد الرجال رمى تحديه في وجه الموت وطالب بحقه في محاكمة جديدة بالمنازلة. بوليفيموس أخذ التحدي على عاتقه نيابة عن الدولة والموت.

برناديني ينتظر في زنزانته في فناء إعدام إينوغو. سلَّح نفسه ضد الموت بغطاء صندوق القمامة كترس ونبّوت قاتل مرصَّع بالمعدن مصنوع بشكل ما دونما اكتشاف. فصيل الإعدام الذي لا يخامره الشك لاذ بالفرار حين واجه الظهور الشيطاني وقد جُنَّ وراح يشتم. المتحدي يمترس نفسه وينتظر. لم يجرؤ أحد على الاقتراب. بوليفيموس مجرد خفير صغير وبما أنه أمّي فمن المرجَّح أن يبقى هكذا معظم حياته. لكن المطلوب الآن ليس القراءة والكتابة، المطلوب هو مصدر قوته الأكثر إثارة للإعجاب: جسده. يستدعيه المدير الأبيض فيثبت أنه متطوّع مريد، يسلّح نفسه بطريقة مشابهة بترسٍ وسلاح ويقترب. العناصر يهدمون المتاريس وينسحبون. يقترب بوليفيموس من خصمه، مجالدان في صراع موت، بطل القانون والخارج عن القانون في صراع حياة أو موت. لا أحد يتدخل، لا أحد يستطيع، هكذا هي القواعد. الاستقلالية الطقوسية للمواجهة. ليس حتى المدير الأبيض الذي يرفرف بالجناحين وفي يده مسدس خدمة مهيأ بقلق كي يطلق رصاصةً غير عادلة إذا اقتضى الأمر دفاعاً عن الدولة.

بوليفيموس يكسب، يقتل خصمه بالخنق اليدوي. ولكن بيرناديني على الأقل خدع الحبل فعلاً، الفضل يعود إلى بوليفيموس.

لكنهم في العادة لا يقاومون.

نمسكهم من الذراع، هكذا، ونكبّل أيديهم وراء ظهورهم، لا، لا نقيّد أرجهلم بالسلاسل هذه المرّة، فقط نكبّل اليدين. ثم يأتي المدير. يقرأ لكل رجل حِكمه ويخبرهم أن اليوم هو اليوم المحدد. ثم يأتي قسّ ويتكلم إليهم. أو إمام إذا كان المحكوم مسلماً. يقولون، جهّز نفسك أنت قتلت نفساً بيديك، والآن يقول المجتمع إن عليك أن تدفع حياتك الخاصة لقاء تلك الحياة. ننطلق من فناء الشنق. وهو تماماً إلى جوار فنائهم غير أنهم لا يعلمون ذلك. كما ترى، بقية السجناء يكونون بعيدين عندما نقتاد أولئك الذين جاء يومهم. لا يعرفون أبداً أي طريق نسلك. قبل أن يبنى فناء الشنق في المكان الجديد كانوا يقطعون مسافة أطول. وبعد ذلك، كانت الجثث تُدخل إلى المجمع وتُخرج من البوابة الرئيسية. أحياناً كان يتجمّع الأقارب يبحثون عن جثّة قريبهم، وغالباً ما يكونون أقارب الرجل المقتول. لعلمك، قليل من الأقارب كان يأتي ويطالب بجسد أي رجل مشنوق بجريمة قتل. كان شيئاً معيباً للغاية، ولكن أحياناً يأتي أقارب الرجل المقتول، ولذلك كان يخرج المدير ويقول: أنتم ترون هنا جثة الرجل الذي قتل قريبكم. الدولة اقتصّت لكم، حياة مقابل حياة، فلينته بهذا الموت كلَ لغوٍ.

كان هذا منذ سنوات. الآن، بالطبع، يوجد مدخل خاص ينقلون من خلاله الأجساد بالشاحنات. لا، لا تُنصب المشنقة حتى صبيحة يوم تنفيذ الشنق، لذلك يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، أحياناً حتى ثلاث ساعات قبل أن نصبح مستعدين للمدانين. دورنا أن نكون مساعدين للجلاد. نقودهم إلى المنصّة ثم يتولى أمرهم الجلاد. المنصّة تستوعب اثنين في الوقت الواحد. عندما يوضع الأول في مكانه وتسوّى الأنشوطة حول عنقه، نجهّز الثاني.

يشنقان في الوقت نفسه عندما يسحب الجلاد المقبض. يفلت الباب الأفقي ويسقطان معاً عبره. الرقبة تنكسر، تنكسر فوراً، ولكن يجب أن يبقيا معلقين هناك مدّة نصف ساعة. هكذا يقول القانون، الجلاّد لا ينتظر بجوار المشنقة. نحن ننتظر. توجد غرفة استراحة قريبة من أجله، يذهب إليها مع مساعده. وهناك يشرب الستاوت وينتظر، الطبيب أيضاً يذهب إلى هناك والضابط المتقدّم. لا، لا يشربان. لعلمك عرفت أحد الأطباء كان يستخدم زجاجة جيب على الملأ. ما من أحد يقف في وجهه. على ماذا؟ هل تعتقد أن المرء يعبر يوماً كهذا دون شيء ما خاص في جوفه؟ يمكننا أن نتناول شيئاً ما نحن أيضاً ولكن علينا أن ننتظر بجوار الأجساد. يسرقون الأجساد؟ لا، ليس لهذا السبب ننتظر هناك.

هناك لا أحد يستطيع سرقة الأجساد. نحن ننتظر هناك كي نحرس المحكومين الذين ينتظرون دورهم. بالطبع هم يشاهدون ما يحدث. لا يمكن ألا يشاهدوا. أجل، يشاهدون أول المشنوقين، إنه درس جيد لهم. في إحدى المرّات شنقنا أحد عشر في اليوم نفسه. أجل صحيح، مجرمو الأبالارا. شنقناهم هنا في كادونا. جميعهم في يوم واحد. لا، الجلاّد لا ينزل الأجساد. نحن نقوم بذلك. حين تنتهي الثلاثون دقيقة نصعد المنصّة ونحل الحبل. ننزلهم في نعوش خشبية، ثم يأتي الطبيب ويُجري جرحاً صغيراً في قفا الرقبة تماماً حيث يتصل الرأس بالرقبة. يستخرج شيئاً ما ويضعه في زجاجة ويكتب اسم المدان على الزجاجة ثم يضعها في جيبه. ما الذي يستخرج؟ هذا ما كنت دائماً أود معرفته. البعض من شعبنا يقول إنه الشيء الذي يحتوي حياة الرجل. صحيح هذا الكلام؟

كادونا 69

29

هذا الصباح توصلت إلى اكتشاف غريب: أنا حامل.

منذ زمن طويل وأنا أنظر إلى الدليل وأتساءل كيف حل هـذا. فقد كان ثمة نتوء بحجم البيضة، نتوء مكوَّر ومـشدود ونـاتئ علـى زنّار خصري.

يجب ألا يحدث لي ذلك مطلقاً نظراً إلى كوني ذكـراً. بـالطبع أعرف أن هناك أشياء غريبة تحدث. تغيّر الجنس قـد يتـسلل بـبطء إلى الرجل على نحو غـير ملحـوظ في هـذا الجـو اللاجنسي. أولاً خمـود المورثـات الذكريـة ومـن ثم التعـايش الخنثـوي. صـراع هرمونات والبقـاء للأضـعف. أم أنهـا الأقـوى؟ مـن المفتـرض أن المورثات الأنثوية أقوى أو قـد تكـون فقـط أسـرع في الـسباق إلى الرحم؟ شيء مـن هـذا القبيـل. علـى كـل حـال ليـست هـذه هـي المسألة، فبعد كل شيء، لقد عشت حياة رهبنة صارمة لمدة تزيـد عن السنة.

هل يمكن أن يكون داء كواشيوركور[1]؟

لا. سبق أن رأيت صوراً من الكواشـيوركور، يقطينـة ضـخمة تبدأ من منطقة أسفل الصدر وتـنـتفخ بـاطّراد إلى الأمـام ثم دخـول حاد باتجاه الصَفَن. حَمْلي يبدأ تحت السرّة تماماً، قاسٍ كـالحجر، صغير مشدود إلى بعضه البعض. إنه يبدو حقاً كما لو أنـني أفـرزت

---

(1) نقص تغذية حاد لدى الأطفال سببه حمية عالية الكربـوهيردات وضـعيفة البروتينات. م.

بيضة كبيرة تحت الجلد مباشرة. والمفارقة أن بقية جسدي جلدٌ على عظم، فهذا الأسبوع هو أسبوعي الخامس في الدورة الجديدة من الصيام. وقد تغلّبت على الضعف والهلوسات، الآن ليس ثمة توتر في الذهن أو الجسد. جسدي يتضاءل ولكن دون خسارة في القوة. ذهني يتمدد ولكن دون خسارة في الوضوح. حتى أنني استعدت القسم الأكبر من مزاجي المرح الضائع.

أصمّم أن أتمشى وأتفكّر بالظاهرة الغريبة في جسدي. حركة الانتصاب بحد ذاتها حلّت المسألة فوراً. حيث ضبطتُ نفسي أنفخ بطني وأنا أنتصب، نفخته أوتوماتيكياً كي أملأ الفجوة الكبيرة في بنطالي. كلما طال صيامي كلما اتسعت بالطبع الفجوة وجهد بطني السفلي لملئها. يبدو أنني بنيت في تلك الشهور ما يمكن اعتباره، بالتناسب مع الجسد، أضخم عضلات بطن في العالم. ضحكي الصاخب يجلب السجّان الذي أتى مترهلاً ليستطلع الأمر. شعرت بالرغبة في أن أدعوه ليجسّ هذه العضلات الشاذة. فوق هذه العضلات كل ضلع ينتأ إلى الخارج بوضوح. أضلاع آدم قبل أن يكسيها اللحم. لوحا الكتف والعنق عندي بارزة بوضوح شديد حتى أنه إذا دهنت وضغطت على سطح مستو يمكن الحصول على صورة توضيحية لكتب التشريح. ومع ذلك، تحت السرّة مباشرة نتأت حشوة من عضلات مفرطة وافرة وجاهزة للدخول في أي سباق عالمي للبطون.

لماذا أصوم؟ من الضروري وأنا أتقدّم نحو المواجهة التي يجب ألا أستسلم فيها، أن يكون ذهني صافياً. فالسبب أبعد من الرسائل التي كتبتها في مستهلّ هذه المبارزة الجديدة. في هذه الرسائل الموجهة إلى سجانيّ طالبت بكتب ومواد كتابة وألبسة

بدلاً من هذه الأسمال التي على جسدي وطالبت أيضاً بإنهاء حالة العزلة اللاإنسانية التي أنا فيها.

آذار. 1969. ثمانية عشر شهراً في الاعتقال حتى الآن. خمسة عشر منها هنا في كادونا، في الانفرادي. في كانون الثاني من السنة الماضية تم التوقيع على أمر إخلاء سبيلي. أعرف ذلك لأن الملازم (د)، محققي في لاغوس، جاء لرؤيتي.

كان لقاء غريباً، هذا أمر طبيعي، في البداية لم أصدّق عيني. جاء على ما أذكر في النصف الثاني من كانون الثاني برفقة المشرف الأول (المدير الجديد) وبوليفيموس «جلبت أحد الأشخاص يريد رؤيتك» قال. دخل الزائر إلى الصورة، إنه الملازم (د) «كيفك؟ كنت في طريقي إلى كانو، عيّنوني هناك. ولكن كان عندي بعض الالتزامات هنا فقلت لنفسي يجب ألا أغادر الفناء قبل أن أقول لك مرحباً».

لا أذكر جوابي غير أنه كان جواباً ودّياً.

«الأوضاع الآن أفضل بصورة عامة... أعتقد أنك ستكتشف ذلك بنفسك قريباً جداً. في الواقع أنا هنا كي أقابل الموقوفين. أفرجنا عن البعض منهم أمس وسأفرج عن المزيد منهم اليوم. خرجت الأمور من يدنا أنت تعرف ذلك بنفسك... غصّت السجون بالمعتقلين وهناك أناس أبرياء يهترئون لقاء ذنب لم يرتكبوه. على كل حال لا بأس، انظر /وولي/ حاول أن تنسى الأمر برمته عندما تخرج، ممكن؟ اعتبر أنه واحد من الأشياء التي تقع في وقت الحرب».

لم أشأ أن أصدّق ما استطعت أن أتبنّيه بوضوح وراء كلماته. ولا التأكيد الذي استطعت أن أقرأه واضحاً في وجه المشرف الأول الذي

ملأته ابتسامة ابتهاج محض. حتى بوليفيموس كان يشعّ من كل انش في بدنه. قلت (هناك أشياء يجب نسيانها. ولكن لا يمكنك أن تتوقع مني أن أغفر أو أنسى حقيقة أني كنت ضحية مكيدة).

ـ «أنا لا أطلب ذلك...» وأضاف المشرف الأول بتوتر شديد «لا، لا، بالطبع لا. لا أحد يطلب ذلك. إنه ليس بالأمر اليسير».

فجأة ساورني الشك حول (د). لم أتوقع منه جواباً ولكن كان يمكنني على الأقل أن أدرس وجهه. سألت (د) هل لديك علم لماذا دُبرت لي المكيدة.

كان لدى (د) الفضيلة الأندر عند رجل البوليس. من الممكن له أن يرتبك على نحو مرئي ودون تقنُّع. أن يكشف مشاعراً كأي كائن بشري عادي وخصوصاً تلك المشاعر التي تنبثق من قلق أخلاقي. لو كان أبيض لاحمرَّ من الارتباك. انفجر فجأةً في هجوم مضاد «ولكن لماذا حاولت الهرب؟ أنت لا تعلم مدى مرارتنا آنئذٍ ومدى قنوطنا».

نظرت إليه جدياً. كان يؤمن بما قال. لكنني تخطّيت منذ زمن بعيد مرحلة الرغبة في دحض ذاك التلفيق. لم يعد بوسعي القبول بأخلاق القامع. أجبت «لنفترض أن ذلك صحيح. كان لي الحق الأخلاقي في أن أقوم بأي فعل أستطيع ضد نظام منحط أخلاقياً إلى درجة تدبير المكيدة لرجل بريء. إذا كان الهرب ممكناً فإنه سيكون عندئذٍ واجب. الآن أجبني: هل تعلم لماذا دُبِّرت لي المكيدة؟».

قال: «كانت تسير الأمور على خير ما يرام، كنا نعتقد أن كل شيء مضبوط، عندئذ تدخل السياسيون في الأمر».

«السياسيون؟»

«أوه، وولي، أنت لا تعلم ما يتوجب علينا احتماله. أنا سعيد إنني أخرج من لاغوس. وعلى الأقل أستطيع، قبل أن أذهب، إيقاف بعض الأشياء الخاطئة الجارية حتى الآن. لو تعلم كم أفرجنا عن معتقلين مؤخراً، في لاغوس وسجون أخرى. الآن فقط أتيح لنا الوقت كي ننظر في كل هذه القضايا. أقصد المئات المئات. معظمهم هنا لسببٍ لا أحد يعلمه، ليس لهم ملفات أو أي شيء، احتجزوا دونما سببٍ على الإطلاق لا أحد يعلم عنهم شيئاً سواء في قسم البوليس أو في الجيش. انظر، دعنا نترك هذا الأمر... فقط حاول أن تنسى كل شيء».

«لا بأس».

«استتبَّ الوضع الآن. سوف ترى ذلك بنفسك، لكن حاول أن تنسى رجاءً».

غادروا. بقيت حيث أنا. الزيارة، كلماته، سلوك موظفي السجن ذيْنك... شعرت أنني كنت غير نزيه، لم أكن فقط مبالغاً في الحذر، بل ببساطة كنت غير نزيه لأنني رفضت قبول المعنى الجلّي للموضوع كله.

أقفل الحارس البوابة وراءه وجاء نحوي دون تحفظ: «بالفعل. يفرجون عن حوالي أربعين شخصاً من هنا البارحة. وذلك الرجل ورجلٌ آخر من الأمن في كادونا هنا، يجلسون على مكتب المدير وينظرون في ملف كل معتقل. الحقيقة، أنا فقط لم أشأ إخبارك من قبل. الأمين نفسه قال لنا هذا الصباح إن ورقتك أنت ستأتي. سوف ترى قبل يومين أو ثلاثة».

تلك هي المسألة. بكلمات واضحة: الحرية.

من تلك الأزمات المبكرة تعلّمت أن أضع حداً لنبضي. أحسست أن تسارع الإثارة على وشك البدء فجمّدته إلى وضعه العادي. الزمْ الهدوء. امحُ ظهور هذا الصباح. بالكامل.

لكنَّ المشرف الأول عاد. تطور لدي إحساس عميق تجاه هذا الرجل الذي سمح لسعادته من أجل شخص آخر أن تملا كيانه دون وجل. كان يمسك في يده صحيفة اليوم.

«هذه ستخفف عنك عبء الانتظار»، وقف لبعض الوقت ثم غدا رزيناً «سيد سوينكا، كل ما أودّ قوله هو سامحنا أرجوك. أجل حتى نحن مسؤولي السجن. سامحنا على أي شيء عملناه أو فشلنا في عمله لأنّ دورنا في حجزك هنا أمرٌ خارجٌ عن إرادتنا» ترقرقت عيناه.

«هل تعلم ـ بإمكانك أن تسأل الأمين فهو الإنسان الوحيد الذي أبوح له، أثق به. قد يكون أمياً لكنه رجل حكيم. أنا أناقش معه الأمور عندما لا أفهمها. وقد قلت له هذا بُعيد تسلّمي هنا. كل ما كنت أعرفه عنك هو ما قرأته في الصحف وتقارير من هيئة أركاننا. ولكن بعد مراقبتي لك لبضعة أشهر قلت للأمين: أنا واثق أن هذا الرجل بريء. اسأله قبل أن تغادرنا وسوف يقول لك إن هذا الكلام صحيح. أنت تذكر أنني جئت بنفسي لأسألك عن قصتك بعد حوالي شهرين من تولْي المنصب هنا؟ ذاك كان بعد يوم واحد من اقتناعي أنك بريء. أعتقد أنني قلت لك وقتها إنني أصدّق كلامك» لم أكن قد قلت له شيئاً من القضايا التحتية، فقط وقائع تحقيقي «في هذه الوظيفة يتعلم المرء أن يدرس الكائنات البشرية، ليس فقط المجرمين. كل السياسيين الذين اعتقلوا خلال أزمة جماعة العمل من بينهم أوولود نفسه مرّوا تحت يدي في

وقت أو آخر. استطعتُ أن أدرس المخلصين منهم والانتهازيين وأولئك الذين كان يحركهم حبّ المغامرة والإثارة التي تنطوي عليها السياسة وما إلى ذلك. يتعلم المرء شيئاً ما عن الطبيعة البشرية. بصراحة كنت على قناعة أنك لم تقدم تلك الإفادة أبداً. ولهذا السبب جئت وسألتك. ولكن أنت تعلم، شعرت أن هناك خللاً عميقاً في مكان ما. لم أصدّق أن أي كائن بشري يشغل منصباً بمسؤولية عالمية يمكن أن يزوّر عن عمد اعترافاً ملفقاً. عليّ أن أعترف بذلك. شعرتُ أن الأمر مجرد خطأ حتى الآن». واصل «لو لم أسمع من ملازم (د) مباشرة...» توقف فجأة «يجب أن أعود إلى المكتب هل تريد شيئاً؟ أظن أن من الأفضل أن نرسل لك حلاقاً. شعرك... هل قصصت شعرك منذ جئت إلى هنا؟».

أشرت برأسي ألا. «شمشون خسر قوته بتلك الطريقة»، ضحك «هل تريد حلاقاً؟ شعرك دغل حقيقي يا سيد سوينكا».

قلت «لا بأس أرسله». ما شغل ذهني في تلك اللحظة، للغرابة، لم يكن شعري بل وجهي. لم أكن قد نظرت إلى وجهي في مرآة منذ حوالي سنة والالتماعة التي جاءت مع ذلك الحلاّق كانت: شخصٌ بلباس من السجن يقصّ شعر سجين آخر وذاك السجين يراقب عمل الحلاق في مرآة. قد يكون هذا أحد آخر المشاهد التي لاحظتها قبل دخولي إلى السرداب. غمرني فضولٌ مفاجئ لرؤية وجهي.

«سأجعل الأمين يجلب لك أحد الحلاقين حالاً. وملابسك؟».

«يجب أن يكون في المستودع بنطلون احتياط».

«سأرى إن كان نظيفاً، وإن لم يكن سأجعلهم يغسلونه في أسرع وقت، سأخرج لك بعض المجلات القديمة أيضاً».

غادر وسرعان ما جاء الأمين. ارتفاع سبعة أقدام من ابتسامات عريضة وغمزات دالة وتلميحات أكثر وضوحاً. لم ينفك يكرر «أحياناً يبدو كما لو أن الزمن لا ينتهي مطلقاً. ولكن يأتي يوم هو اليوم الذي يسمع الله فيه كل الصلوات. ألا توافقني؟».

أومأ الحلاق برأسه وهو يقوم بكل استعداداته. وضع بوليفيموس الكرسي في إحدى الزوايا ثم في الزاوية الأخرى سائلاً «هل الشمس حادة جداً هنا؟ لا، أعتقد أن المكان هنا أفضل» غادر أخيراً «أجل، أليس كذلك. فجأةً يأتي يوم هو اليوم المنتظر».

جلست على الكرسي، شعرت القماش الأبيض يمرّ تحت ذقني ويُربَطُ على قفا رقبتي. أمسكت المرآة وقلبتها ببطء ونظرت إلى وجهي.

الشعر كان لا يصدّق. كنت هيأت نفسي له. لكنه مع ذلك فاجأني كان طويلاً وكثّاً واندهشت كيف كان المشط يتخلله طوال هذا الوقت. تناولت المشط من الحلاق وقلت «الأفضل لك أن تدعني أمشّطِه لك».

ولكن حتى وأنا أمشّطه كنت أنظر إلى وجهي. عيناي لفتتا انتباهي، فقد رأيت فيهما ما هُمِس في ذهني منذ التلميح الأول بالإفراج عني. شُكوك. أعمق من الشكوك. لم ينتهِ الأمر، ليس بعد. والمرحلة القادمة ستكون أصعب بسبب هذا الأمل الزائف.

أضع المرآة وأفك القماش من حول رقبتي.

«سأترك شعري كما هو» قلت.

عدت إلى زنزانتي، تسطّحتُ على سريري سائلاً: «لماذا؟ مجرد احتساب؟ لا، أعمق. لم أستطع تقدير ذلك، ما من أحد يستطيع أبداً، لكن كنت أعلم أنني لن أغادر السجن في عيد الميلاد ذاك.

(كان من السهل توقع ظرف الإفراج عني ـ عفو انتقائي بمناسبة عيد الميلاد).

مع ذلك كان جزءٌ من ذهني ينشغل بمعنى إنساني تماماً بالطريق الآخر. إذا أفرجوا عني ماذا سأقول أو أفعل؟ مهما فعلت كنت أعلم أنه يجب أن أحتقر حماقة عيد الميلاد. خطرت لي عبارة بتلقائية وسمعت نفسي أصرخ بغضب حقيقي «آمل أن تكون هذه آخر مرة يحاول فيها أي كان أن يلعب دور بابا نويل مع العدالة». هذا جعلني أكثر هدوء. بعد ذلك أوصدتُ جانب الوظيفة التفاؤلية في ذهني وشغلت نفسي بالتفكير كيف سأبقى في عزلٍ مستمر بعد هذا النزيز المؤلم من الضوء.

جاءني أمين المستودع. أجل، هذا هو بنطالي. قمصان؟ تلك التي تراها معلقة هناك. أجل كل العدد. اغسْلها أو ارمها لا يهمني.

كان السرداب مليئاً بالتنبيه الزائف. الباحاتي الذي جلب طعامي نظر إلي كأنه ينظر إلى رجل مفارق سلفاً، كائن مسَّه ووسمه صولجان إلهه المفضل. تبعه الخفير كالعادة ولكنه هذه المرة لم يكن محترساً من الاتصالات الخفية كما لو بدافع رغبةٍ منه لتقديس القضاء والقدر والصبر والعدالة والشجاعة إضافة إلى عدد من مفردات ورعه الغائم. حاولت الأكل بعد أن ذهب غير أنني فقدت شهيتي، كانت هواجسي تزداد صلابة في كل ثانية.

نهاية نوبة الصباح. اندفع إلى الفناء عنصران كانا يأتيان أحياناً للمناوبة في السرداب «أنا غير مناوب في الغد يا أستاذ. قلتُ آتي وأقول لك وداعاً فقد لا أراك عندما أعود» الثاني «كلنا سنسعد جداً يا أستاذ. الله موجود. الله يرى كل شيء». عناصر سابقون اختفوا منذ زمن جاؤوا أيضاً. خدموا هنا أسبوعين ثلاثة أو أحياناً أربعة أسابيع أو أشهر ثم اختفوا. اعتقدت سابقاً أن التغيرات المتكررة كانت مجرد احتياط أمني. الآن اندفعوا جميعهم إلى السرداب بسرعة ليصافحوني قائلين «هل تعلم لماذا لا ترانا؟، نحن لا نحب هذا المكان على الإطلاق. يقعد الرجل هنا ثمان وأربعين ساعة في النوبة لا يقوم بأي عمل. في السجون الأخرى. نتحدث ونلعب ولكن هنا كأننا في حجز انفرادي لذلك كلنا نطلب نقلنا إلى المجموعة الخارجية».

ذهبوا. لدى انتهاء نوبة الصباح تحلّ ساعة هدوء ما بعد الظهر. السجناء يلزمون زنازينهم. إنها ساعة ساكنة جداً ومسالمة. أترك نفسي تنجرف في الصمت، تطيله أسابيع وشهور. فقط لو أنني أنتقل إلى مكان آخر! مكان جديد، روائح جديدة، مشاهد، محيط جديد أحلّيه في ألعاب ظلال البقاء. أجل، ربما يجب على المرء أن يستهدف ذلك. في النزهة الوجيزة نحو مستقبلي في السرداب وقعت على امتداد من الألم لا يشفى، انتشارٌ فطري رمادي. كانت المهدّئات، هي في ذاتها، بالنسبة له تظاهرات من ذاك المرض. ليس ثمة إنعتاقٌ من السأم الشنيع، لا جديد يمكنه أن يفصل الذهن عن التأمل في هذه الهوّة. شهوري الإثنا عشرة الأولى استهلكت أكثر من الإبداعية العادية لذهنٍ لم يتلقَ أي استزادة من مصادر أخرى.

بوليفيموس كان أولمن ظهر مرتبكاً. مرَّ عليَّ أثناء التفتيش المسائي، باللباس المدني، واثقاً من أنني لا بد خرجت. كان ذلك عشية عيد الميلاد. كان متأكداً أنني أقضي عيد الميلاد في بيتي. تخيّل أنني غادرت بنفس الطريقة التي جئت بها في طيارة خاصة تحط على المرجة الأمامية الخاصة بمنزلي في عشية عيد الميلاد تماماً. في الصباح جاء ليقول وداعاً ويتمنى لي الخير. الآن يوشك الظلام أن يهبط وسمعته على البوابة، ارتبك حين رأى أن هناك حارساً لا يزال في السرداب والموقوف لا يزال ينتظر.

حكَّ ذقنه بشيء من الغضب «على كل حال لا يهمك. لم ينقض يوم الميلاد بعد ستصل البيت غداً. هذا شيء أعرفه ومتأكد منه. أرجوك لا تقلق أبداً أبداً وقت قليل وتكون في بيتك. ستخرج. أنا لا أفهم هذا الهراء الأحمق، جماعة البوليس! إنهم لا ينفعون لشيء».

يوم الميلاد لم يأتِ أحد سوى الحارس المناوب. الحيرة نفسها على كل وجه. بدايات الشك. المواساة. أنا منذ زمن بعيد كان قد انطفأ أملي.

السابع والعشرون والثامن والعشرون، عيد الإهداء. ابتدأت الكآبة تتلاشى من العناصر الذين أصبح الموضوع بالنسبة لهم أمراً شخصياً. مع اقتراب نهاية السنة ابتدأت شجاعتهم ترتفع. لا بد أن الإفراج خُطّط له أن يكون عفو رأس السنة بعد كل شيء «ليلة رأس السنة. لن تقضيها في كادونا».

ظهر المشرف الأول من جديد في التاسع عشر من الشهر «كانون الأول». خائب. «كل ما أعرفه أن الأوامر بالإفراج عنك قد وثقت. رجال الأمن أولئك أخبروني بأنفسهم. أنت نفسك سمعت الملازم (د). ألم تسمعه؟» صوته كان يطلب تبرئة ساحة. قلت «أجل سمعته».

«أرسلوا رجلين من لاغوس بالأمس. سمعت أن هناك مشكلة حول كيف يعيدونك إلى لاغوس. أظن أنهم لم يستطيعوا تأمين طائرة أو شيئاً ما. أيّاً يكن فليفرجوا عنك، وأنت تستطيع، بعد كل شيء، العودة بنفسك. كان من المفترض أن تكون الآن حراً».

جاء دوري كي أواسيه «كلما طال الأمر يصبح الإفراج أحلى في النهاية. لا تقلق سوف أخرج يوماً ما».

«ليس يوماً ما بل ليلة رأس السنة. لن تقضيها هنا أنا متأكد. ومع ذلك أرى أن الأمر مزعجٌ للغاية». وفجأةً ارتفع صوته بالاحتجاج «نريدك أن تخرج يا سيد سوينكا. صدّقني نريدك حراً بأسرع مما تريد لنفسك حتى. لا تسيء فهمي، نحن نحبّك. ليتنا تقابلنا تحت ظروف مختلفة وآمل بالتأكيد أن نلتقي ثانية. من غير المريح على الإطلاق بالنسبة لأي ضابط سجن أن يكون في عهدته شخص مثلك. لم أتلقَ هذا العدد من المذكرات بشأن أي رجل آخر طوال فترة خدمتي. مذكرة من رئاسة الأركان، مذكرة من البوليس. جواسيس سريون. منهم جميعاً. شائعات. اتهامات. أنت ببساطة لا علم لك كيف هو الحال. أنا لا أستطيع أن أعمل أي شيء، لا أستطيع أن أقدم لك حتى صحناً جديداً دون مكاتبة رئاسة الأركان أولاً. وبالطبع لا أتلقى رداً. ولكن إذا فعلت ذلك فإنهم يعلمون بشكل من الأشكال وأقع في مشكلة سين وجيم. صدقني، ذات مرة فكرت حتى بالتقاعد أو بطلب النقل. كان التوتر حاداً للغاية. عندما تغادر من هنا نعود إلى الروتين العادي. الروتين العادي! لو تعلم فقط كم أتمناك أن تخرج من هنا...».

وجاءت عشية رأس السنة. رغم أني سكَّرتُ كل المنافذ لأمنع أي تسرب من الأمل إلى قلبي. فقد ضبطت نفسي متلبساً بالإصغاء إلى

وقع الأقدام وتفسير فتح بوابة على بعد فناءات عديدة، متوفزاً عبثاً لسماع أي صوت من الضابط البعيد، أو من البوابات الرئيسية للسجن.

عندما انتهى كل شيء، عندما انقضت فترة العفو أخيراً ونهائياً، كنت أشعر بالامتنان لانقطاع الصلة بهؤلاء الأشخاص المعاد شحنهم مجدداً. فقط بوليفيموس كان يأتي عَرَضاً. كنت أستطيع سماعهُ على البوابة «كل شيء ماشي؟» ويتلقى الجواب المألوف «كل شيء ماشي سيدي». مرةً استجمع ما يكفي من الشجاعة وأقترب من الزنزانة تدفعه باعتقادي، حاجته كي يرى كيف تلقيت الوضع، تقدم كما لو أنه مربوط إلى شيء ما خارج مدخل الزنزانة تماماً، قام بتفتيش ضاجّ للموضوع. في طريق رجعته بدا أنه صمّم أن يتكلّم إلي. كنت أستلقي ساكناً أنظر إلى الناموسية. تردّد، تعثّر وهرب.

بعد الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى توقفت الصحف أيضاً. مرة أخرى أغلق العالم الخارجي عني. لم يتبقَ أمامي سوى الامتداد الطويل من الأيام. لا معالم يمكنني تصورها. بالرغم من أنني ذكَرت نفسي مراراً بدقة حدسي وبالرغم من التهيؤ الذي قدمه هذا لي، كان هناك لا يزال بقيَّةٌ من أمل محطم كاف لتوليد الجزع.

أنا مهيأ ضدَ كمْ من الوقت؟ سنة؟ وكلها في الانفرادي؟

ليس تحت الشروط السابقة نفسها. أنا بحاجة إلى ملابس وانشغال وأشياء! يجب أن أنال أبسط حاجات الكائن البشري! مرّ السجان بالجوار فصرخت بأعلى صوتي.

هذا خطأ. المسألة ليست ما إذا كنت أستطيع أن أحتمل فقدان الشيء أم لا. المسألة هي: هل عليَّ احتماله؟ إذا كانت حاجة

طفيفة، حاجة تعطى للمجرمين المدانين، إذن أن ينكروا عليّ وسائل استخدام ذهني يعني أنهم يخضعونني للتعذيب. أن يطعموا جسدي وينكروا ذلك على ذهني هذا يعني أنهم يدفعونني عن سابق إصرار نحو الحيوانية. قبولي بذلك دون تذمر هو شكل من الخنوع. أن أقبل استمرار ذلك يعني أن أقبل مخاطر بلوغ نهاية لا أستطيع حتى التنبؤ بها. أنا بحاجة إلى أن أتبادل الأفكار ليس مع نفسي فقط بل ضمن مجتمع من العقول الأخرى. لا أستطيع أن أدور إلى ما لا نهاية في إفرازات عقلي وحدي. ذلك شرّ. هؤلاء الأشرار يحمّلون عقلي ما لا يحتمله بشر. يجب أن أضع حداً لهذا التوافق الذاتي، يجب أن أكسر السجن العقلي الذي صندقوني فيه. طلبت قلماً وورقة وكتبت رسالة تتضمن مطالبي الأولى إلى مصلحة السجون. كتبت ثانية أطالب بكتب ومواد كتابة وملابس ومعالجة طبية وخصوصاً لعينيّ، وطالبت بإنهاء عزلتي أو نقلي إلى سجن آخر، المطلب الأخير أصبح حاسماً في تفكيري لسبب آخر أيضاً. بعد انهيار آمالي بالحرية علمت أنني بتُّ الآن مغلّفاً في حمأة من التعاطف ستنتهي بتدميري في حين كنت من قبل محاطاً بمزيجٍ من الخوف والعداوة والشك الشيء الذي يشكل شرطاً ممتازاً لتقوية إرادة المقاومة. رأيت إرادتي تضعف، لمست قبولي المضطرد بمصيري، وجدتني أتشرنق في هذه الشرنقة الخانقة والعقيمة من التعاطف والشفقة. شفقةٌ لا حول لها ولا قوة، رجالٌ طيبون لا حول ولا قوة لهم. غير قادرين على إصلاح شيء. لا شيء أكثر تدميراً. أردت عيوناً من الكره والخوف تحيطني كي تبقيني في حالة حذر دائم. إذا كان علي أن أختار المضيّ في استكشافاتي عن النفس، والجأ مرة تلو الأخرى في منطقة الإنعتاق المريحة، وعائداً أسأل وقائع الألم والسلطة الزمنية حتى، كان من

الضروري أن أواجه دليلاً صلباً يُرحّب بعودتي إلى الأرض، كشرخ القسوة الحيوانية في عيون الأيدي المأجورة، أو سرعة ذهنهم في ابتكاريتهم اللاإنسانية. أولئك الذين حولي تحولوا إلى مجرد ركام مملوء بالشعور بالذنب، يبتغون تلطيف محنتي بأي حركة أو حتى بأي مساعدة مادية تقع في مجال سلطتهم ولكن كلمة السر كانت: السلطة. وما يقع منها في فضاء عطفهم قليل. التعاطف بديل فقير، قادرٌ في المطاف الأخير أن يحتّ الإرادة.

مضى شهر على الأقل قبل أن يصلني الرد. لم يرينيه المدير بل اقتطف عبارة منه. العبارة صعقته، هو أيضاً. كان هذا بادياً، لكنه لم يكن يدري تماماً سبب ذلك. كانت النبرة مزدرية ومازحة. قلت في نفسي ما طبيعة هؤلاء البشر؟ كيف تم صنعهم؟ لم يكن حتى صوت الجلاد. كان صوت الجلاد بالنيابة، موظف صغير حسود تأتي شرعيته كرجل من سلطة يمارسها على استمارات وملفات خاملة. نبرةٌ مشينة وضيعة وخالية تماماً من الإنسانية إلى حد أنها ولّدت تصوراً في ذهني: شاب، في عمري تقريباً، له وجه يميل إلى النحف، شعره يتراجع قليلاً على الصدغين، بشرته قاتمة جداً، أصابعه طويلة تنتهي بأظافر مقلّمة بإحكام. انطفأت الالتماعة غير أني واصلت رسم الصورة وهو يمسك احتجاجي بإحدى يديه ويضحك خفيضاً برضى ذاتي. وجدته يندفع طيّعاً إلى رئيسه ممسكاً به وهو يحدّق إليه بإعجاب، سمعته يقول: «أظن أن الدواء ابتدأ يأخذ مفعوله معه يا سيدي». يربت سيده على ظهره ويغادره مجيباً بعبارة مناسبة.

أيضاً كان هناك شيء ما زائد. شيء لا لزوم له البتة وغير مبرر في تلك النبرة. كان ثمة مرح لم يتعدَّ فقط حدود اللباقة بل بدا أنه

دونما سبب يحرّضه. أولاً لم أتمكن من فهم كلمة (يتوق) أقصد أنني لم أفهم حق سجانيَّ في استخدام هذه الكلمة. لقد غَدَتْ وسواساً صغيراً من نوع وسواس (إذلال). نظرت إلى المدير، وجهه شرح لي الأمر. فسألته «هل أرسلت رسائلي ببساطة كما هي أم أنك قدمت لها برسالة منك؟».

كان قد قدَّم لها. لا غضاضة في ذلك. ولكن فكّرت أيضاً بنوع التقديم الذي يمكن أن يكون قد كتبه. استرجعت مرة أخرى نظرة عينيه عندما زارني أول مرة في زنزانتي. نزلت عيناه واستقرت على بنطلوني الجينز المهترئ المليء بالشقوق والبقع المحكوكة. لم يكن القميص بأحسن حالاً. في تلك اللحظة رأيت فيه إنسانية كبيرة، والآن أستطيع أن أقرأ كل كلمة من رسالته المرفقة. وصفٌ محزن لحالتي ومناشدة للتحسين.

«ليست هذه المرة الأولى التي أكتب لهم فيها». تابع «منذ شكايتك الأولى بشأن عينيك كتبت لهم. حتى أنني تكلمت مع جماعة الأمن هنا كي يأتوا ويأخذوك إلى المستوصف. لكن لا جواب. هذه المرة الأولى التي يكلفون أنفسهم فيها بالرد».

هؤلاء الرجال ليسوا أشراراً فقط، إنهم عماء الشرّ وقد تجسّد في لحم بشري. على المرء ألا يقع بين أيديهم بل أن يجد القوة لتدميرهم. إنهم صديد ونكد وعفونة موت في هياكل حية. لا شك أنهم يُعْدون كل من يتماسّون معهم، حتى من هذه العزلة هنا أشمّ نتن عقولهم في نبرة كلماتهم فقط. إنهم يستولدون أنفسهم وأنماطهم وطفراتهم. إن تأمين القوة لتدميرهم يعني إنجاز مهمة أخلاقية.

بطريقة ما غامضة، كانت خطتي في الصوم عن كل شيء سعياً

وسواسياً باتجاه هذا الهدف. يجب اختبار شيء ما حتى ولو تحت طائلة الموت. يجب أن أبلغ تلك النقطة حيث يغدو جسدي وذهني عصيين على اللمس، أن أتجاوز قدرة العقول الصغيرة على توسيخ كياني أو الوصول إليه. لم يكن الأمر مجرد صوم. لقد تركت روحي تطوف حرة تبحث عنهم، تتعلم أن تدمرهم حين يحين الحين.

لدى مباشرتي هذا الصراع الجديد في المنطقة الوحيدة الباقية لي في ميدان الإرادة، ألحت علي الحاجة لإكسابه صيغة وشكلاً ملموسين. لا بد أن يكون كمياً، ليس مجرد بطولة تحمّل مقتضبة تنتهي بانهيار حاد لا يترك خياراً إلاّ لإهانات من نوع الإجبار على الأكل. إذا تمكنت من الصوم بأسلوب أتلافى معه أعراض الانهيار، أحافظ على تماسك جسدي عبر فقدان تدريجي في الوزن، أعوّده على الخسارة تلو الخسارة حتى اللاشيء في النهاية. طالما أنني محجوزٌ في مدار سلطتهم الفيزيائية فإن بمقدورهم عمل الكثير إذا مسَّهم الرعب. تساءلت فجأة عن السلطة المخولة للمشرف الأول.

أرسلت بطلبه وسألته «ماذا كنت ستعمل في ذاك الوقت لو تجاهلتُ رجاءك بالامتناع عن الصيام؟»[1] أجابني بعد لعثمة طويلة «لا أعرف بالضبط ماذا كنت سأفعل. طبيعي أنني كنت سأستمر في الرجاء منك...».

«هل كنت ستكرهني على الطعام؟».

«ذلك كان سيعتمد على رأي الطبيب. طبيعي إذا وصلت الأمور هذا الحد علي أن أستدعي الطبيب وإذا قال إنك يجب أن تأكل...».

---

(1) صيامي (الرمزي) الأول بعد الإفراج المجهَض، كان صوماً خفيفاً جزئياً استمر 21 يوماً وقد قاد جسمي على كل حال إلى نحول سريع.

«سوف أمتنع عن الطعام» قلت.

«ليس كالمرة السابقة رجاء. لا أتمنى أبداً أن أرى كائناً بشرياً يتلاشى بذاك الشكل، أبداً. إنه أمرٌ خطير. ليتني أستطيع التحدث معك عن الإسلام. القرآن يعلّم أن القانون الأول للإنسان هو الحفاظ على النفس».

«عندما أطالب بأشياء زهيدة من أجل وجود لائق، أليس هذا أيضاً بهدف الحفاظ على النفس؟».

«لقد عملت كل ما بوسعي أنت تعلم ذلك».

أكدت له ثانية أنني أعرف ذلك «لكنك ستعترف أن تلبية أي من مطالبي هو أمرٌ يقع خارج حدود سلطتك».

حتى وأنا أتكلم إليه جاءني إلهام القيام بصيام تدريجي. استمر يطلب مني تطمينات ولم يغادر حتى حصل مني على وعد بألا أكرر الامتناع النهائي عن الطعام. أكدت له ذلك، في البداية أكيد ولكن قد نجد أنفسنا نتحرك ببطء في اتجاه الصوم التام.

الفكرة التي خطرت لي كانت بسيطة. الأسبوع الأول سأمتنع يوماً واحداً عن الطعام، الأسبوع الثاني يومين، الثالث ثلاثة... حتى الأسبوع السابع، عندئذ ماذا؟

هذا هو الأسبوع الخامس، اليوم الأخير من حلقة صيام هذا الأسبوع. عليَّ أن أفتح ثغرة في دائرة العزلة المضروبة حولي قبل الأسبوع السابع، كحد أقصى. وعدتُ نفسي بذلك. يجب أن يعلم أحد ما في الخارج بهذه المواجهة وإلا إذا انتهى الأمر بموتي واستخرج شكلٌ منحول من أسف البطن بورمٍ غريب قاسٍ مكان المعدة، حَمْلٌ نادر سيجري تشخيصه على أنه التهابٌ سحايا دماغي - بطني.

30

حـوالي الـساعة الرابعـة أمـس ابتـدأت الـصافرات. تابعـتُ الأصوات ورسمت حركات فوضوية متصالبة. لم يبد أن ثمـة اتجـاه محدد. سلّيت نفسي لوقت طويل في تقـدير الاحتمـالات. لم تكـن صافرات إنذار أو كارثة طبيعية، لم يكـن البيـافريون يَغـزون. علـى العكس تماماً، كان ثمة شـعور بالإثـارة وبحـدوث موكـب عظـيم. ترى ما هو؟ شخصية أجنبية رفيعة؟ لجنة منظمة الوحدة الأفريقيـة؟ شخّصت الأمر على أنه لقاء عالمي، وفدٌ لتأييد شيء ما أو ما شـابه من الاجراءات البروتوكولية. البعض برّاً والبعض جوّاً والبعض تـاه وانقطعت فيه السبل في اتساع البلاد. كان لهذا لتشخيص ما يـبرره. الصافرات لا ترشدهم فقط إلى نقاط الإغاثة، بل تحذر المـواطنين أن المدينة تنتمي، بذريعة هذا الغـزو الخطـير، إلى حمـاة الـسلام. الصافرات عندنا تغادل هدفاً وحساً بالاتجاه. عربة تـسافر بعـد كـل شيء من لامكان إلى مكانٍ ما، وإذا كان الصوت الـذي ينتقـل مـن التصاعد إلى التلاشي التدريجي في النغمة، يجعل تلك المـأثرة في الاتجاه ملموسة، فإن الأمة تُدوزن جيداً.

باتت سيكولوجيا الصافرات أحد أكثر أنظمة الإكـراه رسـوخاً ليس عندنا فقط بـل عنـد كـل أشـقائنا في القـارة. باتـت المخـاطر والعقوبات التي انطوت عليها تشريعات الصافرة ملموسة مادياً بفعل قطاع الطرق التابعين لـ /باندا/. سبق أن راقبت النسخة السنغافورية اللطيفة في موكبٍ في شوارع داكار. محلياً شاهدت مرَةً على مفترق طرق الكاتدرائية عند المارينا موكب غوون يتوقف، ويقفز الحـرس

الشخصي خارج السيارات يجرّون ويمرغون أحد السائقين في الوحل لأن سيارته كانت بطيئة الاستجابة لأوامر الصافرة[1]. المشكلة ليس في أنه لم يفهم! من يجرؤ ألا يفهم؟ ولكن الآلة غالباً ما تخزل الإنسان المفكر. وهكذا جلس الرجل هناك وراح يدير المُقلع والدولاب المعدل بقوته البدنية عندما حلّت عليه الزوبعة. أحمق! كان من المفترض أن يترك سيارته المهترئة ويلوذ بالفرار. هذا حدث في الشهور الأولى من التعزيز الذاتي لـ /غوون/. بعد ذلك لن تحدث عروض عامة كهذا. عَبَر موكب السيارات بجلال أملس لولا تلك المثلبة الصغيرة، مَثلبة تافهة أخذت المسؤول عنها و«غيّبته» في هواء رقيق لمدة أشهر ليعود، إذا كان محظوظاً بالعودة، رجلاً أكثر كآبة وحكمة.

دَرَجتْ الموضة. مفوض مساعد في البوليس كان في طريقه ليركل الضربة الأولى في مباراة كرة قدم اصطحب معه أربع دراجات مرافقة وأربع عربات محمّلة بشرطة الشغب، وهناك عند شاغامو كان أحد المستشارين في مشفى التعليم الجامعي بطيئاً في تشخيص هذا العَرَض الخاص، فتوقف موكب السيارات ونزل قطاع الطرق وقاموا بضربة. إنها تدرُّج.

أشك أن هناك تنافساً سرّياً حول الهيبة بين الديكتاتوريات وخصوصاً الواصلين الجدد. كم ساعة مرّت قبل أن أعبر، هل توقف السير؟ بين /باندا/ و/موبوتو/ و/غوون/ لا بد أن الاختيار صعب. سبق لي أن راقبتهم جميعاً في حالة الفعل. سنغور بالطبع، صنف بذاته.

(1) صيغ هذا الحادث شعراً في «المحابس»، «خلفية وأفاريز».

لكن الصافرات لم تكن ترحّب أو تودع أي زوّار إلى هذه الشواطئ. استمرت الصافرات طوال اليوم التالي ومع حلول المساء خرجت أسأل الحارس عن المناسبة العظيمة التي سوّغت كل هذه الضجّة. كان الحارس غريباً، كان وجهاً غريباً مرة أخرى.

«ألم تعلم؟ غوون يتزوج؟».

«لا بأس عليه. سيتزوج اليوم أم أن كل هذا بروفة؟».

«لا. سيتزوج في لاغوس. هذا من أجلنا لأننا لن نرى عرض لاغوس، بعد يومين سيذهب إلى /زاريا/ ويعمل احتفالاً آخر».

لم أفهم ذلك. عادة محلية لم يسبق لي أن سمعت بها؟

«لا، ليس كذلك أبداً أبداً. الحكومة كلها تأتي إلى هنا للحفلة وكل مجتمع لاغوس. بدأوا في لاغوس ثم جاؤوا إلى هنا. بعدئذٍ يذهبون إلى /زاريا/. جولة كبيرة. ترى كل الجنود الذين جلبوهم للاستعراض في الشارع. في كل قدم ترى جندي. جيش في جهة، قوى جوية في جهة، بحرية في جهة، بوليس شغب في جهة. كل شيء. حتى السجن قام باستعراض. اليوم سيزور الجنود الجرحى في المستشفى هو وزوجته».

«الشيء نفسه سيحدث في /زاريا/؟».

«بالتأكيد. لكن لا أعلم بعد إن كان سيعمل حفلة أخرى في بيافرا». ضحك ضحكة خفيفة وابتعد. نغمة جديدة. نغمة عالية منشقة بعذوبة وحلاوة لتوافق مارش الزفاف ذاك الذي ملأ أنابيب أرغن كاتدرائية كنيسة المسيح المهيبة حيث علمت، دون أن يخبرني أحد، أن الزفاف لا بد سيجري فيها. تساءلت ما إذا النخبة صاحبة الامتياز الراضية عن نفسها لم تسيء الحكم على هذه الطبقة من الشعب بعد كل شيء. أيوجد الكثير من أمثال هذا الحارس؟ أيوجد حتى الصامتين من أمثاله؟

أرسلتُ كلمة إلى مصدر معلوماتي في السجن أريد قصاصات من كل شيء يتعلق بزفاف غوون.

لكن قبل أن تصلني القصاصات، جلب لي الخفير نفسه، اليوم التالي نسخة من «نيونيجيريان». «خذ نظرة سريعة عليه، أنتم ناس تقولون أنكم تقاتلون من أجل الإنسان العادي. نحن نجلس هنا نعاني، نطلب علاوة لا نحصل عليها. الدين المستحق الذي وعدت لجنة (ويلنيك) أنها ستؤمن دفعه لنا، مرّت ستتان ولم نستلمه. يقولون نحن في زمن حرب، يجعلونا ننتظر. يقولون على كل شخص أن يقتصد. ليس معنا كي ندفع قسط المدرسة أو نشتري بدلة للخروج. حرب، فهمنا، إنها حرب ولكن هذا الرجل يجلب كل مجتمع لاغوس إلى كادونا ويبذرون أموالنا يميناً وشمالاً في الزفاف. ماذا سأنال من هذا الزفاف هل سأنكح العروس؟».

ابتعد وجلس بجوار البوابة تاركاً الباب مقفلاً بعناية. نهض وعاد «شربتُ اليوم كثيراً وأريد أن أنام. إذا سمعت صوتاً خبئ الورقة تحت مخدتك. آخذها منك عندما تنتهي منها. لا أريد لهذا العمل أن يخرب بيتي. سأنام. إذا ضبطني الأمين سيصرفني من الخدمة.

فتحت الورقة ورأيت صورة قطعة صغيرة من اطمئنان ذاتي يليق بديكتاتور، محاط بما يعرف بـ «الوجوه المحلية» بينهم بضعة ممن كانوا يوماً أمراء واسعي النفوذ. ولكن كان في تلك النسخة خبراً أكثر أهمية حتى. إما أن الخفير لم يَرَه أو أن المادة لم تثر انتباهه. سقطت /أوموواهيا/ والعريس المنتصر يعلن هذا الخبر للأمراء بالعبارات التالية: لقد تأخر سقوط أوموواهيا، للأسف، بضعة أيام، كما لو أن ذلك كان معدّ كهدية له في يوم زفافه!

انتظرت وصول قصاصاتي الجديدة، الآن لا يهمني بالفعل سوى ذاك الخبر. أردت أن أقارنه مع تقارير أخرى. قد يكون هناك خطأ في الاقتباس. ربما كان بإمكاني امتصاص الغطرسة النخبوية التي شاركت في تمثيلية الزفاف الباهرة الهزلية، زفاف هذا الذي لا قيمة له في المجرى المضطرب للتاريخ. كان بإمكاني تجاهل البلاهات الآلية التي اكتشفتها: الإفساد المتعمّد لأولاد المدارس السريعي التأثر الذين استغلّت ماكينة التعليم الوطني قوى التطور الغضّة لديهم كي تحفزهم على التنافس من أجل تذكارات عن هذه العجرفة المتعالية. كان يمكنني أن أغفر الوضاعة التنافسية لحكومة ولاية لاغوس وسذاجة رئيسها /موبولاجي جونسون/ الطبيب، ولكن التَعيس في دور لا يناسبه، الذي اعتبر أن من واجبه أن يخلّد هذا العار الذي يحسُن نسيانه، بتغيير اسم شارع رئيسي إلى شارع /يعقوب غوون/ على شرف الزفاف. كان بمقدوري أن أضحك على صورة /غوون/، باعتبارها إحدى تلك النكت الرهيبة التي يعوّض بوساطتها التاريخ عن الاضطرابات المؤقتة في التفكير المنطقي والحساسيات البشرية. كانت له في بهو استقبال المجتمع الراقي في (آيلاند كلوب) خاصته، صورة يبدو فيها وهو يقود بسرور فرقة أوركسترا أثناء تدمير إحدى المدن النيجيرية. كان /يعقوب نيرو غوون/ هناك، في المركز الرجعي للطبقات المترويّة النيجيرية، يعبث بينما الأمة تحترق. كل هذا يمكنني أن أقبله وأكثر منه. حتى إصدار طابع تذكاري عن الزفاف! سنتان في السلطة، هي في معظمها تاريخ من الإبادة والكره العام والتدمير والحرب الأهلية. وبالرغم من أن هذا الفرد يقيم في كنَف حصين، إلا أنه كان من الإنسانية، نشكر الله على هذا على الأقل، أنه وضع يده على رسوم زواجه سلفاً بأربعة أشهر على الأقل، مع أنه فوق الضيق البشري

ولا علاقة له به، كي يطبع ويوزع طوابع تذكارية لهذا الفساد السحيق على كل سفارات البلد. مرة أخرى، هذا تمادٍ فظيع حقيقة، لكني وجدت بشكلٍ ما أنني أستطيع التغاضي عنه. يمكنني أن أعزوه إلى ضعف عقول البطانة الصاغرة التي يجب أن تتواجد حول السلطة والتي تثبّت وجودها. إحساس حاسم لولاه تبدو الحياة بلا معنى ـ فقط بالوهج الباهت لمبالغات تلك السلطة المركزية.

غير أن سريرة الرجل، موت الذهن والإحساس، تكثف في هذا لكشف النهائي الهدّام: الاستيلاء على أحد معاقل التمرد، الاستيلاء حتى على أبسط ضيعه يدافع أهلها عنها بالقوس والنشّاب في حرب أهلية، لم تعن له أرواحاً من كلا الجانبين وتشويهاً وتضحية، لم تكن بالنسبة له حتى معضلة ثقيلة وقرارات مقلقة للتضحية بالبشر، بل:هدية زفاف! تمجيد رابطة شخصية وخاصة بين ذاته ومقدار ما مجهول ولا يؤخذ في الاعتبار. لا يمكن إلا لذهنية عائلة حاكمة إقطاعية أن تقتنع بهذا اللااعتبار، لا يمكن إلا لثمل السلطة أن ينتج قيئاً طناناً كهذا على تضحية الأمة بكاملها.

أنا أدين بالكثير لزفاف غوون. فبعد بضع ساعات جاء الحارس من أجل الصحيفة سلمتها له غير أنه انتظر، كان ينتظر مني أني أعلّق.

رفعت بصري وضحكت «يعني، ماذا تتوقع مني أن أقول؟».

صار صوته جافاً «ماذا يقولون إنك فعلت؟».

دهشت، أخيراً أجبته: «لكن لا بد أنك سمعت. يقولون إنني أريد شراء طائرة لحساب أوجوكوو».

«صحيح؟ فعلت ذلك؟» هذا التحول فيه إلى دور محقق جعلني أتحفّظ قليلاً. تعجّبت وأنكرت التهمة.

قال: «أنا وافقك على ألا تعترف بشيء. يقولون لنا: إنك اعترفت ولكن أنا معك، فقط أريد أن أعرف الحقيقة. هل عملت أنت ذلك حقيقةً».

أكدت له أنه لا يوجد ذرّة حقيقة، في تلك التهمة.

قال: «أنت تعمل ذلك، أنا سعيد إن كنتَ فعلت. هذه خدمة حكومية، المشكلة أن الإنسان لا يستطيع أن يتكلم، هذا كل ما في الأمر. ولكن إذا تكلم الإنسان عن كل ما تراه عيناه... أنا كنت هنا عندما ابتدأوا يقتلون الإيبو. رأيتهم بعيني هاتين، الشيء الذي عملوه بهؤلاء الناس لن يغفره الله لهم أبداً. عندما أرى هذا اللوطي يأتي هنا كي يعمل حفلة زفاف مطنطنة في حين نجلس نحن هنا نعاني... على كلٍ، الله في السماء».

بعد توقف طويل، لم أدرِ كيف أردّ. كان الأمر مباغتاً لي ثم هناك أيضاً حقيقة أنه عنصر جديد. هل هو جاسوس للأمن جاء يقيس حرارة القضية الصعبة؟ مرة أخرى سؤال مفاجئ منه:

- «لماذا تمتنع هكذا عن الطعام؟».

- «شيء يصعب شرحه» أجبته.

- «لا، قل لي. أريد أن أعرف. أنا لم أرَ شخصاً يقوم بما تقوم به أنت في حياتي. أسبوع بعد أسبوع بعد أسبوع. سمعت الأمين يقول إنك لست مسلماً ولا مسيحياً. أنت لا تؤمن بالله. لماذا تعاقب نفسك؟ غوون يجلس هناك ويبعثر أموالنا على الشمبانيا، رجل يموت على الجبهة وها أنت تريد أن تقتل نفسك للاشيء. لماذا؟».

لقد مضى زمن طويل لم أتكلم مع كائن بشري فضولي، مع ذهن يقلقه معنى مفاهيم لا تتعلق بحاجاته المباشرة ومجال خبرته.

سقط القناع، قناع السجّان. قرأت عدم الرضى والوعي الشامل وإن كان موجهاً بغموض ضد شخصٍ معين، الوعي بمواضعات مساواتية اجتماعية ضرورية كما يليق بأي تجمع بشري. بدأت بدوري أوجه له أسئلة ساعياً لمعرفة مدى نقمته. بدا أنه يقدّم نفسه لكنني لم أطمئن تماماً.

قال: «تعرف، أول وصولك، تكلم إلينا الأمين في الاجتماع. في كل مرة يصل شخص جديد، خصوصاً رجل مهم مثلك، يجب أن يخبرونا في اجتماع الصباح الباكر ويعطوننا تعليمات. أخبرنا أنك شخص خطير. تكلم طويلاً. قال إذا تكلّم أحدكم مع هذا لرجل فلا يلوم أحداً إذا وجد نفسه موقوفاً. رجل ذكي، رجل ثقيل، لكنه رجل خطير. قال إنك عملت مشكلة لـ /أكيتولا/ وعملت مشكلة لـ /سارداونا/ والآن تريد أن تعمل مشكلة لـ /غوون/. حذّرنا وقال التزموا وظيفتكم واتركوه. ولكن بعد بعض الوقت كان يجلس ويتكلم أحياناً خلال الاستراحة، يقول، هه، هذا الرجل لماذا يبقى في المنفردة، غريب. شيئاً فشيئاً بدأ يتكلم كما لو أنه بدأ يحبك. والأمين قبل أن يحب شخصاً لا بد أن يرى منه شيئاً...».

تركته يتكلم، كان في حاجة ماسة إلى ذلك، خصوصاً حول نفسه. كانت الصورة مألوفة. آمال مبكّرة تحطمت بالقبول بالواقع الاجتماعي وبحدوده الشخصية الخاصة. قريب حميم له مات في الحرب وهو يقاتل من أجل قضية الفدرالية. هو نفسه أراد أن يتجنّد، وكان فعلاً على قائمة الاحتياط ولكن أسرته ألحّت عليه أن يصون حياته مذكرينه أنه الذكر البالغ الوحيد الباقي للعائلة. توسعت تلك العائلة الآن لتضمّ أسرة قريبه الذي قتل باكراً في الحرب. مع ذلك بعد بضعة أشهر فقط من موته القريب، طاردته جماعة من

الغوغاء حتى دخل منزله، لأنه كان يعيش في مساكن مؤجّره مملوءة بالجنوبيين. هو شمالي، على الأقل بالمعنى القديم، ولكن صاحب البيت كان جنوبياً وكذلك معظم المستأجرين.

بدا لي أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. الوقت في السجن يمارس حيلاً غريبة مع ذلك أعلم أن تذكّري لتعاقب الأحداث كان سليماً. لاحظت: «باعتبار أنك تجنّدت للقتال في سبيل القضية الفدرالية بعد ذلك، فلا بد أنك رجل قناعة».

ضرب صدره: «أنا؟ إطلاقاً! بعد ذلك قلت لنفسي فليذهب اللوطيون الأوغاد ويخوضوا حربهم الخاصة».

كان ثمة تعارض في الزمن سعيت للإمساك به. سألته عن السنة والشهر الدقيقين لهذا الحادث.

ـ «شيء مثل آب السنة الماضية..».

ـ «السنة الماضية؟».

ـ «أجل، السنة الماضية، لم يمر عليه سوى سبعة أو ثمانية أشهر بعد».

ـ «لحظة، السنة الماضية كانت الحرب مندلعة سلفاً».

ـ انفجر «أجل، أليس هذا ما أقوله لك. حدث هذا السنة الماضية بالضبط. هذا أزعجني أكثر شيء».

«أنت متأكد؟».

«متأكد من ماذا؟ الحاكم /أديبايو/ نفسه جاء إلى هنا عندما ابتدأ شعب يوروبا يهرع عائداً إلى موطنه... تكلم في الإذاعة».

أخيراً جمعتُ القصة نثرةً نثرة. حركة غوغاء طائفية أخرى منظمة بالشمول نفسه الذي وسم حركات 1966، تشمل الجنوبيين جميعهم. الشكوى أن هؤلاء اغتصبوا المواقع التي أخلاها الايبو. ذات صباح استيقظت كادونا على حصار مشترك من الجيش والبوليس أعده الحاكم العسكري. تحركه السريع أخمد المجزرة قبل أن تبدأ. لكن حدثت بعض وقائع القتل في /كانو/[1]. الاحتجاجات العادية برزت على الجدران والأشجار ووزعت المناشير بجرأة باليد، دعوة إنذار لإعادة توطين الجنوبيين وإلا! تصرف الحكام العسكريون بسرعة ولكن الرجال المؤهّلين، أطباء، مهندسون... الخ، كانوا قد اكتووا في 1966، في ولايات كثيرة، فتوجهوا إلى الجنوب. حتى التشاديين (الذين يسمونهم غودو ـ غودو) كانوا قد تأثروا وكانت قد تمت تنقيتهم بشكل خاص. باتت وظائفهم المفضلة خدمات الزي الرسمي: الجيش، البوليس، مصلحة السجون.

بصق الرجل قرفه: «انظر في الجيش ماذا سترى؟ جماعة الغودو ـ غودو هؤلاء يملؤون الجيش يخوضون الحرب ولكنّ شعبنا حذّر الحاكم حتى أن يلمَّهم ويخرجهم في وقت ما وإلاّ فإنهم سيشمّون رائحة الفلفل مثل الإيبو...».

إنذاران عامّان خلال الحرب الأهلية، التهديد الأخير كان في أيلول (الظاهر أنه شهر مشؤوم) عام 1968.

تحادثنا. كشفت دخيلته مع أنني كنت قد أمنت جانبه، طرحت مواضيع يستطيع الاستجابة لها. أخيراً سألته ما إذا كان

(1) حققت بعد ذلك وتأكدت من قتل خيّاط من اليورروبا في سايون غاري في كانو.

سيناوب في السرداب طوال الأسبوع. لا، أجاب، فقط حتى يغادر غوون. كل السجون كانت تعد استعراضها الخاص ولذلك كانت بحاجة إلى كل رجال الاحتياط كي يظهروا شرائطهم وميدالياتهم. وقد تبيَّن أن كل حراسي هم من رجال الاحتياط. من المرجَّح أن اليوم التالي هو اليوم الأخير، فالعرض الزفافي كان سيذهب في اليوم الذي يليه إلى زاريا. توصلت بيني وبين نفسي، إلى قرار ينطوي على مجازفة.لم يفاجئني القرار فلم يكن لدي ما أخسره.

رسالتي الأول، التجربة، كانت سليمة. أرسلت قصيدة وطلبت بعض الكتب. قلت للرجل ببساطة «أريدك أن تضع هذه في البريد من أجلي». كنت قد صممت الغلاف بنفسي من قطعة جريدة. نظر إليها، قلبها بين يديه. لم أستطع قراءة ما دار في ذهنه إلى أن أطلق ضحكة طويلة «يعني، أنت صنعت هذا الغلاف بنفسك؟».

أريته منتوجات صنعية أخرى. كان قد سمع عن أشياء مثل هذه من الحراس الآخرين لكن لدى رؤيتها مجسّدة ألقى رأسه إلى الخلف مقهقهاً: «سأرسلها من أجلك، وإذا كنت تريد كتابة المزيد سوف أحضر لك في الغد ورقة وظرفاً مناسباً».

قلت «لن أنسى لك ذلك».

«لكن أكتب كل ما تريد حتى الغد، فبعد الغد سيعودون إلى الروتين العادي ثانية. الآن لا أحد لديه الوقت كي يفتشنا عند الخروج، الجميع مشغول بزفاف غوون».

تمنّيت ليعقوب غوون الكثير من شهور العسل. وبالورقة المتبقية من رسائلي ابتدأت أعمل على احتفالي بالحدث، زواج الهومبو. هذا أقل ما يمكنني عمله من أجل فحشٍ أدين له بالكثير.

ضمن المساحة الضيّقة بطول 23 خطوة وعرض 17 نجح الخفر في خلق حديقة خضار فيها بعض التنوع. إنها معتزلهم، ملاذٌ يحميهم لبعض الوقت من واجباتهما التي ينظر إليها معظمهم كعقاب على أخطاء مقترفة في حياة سابقة ـ الله يريد معاقبة الرجل حين يبتليه بهذا النوع من الوظيفة ـ أو كبديلٍ مؤقت حتى يتم القصاص. بالنسبة لقلّة منهم، وربما أكثر من مجرد قلّة، الوظيفة تشريعٌ للغرائز السادية التي كانت تعبّر عن نفسها بشكل ما في مكان ما. ومع ذلك فإن الحديقة حتى بالنسبة لهؤلاء هي فسحة تغيير، مَنْسك ارتداء وخلع الأقنعة. رأيتهم يخلعون ويرتدون القناع ببطء أو بلمح البصر.

كان السرداب غرفة تعذيب، قد تكون الكلمة قوية زيادة عن الحاجة لكن أية كلمة أخرى يمكنها أن تعبّر بشكل أفضل عن الجرائم التي ارتكبت ولا تزال ترتكب في أماكن كهذه؟ يسمّونه للتلطيف زنازين العقوبات. يؤتى بالسجين إلى هنا، يُغلق عليه في إحدى الزنازين ويُترك يصرخ حتى تنفجر رئتاه، لا أحد يبدي له أدنى اكتراث.. الباب ينغلق على عتبة صغيرة ترتفع حوالي ستة إنشات من الأرضية، عليك أن تخطو فوقها كي تدخل. المعاملة بالماء البارد تعني إغلاق الفتحة التي في ذاك البرطاش وملئ الزنزانة بالماء. يُعرَّى السجين تماماً ويقذف به داخل الزنزانة في موسم الهارمتان الذي خبرته مرتين وأعرف، حتى دون مساعدة البحيرة الباردة، أن ليلة واحدة في زنزانة كهذه تترك صدوعاً في

أقوى حائط. وهذا أحد تنويعات العقوبة ليس إلا. فهناك جولات الهراوة. خمسة أو ستة عناصر، مؤكد أنهم يمارسون السادية في حياتهم الخاصة، كانت المتعة شرهة على وجوه هؤلاء الذين راقبتهم في الأيام الأولى في لاغوس، يهجمون على السجين ويضربونه على نقاط منتقاة ـ البراجم، المرافق، الكواحل، الرأس، عظام الكتف. في تواتر سريع. ذات مرة حتى الضابط المسؤول جاء واعتذر لي عن الصراخ الذي عذبنا لأكثر من ساعة. والغرض الوحيد هو إرغام السجين على الاعتراف أين خبأ بعض السجائر الممنوعة المهربة إلى السجن. الغرض الحقيقي هو بالطبع كسر إرادتهم والتمتع بمراقبة الضحية، المعروفة بصلابتها، تنكسر أمام أعينهم. تكررت تلك الجولات يومياً على مدى أسبوع كامل، ولم ينكسر.

مشاهد كهذه كانت مبدأ سلوك في السرداب قبل الازدياد المفرط في عدد السجناء السياسيين الذي حوّل (زنازين العقوبة) إلى حاويات للأشخاص المهمين. وهكذا فإن فناء المطهر هو المسرح الجديد لكل الانتهاكات البشرية في حين أن السرداب تحول إلى معبر قصير للترميم البشري. شاهدت شر الأقنعة تندفع عبر بوابة السرداب، وهي لا تزال تشخر من إجهادها الأخير في المطهر، ثم تطأطئ لتقوم بمحاكاة وجيزة عن بيلاطس مع ماء سطل التسخين، وتتحول بلمح البصر إلى ملائكة لطفاء في مزرعة.

ذلك بالطبع محظورٌ بشدّة. منذ تسنّمي منصب الإله الحاكم في هذه الغيضة أغلقت بوابات الفردوس، سوى في وجه الملائكة الحارسة التي صار البستان أيضاً مطهرها. ولدى أول إشارة عن اقتراب المدير، الشيطان الأقرن الذي دخل بذيله المتشعب

المهسهس وحافريه الثقيلين يتوهج وهو يشق طريقه متلوّياً بعد أداء حفلة جلد على الجانب الآخر من الجدار، قاهر البراجم، سيد الأحزمة المجدولة، ساحق أصابع القدم، كاسر العظام، مُجالد جولات الهراوة، رعب الزنازين الخلفية هذا يرتدي مع ذلك قناعاً آخر، قناع الجانح، القناع الهزلي لتلميذ هارب من المدرسة يرتسم واسعاً على وجهه.

ولكن المشهد رعويٌّ في المقام الأول، وميضُ أرواح معتوقة تزرع الملفوف في أحد الحقول الفردوسية. تطهّرت من العنف كله والخشونة كلها، هدأت ضراوة الملامح التي عَلَتْها في الكفاح بين الأرواح العنيدة القابعة هناك والتي يجب كسرها كي تُخلَّص بالمثل. نقرةٌ على البوابة ويدخلون واحد، اثنان، وحتى ثلاثة دفعة واحدة لكي يلاحظوا نمو الأشياء النامية. ثنيات شورتاتهم الخاكي الواسعة تنتصب مثل أجنحة حين ينحنون لينكشوا التربة، لينتزعوا الأوراق الميّتة، ليجمعوا شتلة بندورة متمدِّدة، ليبدوا رأياً حول الفستق السوداني المبرعم، ليطردوا السحالي التي تعني آثار أسنانها على الخسّة الفتية التلف غالباً. يقلّمون ويحكمون بالموت على كمية من الكرمة الوافرة الخضرة، أوراق غضّ من أجل ملفوف اليبرْق في البيت مساء.

ولكنّ شجرة الجوافة تنتصب عالياً. الثمرة المحرّمة التي ينتظر الجميع افتراسها. رمانة هيديز التي طعمها لن يأسرهم بل سيحررهم من العَقد المؤبد لهم في العالم السفلي للسجن.

لم أستطع فهم الأمر بصورة أخرى. لا بد أن هناك في الخارج شجرات جوافة أفضل طعماً وأقل إثارة للحساسيات التي تثيرها ثمرات الجوافة هنا. أصغيت أحياناً إلى التذمرات الغضبي التي انطلقت عندما وصل بشير الفجر ورأى أن بشيراً آخر قد هزمه وفاز بالثمرة التي

روقبت طويلاً بحب وُدلّلتْ وانتُظِرتْ. ذات ليل استبدَّت جائحة بالشجرة، آفةٌ تركت في النفوس ما لم تتركه أية كارثة طبيعية في نفوس البشر. واحداً واحداً جاؤوا ووقفوا بصمت فوق الشجرة المُنتهكة.

ثمارها الفجّة تتناثر حولها، معضوضة ومُلاكة ومرمية. بهيمة ظلام، خفير ليل غرّ رأى ما بدا له مجرد شجرة جوافه. جرّب الثمرات واحدة واحدة، ليس باليد بل بالبرهان القاطع، الأسنان. واحدة إثر الأخرى باحثاً دون جدوى عن ثمرة ناضجة، قطف وعضّ جميع الثمرات، بوحشية، بإجرام، باصقاً خلاصتها غير الناضجة على التراب القاحل. مرة تلو الأخرى تنفتح البوابة، بلطف، يدخلون واحداً واحداً ليسهروا على موت المحصول دون أن ينبسوا ببنت شفة سوى الهمهمة (أيّ نوع من البهائم يمكنه فعل هذا الشيء). بلوتو راقبهم من خلال الشق الذي في بابه وتعاطف معهم. كانت الجوافة شجرة حية خاصة بالنسبة لهم، وكالي[1] كانت قد نفذت عقابها الإلهي بينما هم نائمون.

حين جاءت أخيراً تلك الصفعة بات تحمُّل عمل المشرف الأول أكثر صعوبة حتى لم يكن هناك إنذار مسبق أو استعداد ذاتي ضدّ تلك الصفعة. كنت سبباً ليس بريئاً كل البراءة.

كان لهم جوافاتهم وبندورتهم وفستقهم السوداني ودُخنهم. كان لا بد أن يكون لي أنا شيء ما في كل هذا. لديَّ السماد البلدي ولدي أيضاً الشمس.

---

(1) إلهة الموت في الميثولوجيا الهندية. زوجة شيفا. في مظهرها المدمّر تمثَل كامرأة سوداء لها أربعة أذرع. مُغرمة بالجماجم. تُسترضى بتضحيات ليلية بالحيوانات. م.

مساكب السماد البلدي كانت حياة. لأنها كانت تقدم الأدوات، تقدم معادن وخَرَز وزجاجات أدوية مطروحة من المستوصف وأسلاك وخيوط وعظام ونوابض وعقد خشبية، حتى أنها قدّمت خنافس الروث ذوي القرون التي كان أزيزها عارضاً ليلياً يجب التعامل معه والتغلب عليه، صوت غريب لا يتوقف، صوت الحيوان العالق في المصيدة والذي يبدو أنه ينبجس من كيس متعفنٍ يتشقق ببطء. في النهار اقتفيت أثره وربطته إلى إبداع ميكانيكي صغير من خردة السماد وجعلته يدفع الثمن بأن يقوم بدور القوة المحركة. حققتُ نجاحاً جزئياً. فتحتْ مساكب السماد البلدي أمامي سُبُلاً جديدة للانشغال. تدريجياً باتت أصابعي أكثر حساسية أيضاً، حلّق ذهني بتصاميم رشيقة لا يحدها حدّ.

الأداة الأولى هي السكين. إنها الأداة الأولية، رَحِمُ الصور والأشكال. كل هذا مفهوم، ولكنني راقبته يحدث، استيقظت ذات يوم لألاحظ تطور العصر الحجري والتحرر الذي حمله معه لرجل الكهف. تعرَّت النبتة البليستوسينية ومن شرنقتها انبثقتُ، الحرفي النيوليتي. تلك السكين الأولى المصنوعة من قطعة صدئة من شريط معدني كانت أفقاً مفتوحاً. تدريجياً شحذتها على الأرضية الإسمنتية، جعلت لها مقبضاً من قطعة من إحدى السوق الليفية العديمة الفائدة التي من المفترض أنها تحمل الناموسية. ذلك العمل بذاته كشف لي، لا بل ذكّرني بمرونة لحاء تلك الساق الذي هو المادة الرئيسية لحائكي السلال وذلك بدوره... تفاعلٌ متسلسل لا ينتهي.

بدأتُ العمل على الموبيلات، الإبداع الوحيد الأكثر ترويحاً عن النفس في ذاك المكان المظلم. في البداية صنعتها عفوياً ثم ابتدأت أصممها مُسبقاً حتى النهاية الوازنة التي كانت من العلب

الفارغة للفافة ورق التواليت. أغلقتها وملأتها بالحجارة والحصى وغلفتها بالرقائق المعدنية من علب السجائر كي تلمع في الشمس. تحرّكت بنعومة على عدة نقاط وتوازنت أخيراً. رقصت وارتجّت في الهواء. لم أملّ إطلاقاً من مراقبة دقة حركاتها.

وبعد الأشكال الهيكلية البسيطة؟ الجشتالت[1] الفني الكامل! أبيات شعر خفيفة مستقلة ذاتياً كي تطير مع الريح. بيت شعر من أغنية شعبية إضافة إلى شتائم ضد جلاديَّ (بالإسبانية، الشتائم دائماً كتبت بإسبانية سيئة). عمّدتها باسم منحوتات شعرية، إلهة شعر في الهواء، عرائس الشعر، نحت بالشعر، عرائس النحت... الخ صنعت سُبَحات من الخشب والورق، كتبت الأشعار وراقبتها تطير.

في البداية ربّيت سحالي. اكتشفت مصادفة عش بيض أثناء عملية التفقيس، الصغار تدفع التراب وتخرج إلى الهواء. بواسطة علب الدخان صنعت أنفاقاً من أسطوانات ورق التواليت والحقيبة البلاستيكية التي كان يأتي فيها لخبز، بنيت منها نظاماً من العِشاش المتصلة وحاولت أن أدرّب الصغار. أطعمتها نملاً وذباباً. الآن انتهت هذه المرحلة، خَلتْ أيضاً مستعمرات النمل الذي كنت أستغل قسوته الطبيعية كي أعدّ مبارزات حتى الموت. نملة حمراء وأخرى سوداء أو فريقاً من كل مجموعة أضعها في معركة فتتذابح حتى الرجل الأخير، أسميتها بيافرا ونيجيريا.

أصبحت الموبيلات آسرة، التصاميم أكثر تعقيداً وجرأة. قطعت أسطوانتين من ساق مجوّفة لنبتة عباد الشمس عملت شقاً طولياً في كل منهما. الخطوة التالية: قطعة من ورق التواليت ملفوفة

---

(1) بنية من الوظائف تؤلف وحدة وظيفية.م.

حول قطعة عصا مصقولة، يدخل هذا المزلاج من الورق النفيس في إحدى الأسطوانتين وتخرج إحدى نهايتي تلك اللفافة بعناية من الشق، ثم تدخل عبر الشق في الأسطوانة الأخرى حيث تنتظر عصا مدورة أخرى جاهزة ومغلّفة بما يقوم مقام اللاصق عندي.

تلتقط العصا طرف الورقة وتلفها حولها. انتهى مَدْرج الصلاة الصيني بعد أن تربط بقطعة مُعدَّة من لحاء الليف وتلعب دور وزن معدّل للمركب الباقي من موبيل جديد. غطيت الأوراق بالقصائد، أدير المقبض فيظهر بيت شعر جديد كل يوم يوافق المزاج، أشعار أخرى مبتكرة تطفو على أذرع أخرى. أحياناً كانت الريح تدير المدرج تلقائياً، ويبقى الوزن هو هو بما أن كلا المدرجين يتوازنان على الوحدة نفسها. أول مرّة راقبت حدوث هذا، انتشار المدرج بتأثير الريح وبقاء التوازن تماماً، لم يكن أمامي إلا أن أوجّه التقدير إلى من هو أهل له. التفتُّ إليَّ وقلت: يا رجل الكهف، أنت لم تخلق فقط الموبيل الرائع، أنت أبدعت مفهوماً جديداً ـ العبقرية!

فوجئ الحراس بالموبيل الأول. على حين غرة كان ثمة هذا لشيء المصنوع إنه بالتأكيد ليس من ضمن الأثاث النظامي للزنزانة. شيء يحمل أيضاً علامات أدوات دقيقة ومواد غريبة. تلصصت لأرى ردود أفعالهم. تحولوا من اللاتصديق إلى الإعجاب. وقرروا ببساطة، دون استثناء، أن يتركوه حيث هو. جاء أمين الخفر، كان ممتلئاً بالإعجاب الصاخب وفي النهاية جاء المشرف الأول في جولة التفتيش وألقى نظرة عليه، حازت الموبيلات على موافقة رسمية.

الكارثة كانت على البواب، ولكن الأيام الأولى أو حتى الأسابيع الأولى من اليقظة الميكانيكية العظيمة جرت بالتحليق

الإبداعي الكامل. حين وقعت النكبة كان أحد المنتوجات الجانبية في المتناول سلفاً. ابتدأتْ حين ابتدأتُ أخطط لصنع، عَنَفَة رياح مصغّرة. وزاد طموحي في السيطرة على قلق ذهني. كل شيء يجب أن ينفع في هذه المملكة. اخترت زاوية المسكن حيث كان دخول الريح أقوى من أي مكان آخر. روِّض الريح! في الأصل كان لدي فكرة عن توليد كهرباء بسيطة، متواضعة، فقط القليل من الفولطات، أو على الأقل تشغيل شكل من أشكال البدع بالطاقة. الهدف هو الطاقة. سعيت أن أستخرج من الريح ما هو أكثر من تدوير الموبيلات. كان رأسي يعجّ بالعنفات، تصميمات كان يمكنها أن تشرّف أي متحف للنماذج الأولية غير المنفذة. وقفت أراقب الرقص السائل للموبيلات. كنت أتساءل أحياناً ما إذا كانت تخضعني لتنويم مغناطيسي لأنني وجدت نفسي ذات مرّة أقضي نهاراً كاملاً لا أعمل سوى التحديق إليها واقفاً. كانت الريح متواصلة وسلسة ذاك النهار. خطر لي فجأة وأنا أفكر بالعَنفات وأراقب الحركات المضادة لأذرع الهيكل على محاور عديدة: ترى كم تركيب محتمل يمكن تحقيقه في حركات هذه الأذرع.

وهكذا ولد عصر الجبر. ولفّ النسيان العنفة. لم يبق لي إلا المضي إلى جذر الرياضيات عبر الرسوم البيانية، بالتجربة والخطأ أقضي أياماً لاكتشاف ما لا بد أنه أبسط مبدأ حسابي في العالم. عذرت نفسي. في المدرسة كانت الأرقام لعنة، كنت سعيداً جداً لفراقها بعد أن نجحت بالكاد في امتحانات آخر العام الدراسي. ولكن ليس بعد الآن. حديثاً اكتشفت عالم الأرقام. بمجرد أن حققت الاختراق الأول ابتدأت أكتشف بسرعة متزايدة صيغة رياضية وراء الأخرى. بالتقصّي جزئياً وجزئياً بالحفر المتشنج في المدفن المظلم لجهود المعلمين الطويلي المعاناة. عالجت فكرة وراء الأخرى مختبرا

ومعيداً اختبار الصيغة الناجزة اعتماداً على أبسط أنظمة العدّ. كان عندي الوقت! كثيراً ما كنت أستيقظ في الصباح على مسألة وبعد دقيقة، حرفياً بعد دقيقة، ينقر الحارس على الباب مشيراً إلى ساعة الإقفال. أنا أدمِّر الوقت. ذات مرّة كتبت كل التراكيب الممكنة لستة أرقام. واكتشفت، في السياق، الطريقة الوحيدة التي يمكن بوساطتها عمل هذا لضمان، بلمحة واحدة، إنه ليس ثمة تكرار أو إغفال. والنتيجة كانت بوضوح مخطط لعلم جمال حسابي حيث أنني سطّرت مربعات على ورق التواليت وشرعت أكرر هذه التراكيب بمربعات ملونة. الأخضر من عصير ورق النبات، الأرجواني ثمر العليق، الأسود من حبري ، الذي عمدته باسم شوينك[1] ـ والأبيض لون ورق التواليت، المتصل الحلقي الناتج ترك أثراً. وصلت إحدى نهايتي ورق التواليت بالأخرى وسألتُ، الآن على ماذا حصلتُ؟ إنها تشبه إلى حد بعيد النماذج التي يصنعها الكومبيوتر. الآن كيف، بحق السماء، تعمل الكومبيوترات؟

كان ذهني مثل كومة سماد بلدي، يزخر بالحياة، مكتظاً بالنفايات غير المهضومة يناضل كي يواكب خصوبة غير متكافئة لقاطنيه. كان الفناء سديماً وواحة عندما فجأةً أحيل إلى يباب، انقلب إلى صحراء.

كان لدي التربة والسماد. كان لدي الشمس أيضاً وما تقع عليه اليد، زهرات عباد الشمس الضخمة تلك التي زرعها رجال الأقنعة. بعضها بلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام، آلية هائلة مشدودة دائماً إلى الشمس. إن ما كان له أكبر تأثير هو وفرة غبار الطلع، جنى

---

(1) لفظ كلمة حبر بالإنكليزية يطابق المقطع الثاني من كنية الكاتب «سوينكا». على هذا يقوم هنا لعب خفيف بالألفاظ. م.

الريح، بودرة الشمس التي تتوضع على الأوراق العريضة وتملأ أخاديد سوقها. زهرة عباد الشمس كانت لي مثلما كانت بقية النباتات الأخرى للحراس. وقد اعترفوا ضمناً أنها لي باعتباري الوحيد الذي يستفيد منها (لم يكونوا على علم حتى أن هناك بعض الأعراق تأكل بذور عباد الشمس) زرعوها من أجل اللون وبفعل العادة. رأيت في سوقها نايات، وكانت السكين تنتظر النضج.

لم أحقق نجاحاً في موضوع النايات. كان لدي ألحان سوى أني فشلت في استخلاص الموسيقا من الأنابيب التي كانت تُغري وتبخل بالوصل. كانت الثقوب تتشقق أو تنقصم عند قطعة الفم. ابتكرت قطعة فم من كل شيء، قطعة الفم تقصم الساق. وفي رأسي راحت تترقرق تلك الأنغام العذبة التي ستملأ الليل عندما تصل النايات إلى نقطة الكمال. تبيّن أن الكمال مراوغ: قصرتُ استخدام سوق عباد الشمس على صناعة مدارج الصلاة الصينية، ترنيمة عزاء حزينة على الموسيقا التي ظلّت حبيسة الشمس. العنوان الواضح كان: الناي الخائب.

يا ضلع عباد الشمس

لم تفِ

بوعد صورتك الغنائية

الأنغام المحبوسة

في شعاعات ساقك

تساكنني لا تزال.

حلم ساعات بان[1]
في قفرٍ صامت
خطر لي أن أرنّم

بزوغ وغروب
منشئك البعيد
واسحب
القوة الخلاقة النارية إلى الأرض
على خيوط سحر آلات نفخٍ
ولكن خيرٌ للأنغام

ألا تُغنّى
لتبقى في سموّها
أصغي
إلى أغانٍ تغنّت ربما

حين حرّكتْ أنفاسُ الكون
الترابَ الذي
كنتَ تقف عليه، يوماً.

---

(1) إله المراعي والمواشي عند اليونان. م.

لم يكن لغبار الطلع قوام البودرة. كل يوم وكلما تزايد جنى الريح يتحول غبار الطلع إلى نهيرات من الذهب حتى استسلمت إلى دافع يدفعني إلى جمعه قبل أن تبعثره الريح. لدي أنبوبة زجاجية كانت مرةً مسكناً لفرشاة أسنان. ذهبت إلى الأوراق العريضة الخشنة وابتدأت المهمة الحسيّة البطيئة، مهمة جمع غبار الطلع. وواصلت. كل صباح صار جمع غبار الطلع الذي سقط خلال الليل مهمتي الأولى. أهزّ الأسْدية في الأنبوبة قبل أن تبددها لريح. ومهمتي الأخيرة في الليل. حيث كنت أنقي الشوائب من الغبار بشغف وتأنٍ، بحيث يرتقي الغبار نحو الهدف المرغوب ـ قضيب أصمّ من الذهب. يحتاج الأمر إلى وقت كي تبني من غبار الطلع المرصوص الخالي من الهواء قضيباً بحجم أنبوبة الزجاج. بأناةٍ كنت أنبذ الحشرات والجزئيات الأخرى وأهزّ الأنبوب بإحكامٍ لأتخلص من حبيات جيوب الهواء. مع الزمن كان سيصير قضيباً رائعاً من الذهب، الزمن كان متوفراً ولكن للأسف كانت الشمس على مشارف كسوف كامل. وبدا أن غبار الطلع كفّ عن الحركة.

تكنيك التشويش الذي تخلفه الصدمة هو جزء من تكتيك السجن للإبقاء على حالة الخنوع عند النزلاء. شيء لا يقوم به كائنٌ متحضرٌ مع آخر. حين يتوجب القيام بتفتيش إذن يجب أن يتم على طريقة جند العاصفة[1]. لا تفسير يقدم على أي شيء، يجب نسف توازن النزيل وتركه يغلي ويتفكّر في مغزى الاندلاع الأخير. عندئذٍ فقط يظهر العناصر، برمّتهم مرة أخرى، في دور جديد، دور محققي محاكم التفتيش.

---

(1) جيش سياسي خاص معروف بعنفه ووحشيته في ألمانيا قبل وخلال الحرب العالمية الثانية. م.

وهكـذا جـاؤوا في ذاك الـصباح، خفـراء ومـساجين مـسلّحين بالفؤوس والرفوش والمجارف والمعاول والمناجل. على الأرض انطـرح شـراب الليمـون. علـى الأرض، اسـتلقت أزهـار عبـاد الـشمس. علـى الأرض استلقى الدُخن. ومـن الأرض اقتُلـع الخـسّ والبنـدورة والفـستق السوداني وبيض الحديقة. شـجرة الجوافـة لم تُقطـع وحـسب، المعـاول اشتغلت ونزلت في الأرض لتقتلع آخر إنش من جـذورها. ولـسبب مـا، على كل حال، تـأخر الفريـق الآخـر بـضع دقـائق. رأيـت الـذي يجـري وعلمت أن هبوب الإعصار في زنزانتي مسألة ثـوانٍ لـيس إلا. دون وعـي مِني انتزعت صفائح آخر شيء كنت أعمل عليه وأخفيـت بـضع ريـشات كتابة في مخابئ مـسبقة الاختيـار وصـرّفت سلاسـل الحـبر «الناضـج»، وفرت منه زجاجة واحدة فقط، ثم خرجت كي أراقب التدمير.

اندفعوا إلى الفناء بعـد بـضع دقـائق. هـذه المـرة لم يحـاولوا فحص أي شيء في المكان. جاؤوا بسلال ودِلاء وكنسوا كل شـيء بمـا فيـه ملابـس البَـدَل إلى حاويـاتهم، أخـذوا الوسـادة وفتـشوا الفراش بالجس. الموبيلات نصف المنجزة (تخليت عنها كي أتـابع مشروع بحث زمكاني مجنون) وُضـعت في الـسلال برفـق ـ الحـق يقال. الأدوات، كل الأدوات الثمينة التي هذبتها بعناية مع الـزمن، جُرفت. لم أقم بأي جهد لإنقاذ القضيب الـذهبي ومـن الغرابـة أنـه نجا، ربمـا لأنـه كـان في كـوب القـصدير مـع الـشوكة والملعقـة. بوليفيموس كان يقود الفريق. عند مغادرتهم أعطـى توجيهـاً أخـيراً للحصادين «كل شيء، يجب أن تكنسوا كل شيء».

المشرف الأول بنفسه وصـل بعدئـذٍ. في الحـال التقطـت عينـاه الحادتان أنبوبة غبار الطلع. أمر بإزالته، فتش الزنزانة بنفسه علـى نحـو أكثر دقة واكتشف شيئاً أو شيئين متروكين. ثم ذهب دون كلمة.

لم يبق في الفناء نبتة واحدة. أزالوا حتى نتف الأوراق.

نقلت كرسيَّ إلى الخارج غير مبالٍ بالاستئناف الأكيد لمراقبة الخفر القريبة، أعظم منغّص للسجين. جاءت فراشة تبحث عن الخضرة التي كانت هنا. نزل عصفور أثناء طيرانه ثم ابتعد بعد أن رأى أن ليس ثمة مكان لاختباء يعسوب. النمل وحده كان منهمكاً، خرج من ثقوب لا عدَّ لها وراح يحمل محصول البذور المتناثرة. وأخيراً لم يبق شيء حي يمشي على التراب.

32

لماذا أصوم؟ لا أقصد لماذا أصوم الآن؟ فقد سبق لي أن اعتبرت ذلك استمراراً للصراع. لكن لماذا أصوم على الإطلاق؟ لماذا، في أي وقتٍ كان قررت فجأةً: يجب أن أمتنع عن الطعام؟ ربما يجدر بي أن أسوّي ذلك في ذهني قبل أن أقع في مصيدة الحاجة الماسّة المُهلِكة لانغماسي الذاتي الخاص.

أجل، الانغماس الذاتي. انغماس ذاتي حسّي. من الأهمية بمكان أن نفصل منطقة قوة الإرادة عن الانغمار في أثيرٍ ملوّنٍ بألوان قوس قزح. لأنني أشك أن الحسّ الحقيقي هو ما يقود بيسر إلى الامتناع عن الطعام.

قرأت عن هذا، غير أني لم أخبرْ حتى مجاورة الإحساس بالتجمد حتى الموت. أفهم أنه بعد حين يكفّ الجسم عن الشعور بالألم ويغوص بنعيمٍ من النوم، يرتاح. أظن أن الصيام لا بد يشبه ذلك. إنه يبدأ بتلك الفترة الحرجة التي هي في الحقيقة معبرٌ وجيز جداً، وتحدث خلال الأيام الثلاثة الأولى. الجسد عند هذه النقطة إما أن يستسلم أو أنه بعدئذ ينفر من فكرة الطعام ذاتها. أجد من الأفضل أن أستفزّ هذه الفترة بأقرب وقت ممكن عندما أتخذ قراراً بالامتناع عن الطعام. أركّز ذهني على الوجبة التالية، أدع جسدي يشتهيها وأدع الطعام يدنو مني. أنا جائع. أكشف الصحون وأشمّ، أركّز على التذوق، على المضغ، على البلع. يتحلّب فمي، أركز على شبع جسدي، النوم الثقيل للجسد الراضي بعد أن أسدّ جوعي من هذه الوفرة. يبدأ احتجاج عنيف في تجويف المعدة،

أدعه يحتدم. أقف جانباً مسلَّحاً بقوة الإرادة وأستمتع بالصراع العنيف، أنتظر دوري كي أضرب بمطرقة القاضي. تحين اللحظة وأكشف الطعام بحركة مدروسة بطيئة قائلاً: لا يمكن لهذا الطعام أن يموت. خبرته وسأخبرَه ثانية. الطعم انتقاء، اختيار. أنا أنكرت الاختيار وبذا فإن كل الطعوم باتت غير موجودة. اللذة أيضاً اختيار، إنها إشباعٌ واختيار. وجودي مُعاق، إنه يحطّ من قدر الإشباع بحصره مجالات الإشباع. التلذذ في منطقة الإشباع المسموحة خيانة ذاتية. أن تأكل دون لذة يعني أن تخون طبيعتك. من الآن لن أخون طبيعتي.

أحياناً بعد يوم أو يومين تخرج شياطين المعدة إلى اللعب ثانية. غير أني أنظر إلى مشاغباتها باهتمام فاتر. لا يمكن للطعام أن يغريني ولكن أتساءل أحياناً ماذا كنت سأعمل لو أن ثمة في متناولي أقراص فتامينات . تنتابني المخاوف تنتابني أحياناً بشأن انهيار جدران الأمعاء، ضمور وموت الأنزيمات بلا غذاء، الأذيات الدائمة التي يسببها تجاوز الحد على الجسم. أعلم أنه من الأحكم أن أتناول كأس عصير برتقال كل يوم ولكن لا طاقة لي على المساومة. عصير البرتقال يكاد يكون طعاماً. أقراص الفيتامين من جهة أخرى لا تبدو مخرِّبات ماكرة لقوة الإرادة، من حسن الحظ أن ذاك الاختبار لم يأتِ. لذلك قبلت كأس ماء فقط كل يوم، أرتشفه على دفعات أضمن أنني لا أتجاوز كأساً واحداً في اليوم.

بالطبع ينجز الجسم نقص وزن حقيقي. أضعف نسمة يمكن أن تطيّرني. أخف فكرة شاعرية أو استعارة. الجسد يشبه بصلة وها أنا أراقب اللحم يتقشر طبقة طبقة، طبقة طبقة. وتلك هي المخاطرة، في هذا الشرط يبدأ خطر الانغماس الذاتي ذلك أنه في

اليوم الرابع تكفّ الإرادة عن المشاركة. أصبح توّاقاً لكشف أمري، تلك اللحظة التي يجب أن أختار فيها بين الموت والاستسلام. أنفر حتى من كأس الماء وأبدأ الغش. كل يوم أنقص منها جزءاً. ذات يوم لم أشرب إطلاقاً. في الصباح قلت سوف أشرب عند الظهر، عند الظهر ابتدأت أغش، تقاعست ثم قررت أنني سأشرب كأساً كاملة عند غروب الشمس. استلقيت في السرير إلى أن حلّ الظلام عندئذ قلت: لم أرَ الشمس تغرب.

ماذا أفعل طوال النهار؟ أراقب الهباء في الهواء. حين تنغلق العينان يملأ عالم كامل من الألوان قبة الظلام وراء الجفنين. في الصيامات المديدة تُستضاف العين المفتوحة إلى العرض نفسه على نطاقٍ أفسح وأرقّ. يتكسّر الهواء في دوامات من البقع الملونة. كل ذرة غبار في شعاع الشمس كوكبٌ ناري في المجرّة، له حركة مرسومة برصانة ومشبعة بمغزى كبير. في خَرَس الأصوات الذي يستبدّ بالحواس ينجرف الذهن بيسر إلى أمزجةٍ متتالية، يحذف المحيط والواقع، ويتبدد شيئاً شيئاً إلى أن يصبح واحداً مع ذرات الغبار في الأثير.

وحدها غروبات الشمس تثبت أنها لا تطاق، لفترة تخرس الأصوات وتتكثف الألوان وتصبح الغروبات قاسية وموحشة ودموية وآكلة لحوم بشر. كما لو أن شيطان النهار ينفذ أسنانه، ومن فمه يتقطر اللعاب، في حضن محظيّةٍ داعرة صاخبة، ومنه تفوح رائحة الدم المتخثر. على خلاف غيوم العاصفة التي بحوافها النحاسية وأعماقها لذهبية الفاتحة تشير إلى كهوفٍ وراء معابر الآلهة. تخبو النجوم إلى لا شيء، ولا يبقى سوى الصمت الذي أتى بها جميعاً.

أراقبُ تبدُّد جسدي بابتهاج أتبيَّنُ، غير أني لا أحظر، الرضا البشري الذي يأتي من الألم والخوف، القلق والشكوكية في عيون السجّانين حين يطوفون خِلْسة يحملون أوامر بنقل أبسط إشارة ضعف. شيءٌ ما بي، أغنيةٌ جماعية تبدو لي كإنسانٍ يضحك بعمق ويتلطّف، حين يتوقف أحد العناصر ويقول: «رجاءً، هذا غير ممكن. يجب أن تتوقف». يدخل المشرف الأول... «جئت كي أرجوك. أريدك أن تفكر بعائلتك، بزوجتك وأولادك» أنا أحتج: «لكن أنا سليم وبكامل صحتي». «أنت لا تستطيع رؤية نفسك. أنا أستطيع. كلنا نرى. أنت لا تعلم كيف تبدو. أنت هيكل عظمي حيّ».

من الغريب أن الأثر الذي يتركونه عندي هو أن أنفر حتى من كأس الماء تلك. في كل مرّة يأتي فيها المشرف الأول أسفك ما تبقى منها. قلقه يزيد من إحساسي المتنامي بالجبروت. لست بحاجةٍ إلى شراب أو طعام. وسرعان ما أستغني عن الهواء.

أتقبلُ وأسيطر على الهلوسات ونوبات الدوار القصيرة حيث فجأة تتحرك الجدران والأرض والسماء من حولي. وهكذا أعلم أنه ليس وهماً عندما، في أحد الليالي، تحريتُ حركة كائن أرضي بين النجوم. ركّزت فجأة وأنا أبحث وراء النجوم في بحيرة الصمت تلك على هذه اللطخة السائلة، رزينةً ومطمئنة ذاتياً في مدارها المسبق التحديد. هلوسة أخرى؟ كان العبور مقتضباً، استطعت فقط ملاحقة حركته من خلال نافذتي المقضّبة. مع هذا أنا متيقّن إلى حد بعيد أنني أنتظر مرة أخرى اليوم التالي والذي يليه. وأتذكر هويته. جسمٌ سماوي لكنه قمر صناعي بشري. اتساع اللحظة، لحظة اليقين، أصبح خالداً. في حين أنني محجوز وممنوع من أي

اتصال بشري مباشر، يصلني عبر الكون تأكيدٌ بشري، شرارة بروميثوسية لا تخمد تبعث على الفخر، بين أجسام ميتة، أطياف نجمية الشكل، آلهة خائبة، تزيينات مبهرجة في فضاء عقيم. غنٍّ واسبرْ واسألْ، أقبِّلُكِ أيتها الجسارة البشرية الساطعة. يا امتداد عينيّ وذهني القلقين، أطالب بكِ وأتشرَّبكِ. أحيلكِ إلى سُمٍّ من جلدي، إلى لبٍّ إلكتروني من إرادتي، تجوَّل... تجوَّل...

اليوم العاشر من صيامي. في النهار ذرة غبار في شعاع شمس. في الليل مكوك بطيء في الكون. ليل...

ليلٌ نقيّ، والقمر ينسكب في زنزانتي. قلت في نفسي، كفن؟ عدتُ مراراً إلى ليلة الضعف والتعب الأعظمين، إلى ساعات الاستلقاء، بلا حراك، على القبول الصافي الذهن تماماً بالفكرة القائلة: إنه غير مؤلم. يضعف الجسم ويتباطأ التنفس حتى التوقف. غائباً كان الخوف من أن قوة الحياة قد تدفعني إلى التراجع عند هذه اللحظة. لم يكن لديَّ أية فكرة مباشرة عن الموت، إنما فقط عن نهاية محتملة لسياقٍ من الفعل، شعرت الضعف في مفاصل عظامي وفي عظامي نفسها. لسانٌ جاف ضعيف يكشط الفم. شعرت براحة عظيمة في داخلي، بسلام موهَنٍ للكون وللعالم الذي داخلي، سلام «يتجاوز كل فهم» حقاً. كتبت:

أمسحُ جسمي

يتقدَّس الفكر في اللحم

يا زيت العزلة

أحشدكَ، كاملاً،

على شرفات الضوء.

فلينسحبْ الظلام.

أمسح صوتي

فليَعْلُ بعد الآن

أو لينحلَّ في معبره الوحيد

في فراغك. الأصداءُ

سوف ترفعُ أصواتاً جديدة عندما

من جديد ينهض الشيطان

أمسحُ قلبي

وأستلقي في لهيبه

يا رماد كراهيتك المنطفئ

أمِتْ الشيطان

في اليوم الحادي عشر لم يأتِ أحد. أظنّ أن السجان كان محترساً وحتى خائفاً عندما جاء يختلس النظر. أسأتُ فهم الأمر. حدث ذلك من قبل وكان لا يزال يحدث، يحدثُ حتى عندئذٍ. الآن فهمت لماذا أحالَ المشرف فردوسهم إلى يباب. فهمت عندما اندفعوا كالعاصفة إلى سردابي في اليوم التالي، اليوم الثاني عشر، يسألون ويهدّدون. حشرت نفسي بين الباب والحائط كي أخفي ضعفي.

مسافة بعيـدة، ارتفـاعٌ بعيـد يتوجّـب علـيَّ أن أنظـر منـه إلى الأسـفل وأفهم. كانت الأصوات والكلمـات والإشـارات واضـحة ومـع ذلـك نائية. وجود وجوه غريبة ومن بينها المشرف الأول أثار اهتمامي جـدياً سوى أنه لم يمسّني. رأيتُ وأشفقت على حيرتـه. كـانوا يتوقفـون عـن الكلام وينتظرون، وقفـات يـأس متنـامٍ، راقبتـهم يـصغون بانتبـاه إلى صمتي مع أن الشيء الوحيد الذي استطعت أن أفكر فيه هو: ولكن مـا الأمر؟ ماذا تريدون مني؟ وبأي حق تريدون مني؟

لا أحتاج إلى شيء، لا أشعر بشيء، لا أرغب بشيء.

أكانـت هـذه هـي الممالـك الجديـدة الـتي بحـث عنـها ذاك الناسك الحكيم، ممالـك اللاشـيء؟ أم أنـه تكلـم ككـائن مفعـمٍ بوجوده الخاص مزدرياً كل إضافة خارجية.

33

في البدء كان خواء. لا شيء. فكيف يعانقه الذهن؟ كخراب؟ كقفر؟ يسهل عناق اللاشيء ما كان. ولكن كالعدم الأساسي، كالصفر الأصلي الإيجابي؟ كالقطرة التي لا حدود لها في ما قبل التفكير، ما قبل الوجود، ما قبل الجوهر؟ لكن عندئذ، على الذهن الذي سيدرك هذا أن يفرغ دخيلته من إطار من الإرجاعات المتراكمة طوال الحياة، يجب أن يندفع من المنصّة الفيزيائية ليغوص في الهُوَّة الأصلية حيث تكمن، للأسف، الطاقات الخلاقة التي "تمقت الخلاء" أكثر من الطبيعة حتى، وعلى الدورة أن تبدأ مرة أخرى.

فوق ذلك حاول بلوتو، إذ لم يكن ثمة ما هو أسوأ عملاً، أن يكتشف الأنفاق حتى من العالم السفلي الميِّت إلى أحشاء أعمق من الفراغ. في أحسن الأحوال كان الأمر فاتناً: تقلصت الوظيفة العادية للذهن، والنهار هدأ في تخشّبٍ لطيف. في أسوأ حال كان يستلقي في تلك الحلقة الأقدم من الطاقات الإبداعية، يدور حول محوره، يعود أدراجه في غبار اللانهاية الرقيق...

الحياة: تلك التي وُجدتْ وكانت دائماً، الحياة، أي تلك التي قال الله: فلتكنْ. لماذا؟ لأنها كانت دائماً داخل ذهنه المتحول، داخل شكل لم يتشكل، حركة لم تتحرك، زمان ومكان لم يكونا مع أنها جميعها كانت محتواة كلياً وعلى انفراد، ملفوفةً ومُصاغة في ذاك المنشأ العظيم غير المتبلور، نبض، نَفَس، مصدرٌ خنثوي للمادة والجوهر. حتى، معاناة، أنا لا أبحث، أنا أكتشف: نقَّبَ في الداخل وأمر: كُنْ! باللمس، بالرؤية، بالشم، بالسمع...

ما هي إذن، ما هي هذه الحاجة لإعطاء الفكرة المحض وجوداً مادياً في نسخة فقيرة من الطراز الثاني كمجرد تظاهرة خارجية منها! لمَ كسر الشرنقة اللامرئية للجوهر، تلك الحقيقة الحصينة الوحيدة؟ هي الحقيقة، لأنه لم يكن هناك نسخة أو تكرار أو صيغة خاطئة عنها، لم يكن هناك حتى مجرد تصور من عقل غريب لتلك الفكرة المحصنة؟ لأنه لم يكن ثمة عقول أخرى. لا مُزوِّر. ماذا كانت تلك الحاجة إلى إعطاء الفكرة وجوداً مادياً؟ اللايقين؟ الذات؟ النرجسية؟ إعادة التطمين؟ الكتاب المقدس قال: الوحدة. الخوف من أن الفكر لا شيء، والخوف من اللاشيء الذي لا يمكن تسكينه إلا بجعل الفكر يتمظهر.

حين جاءت الحمائم في البداية، احتجز بلوتو الزخرفات التي تركتها حركة جوانحها في الهواء، تحترق متوهجة كأنها تقتفي أثر خالقيها بعد رحيل خالقيها بزمن طويل. ومخافة أن يهاجر الحمام حين تتغير الفصول ولا يعود، تحرَّك بلوتو في الحال كي يفطم العقل من اعتماده على جمالية طارئة كهذه. حجرٌ ملقى على الأرض، أملسٌ وبيضوي، مخدّد ببراعة كما لو بأيدٍ بشرية، يذكّر من بعيد بالوشيعة. عاطل غير أن بلوتو شرَّبه بتطريزات المصائر والفصول، نفذ إلى اللبّ وتوج خموله اللامحدود بإبداعية لا محدودة، تنفجر من ذاك الحجر بجوهره النيِّر النقي. ولأن الأقواس والحلقات التي رسمتها أجنحة الحمام قد تحللت أخيراً، بسرعة تجعلها تبدو للشاهد مجرد فعالية في الزمن. انهارت التصاميم ذوات الريش وفقدتْ إيقاعاتها الشكلية عائدةً إلى الأرض في شرارات كالمطر. وأحالت السرداب أكثر عتمة من حاله السابقة.

عدم الخلق أو التفكير أفضل. التأملات تترك السرداب أشدّ عتمة. الإبداع اعتراف بعزلة هائلة. اجعلْ من العقل نَوْلاً لشباك العنكبوت، دعِ الوشيعة التي صقلها الزمن في موطنها: السرمدية.

لا أحتاج إلى شيء، لا أبحث عن شيء، لا أرغب بشيء.

ليس حتى الوحدة. خُلقتْ فوضى اسمها العالم كي تخدع عزلة الجوهر المحض الوحيد. بذا يشهد الكتاب المقدس ويزوِّر الأمر معتبراً إياه فضيلة.

العنكبوت السمين، اللطخة البغيضة التي توسخ الجدران بمصائد الذباب وجرابات البيوض، تنحلّ إلى تزيينات هندسية فجأة، ساعة تشاء. تجمع الغبار والأوساخ وسرعان ما تمتلئ بذباب مقزّز قذر. يجب أن يكون الذهن الوشيعة والنول ولكن في هدوء ميت، ففي بيت الموتى الحياة هي المبدع الوحيد، إن ما يحرّض ويدفع، ما يظهر نفسه هو بالتأكيد عمل ذاك الذهن. فجر وظهيرة وليل وأقمار من صنع البشر. ولكي لا تشك به أرواح العالم السفلي وتكشف أمره سوف يرتدي ثياب الموتى كالموتى ويعتنق الشكل الخارجي للموت، سوف يبرّد ذهنه إلى النبض اللامسموع لعطالة الموت. وشيعة في راحة أبدية كما لو أنها في عتمة يدي امرأة عجوز ينسدل جفناها وينسدلان حتى وهي تحيك كفن الموت للعالم القديم ولفافات عالم جديد يستيقظ، ويداها المتعبتان الخارجتان من التراب تغوصان في حرجها ببطء. لماذا إذن تنسج وتجمع الغبار والوسخ في حين يسكن الشكل اللامتسخ النقي في الذهن؟

لا أحتاج إلى شيء، لا أبحث عن شيء، لا أرغب بشيء.

... لكن ذاك الناسك لم يتكلم في فراغ، كانت كلماته موجهة إلى روح حيّة، لا شيء... لا شـيء... لا شـيء، أي لا شـيء عـدا مـا يوجد حولي، عدا ما يوجد حولي، عدا هذا الإنجاز المقتـضب في فرصة تأكيد متجددة، ببساطة لا شيء.. لا شيء.. لا شيء. ولو أنه لم يردّ على السائل، لو أنه لم يتكلم ونأى بنفسه ببساطة وغاص إلى ملاذٍ عميق في لا وعيه النيِّر (أو المموِّه) لكان حتى هذا السلوك من التأكيد المتجدد، هذا «الاستغناء عن كل شـيء»، عارضـاً عزيـزاً، علاوة على استفسارك. لأن ذلك حدث بالفعل. حاجتك الخاصـة، فضولك البشري، صوتك، شكوكك، إحسانك الصلف. مـا خـلا السماء والأرض والحبوب والحياة والعيش، خيار الإرادة الحرّة في ألا تحتاج إلى شيء، لا تبحث عـن شـيء، لا ترغـب بشيء. أنـا أعرف النسّاك. حتى /مالاريبا/ لم يكن حقاً في وجود عدمي، كان يوبّخ ويروغ من الأصدقاء والتلاميذ والأقارب والحواريين (ويغفـر لهم وينتقم منهم). حتى حنا المعمدان ليس استثناء.

تحركت روحه بين غيوم رصاصية عبر حَبَل الميـاه، عـبر الميـاه القلقة الموحشة. يعسوب، حشرة ماء ذات سوق أملوديـة، شـعاع واهٍ من مادة يبحث عن شـيء يقـوده إلى حيـث ابتـدأت الطفـرة البطيئـة، مستفزّاً تلك الغازات الخاملة التي تحركت نحو الأميب الأول، يحـثّ ويحرّض ويلتمس هذا الحفّاز الخفيف اللامـتغير. أخلـق وأخلـق مـن جديد بالتناغم مع ذاك الذي ينغلق وينفتح من حولي. فجـر أو غـسق. ظلمة أو نور. قضبان اسمنتية وبوابات من حديد.

ترتفع همهمة من البوابة التي في جدار الجَلْد. اكتشفَ أنهـا تـأتي من مسوخ كانت عيونهم على روحه القلقة بين الغيـوم، ومـرة أخـرى خفضوا رؤوسهم وهزّوها وهم يحدّقون في أرض الانتظار...

أتجرؤ على الزرع؟ هل سينتظر المشرف مرّة أخرى إلى موعد اقتراب الإثمار كي يصدر أمره الداعر بالتدمير؟ أتعتقد أن الله قد عاقبه كفاية على ذلك الفعل الشرير؟ نظروا إلى البقعة القاحلة حيث انتصبت الجوافة مرّةً. ومن وسطهم علَتْ تنهيدة.

... أوه يا قليلي الإيمان. غير أنهم كانوا ظلالاً لا رجالاً حقيقيين. ألفاظهم الخائفة تكلمت، حقاً، في تيارات خفية من الأمل وجَسَرتْ هوّةً. نبتة جديدة من البشرية تنبجس من تربتهم العقيمة. ولكنّه مع ذلك دعاهم مسوخاً، قائلاً إنهم تشكّلوا قبل أن تتشكل أدمغتهم. العقل هو الزمن. وعلى هذه الالتماعة أراح الآن مسألة اللانهاية أخيراً. العقل هو المعامل الوحيد للمكان والزمان.

أخمده يا بلوتو، أخمده في قطنٍ كتيم سميك.

أثر رطب على جبهتي. مطر.

34

أخـيراً اتخـذت الـسماء يـداً. بـالمعنى الحـرفي. أبتـسم. هـل يفترض بي الآن أن أؤمن بالعناية الإلهية؟ فبينما أجلس، في الفنـاء أحدّق إلى الذباب تحت شمس ساطعة، تهاوى شيء أسود خفيـف نازلاً من السماء واستقر على بعد قدم واحـدة مـن قـدمي. رفعـت رأسي فرأيت في السماء غرابين يغيبان في الأفق. كنت قـد سمعـت نعيقهما قبل لحظات فـوق رأسـي. عنـدها لم أتكلّـف رفـعَ رأسـي والنظر إلى هـذه المخلوقـات الـتي كانـت منزلتـها في عـالم ذوات الأجنحة بالنـسبة لي أخفـض بدرجـة أيـضاً مـن منزلـة النـسور. لم يخفق ذاك الشيء في إجفالي وترك أثر لدي، فهمت قيمة الريـشة، وكانت من القوادم، ولم يكن لها من العمر على الأرض أكثـر مـن دقيقة واحدة. تركتها ملقية حيث هي طوال ما بعد الظهر وأنا أفكـر. حقاً ينبغي أن أؤمن بالعناية الإلهية. وحيـداً في فنـاء سـجن كـبير ـ كان عالمي مقصوراً على هـذا ولم يكـن ثمـة أدنى فكـرة عـن ذاك العالم الخارجي، المدى المفتوح لحرية الطائر ـ ولكن حتى داخـل السجن كان حدثاً انتقائياً خيِّراً أن تحط الريـشة الـساقطة في أصـغر فناء، عند قدمي الشخص الذي كان بأمسّ الحاجة إليها.

بعد أن تشربت أخيراً هذه الهدية، ابتـدأت أشـحذ ظفـر إبهـامي على أحد الحجارة. في الليـل جعـل ظفـر الإبهـام مـن القادمـة ريـشة كتابة. نبشتُ مخزوني مـن الحـبر الـذي نجـا مـن التفتـيش وتوقفـت. أضيف هذه المعجزة الـصغيرة إلى آلاف المـزاعم الأخـرى حـول الله والعناية السماوية. إنه تمرين هادئ وبارد يستمر حتى وقت متـأخر مـن

الليل. لا عجلة في النفس ولا نهوض في الروح. الحجج قديمة وما من جديد ذي شأن سوى سقوط هذه الريشة التي كنت في أمسّ الحاجة لها. وأخيراً تنحّى هذا الموضوع المهترئ الذي كثيراً ما عذّب العقول، لصالح تقديرٍ متعجّل للغراب اللطيف المسامح. إنها المهمة الأولى للقادمة التي تثير النفس كنعيق الغراب غير أنها تكتب:

نار
من إثمد في الشمس
عرفٌ قاتم يطفر مَرَحاً
من زرائب صلوات صامتة

ألقى
بهديته الوحيدة من السماء
مطر من جمرات نارية ـ فقد
ازدرى النظرة الغنائية

وطار
في طريقة الوعر
ولكن الموضوعة النيئة تصوّت،
على نحوٍ جديد من حنجرتك التي
تحيطها هالةٌ ـ
كأبواقٍ من الثغرة العالية في جدران
القربان
(قادمة غراب).

35

خثارةُ كل الأرواح. كل الأرواح تلتقي في نهار كل الأرواح، أشباحاً رمادية وليل. نهار بعد نهار من نهارات كل الأرواح، اتحاد، قبةً خانقة وغمٌّ كاتدرائي، غيوم شحمية من القناديل ولكن دون أي لهبٍ وامض، دون أي قدّيس مشرّب باللون في نوافذ يؤطرها الرصاص. نعش رصاصي، ركامات من الغيوم، أقدام ثقيلة للنادبين، أكفان رمادية، رعشة أرواح في شعائر المقبرة.

رطوبة ومضائق من وَدَك، أسطوانة مهترئة قديمة عُزِفَتْ في حجرات حزينة من غراموفون مغمور يئزّ عبر موانئ صدئة، أصوات ميتة، امتصاص أقدام لها وترات بين أصابعها، في وَهَن حركةٍ. أصوات غارقة متقطعة لأقدام رخوة داخل كهوف زلقة. ورطوبة إسفنج مشبع كي يصدّ ومضات الضوء.

السماء سمكة بلا أعين، بلا زعانف، متورمة وميتة ومرمية على مستنقع، كتلة خاملة رمادية انتفخت كي تحجب سماء الحياة. عَرْطلٌ مترهل ميت دون رائحة أو نتن، خداع أكمد مملوء بظلٍ لا متناهٍ من نفسه، تيارٌ كَسِلٌ تحت سطح الماء، كتلة موتٍ موهِنة. هذا الستار من اللّثى الخام يستسلم تحت ضغطٍ خفيف من شفرةِ فكرٍ مثلومة ويندحر بحركة ثقيلة إلى مكانه. ما من شيء ينفذ إلى الجسد الضخم اللامتبلر، لا شيء يكسر جلده الذي من نعاسٍ أبدي. وحالات استجماع الإرادة وجيزة، دفعات قصيرة العمر من اللاجدوى. إنه نهار الجزام، نهار أعماق متعرّجة لا اسم لها، ورعب هجين.

يمضي الزمن عبر خثارة هواء وماء جثةٍ، ينجرف عبر كون مجرّد حتى من الصدمات والنار، نظيف من الضجيج المحطّم، نظيف حتى الضجر من معالم الذاكرة، لا السقوط الحر ولا الاضطراب المعذّب للومض الأبدي يتقدّم كي يدفئ خَدَرَ الأصابع والأسنان والآذان والعيون وتلْمّس اللسان الراحةَ في وضح الصوت. إنه ليس التصنيف الغني الشامل الوعي لحدود الفرد، بل استنقاع مائي، ضياع المرساة في أبخرة مستنقعية طاغية، اندحار روابط واهية باللاشيء. لقد تحول الزمن من نفيه الشامخ لكل اتجاه، إلى دارةٍ زلقة من بصمات متسخة، متقوِّضاً في السجن المقضّب للمعاني اللحظية، غائصاً في الرِداغ، في ترسّب تدريجي في مِمْخَضَةٍ رخوةٍ داخل فراغٍ مُخْمَدٍ مرقَش.

كهوف مظلمة، ومضات كئيبة تتفشّى في شقوق جدران البحر القائمة في وجه المستنقعات. أشكال واهنة تعبر وراء فوهة كهف بعيد. سحلية تتسطح على الجدار لا عون لها في السائل المتقطِّر. خندق مائي حول مسكبة خسٍ محقرة مجدورة بنفايات من فروعٍ ميتة تحت قنواتٍ متآكلة على منحدرات أكمةٍ رثة. يطلّ الإذعان بغباء من عيني السحلية. جرسٌ رطب يدقّ خلال حواف الوعي، ضربات من التراخي لا يمكنها أن توقظ شيئاً، ولا حتى أصداء.

لمعان رصاصٍ على الأسطحة، طلاء خادع يبدو أنه يقطر قطرات رصاصية رمادية بعد وقت طويل من توقف المطر. إسفنجة متغضّنة من التوتياء تمتصّ الرطوبة من الهواء حلّت محل الأفق الذي اختفى والسماء التي ابتُلعتْ تجلس، لوحاً متجمداً، حضوراً طاغياً مقعياً يفتقد، مثلما هو عالمي هذا اليوم، التعيين في فضاء لا وجود له.

36

مع الأمطار تبدأ الجولات الافتراسية. انفجار عنيف مقتضب ذات مساء وطبلٌ من البَرَدْ. إنها نهاية الهارمَتان. يسقط البَرَد على مدى ساعة ثم تندفع الرياح في مسارها نحو الجنوب تاركة خلفها تربةً رطبة عميقة وعذوبة منعشة في الهواء. ومن سُبات شتوي طويل ينبثقون: خنافس، نمل طيّار، ذباب، فراشات، سربٌ عنيف من الأجنحة الهشّة تصارع المصباح الوحيد على السارية. طنين صاخب عنيف وأعمى من النوم الصامت الطويل كقِرَب ماءٍ على واحةٍ حديثة العهد، تبدأ قنوات حياة كاملة بالتورّم. زُبانيات، مخالب، براثن جافة متوترة، زُبانَيات تتورم استعداداً، ودروع تلتمع، أسلحة الحياة من أجل جولة طويلة من الافتراس.

يدخل سيد الغاب. إنه مُسرِفٌ، هذا الشبح الملكي، هذا الشبوط وسط أسماك صغيرة قلقة. شيء حقيقي جداً. للأسف، ليس له سوى عين واحدة. سبق لي أن سمعته، حتى أني فزت بلمحاتٍ من كيانه الملتبس. ولكن فقط كظلٍ في الليل، شبحٌ ضارٍ مرعوب من /كرونوس/ ملك الفترات الزمنية في العالم السفلي. كنتُ بالنسبة له مُهلِكاً كالجزمة التي غالباً ما شعر بها، الرفسة الغاضبة من أمبروزي حين يراه يشمشم الفضلات. لقد تعلم الأصول من مشرف الفضلات النبيل، أمبروزي، تعلّم أن يمد رأساً مستقصية ثم يمدّ قائمة بعد الأخرى عبر فوهة تصريف المياه متيقظاً لصوت أو رائحة عداء، عندئذٍ ينطلق كالبرق على طول الجدار ويلج العتمة النائية تاركاً ضريبة من الوبر المنتوف على

القضبان الحديدية. مع هطول الأمطار يستعيد الملك الضرغام اعتباره. ملك أعور مقدام ومنحطٌ في عالم الحشرات. ها أنا أشهد المنظر المخزي من انحطاط السنّور.

الهرّ، سواء كان أليفاً أو بريّاً، يتحرك بجلال لا مثيل له في عالم الحيوان. تعاقب للمحاور العضلية على الكتف وتدفقٌ متواصل من الحيوية المرنة حتى في لحظة الثبات. الهرّ في الظلام حضورٌ وبَريّ نابض بالحياة، رهيب وراء احتراق زمرّدتيه، فاتن في العتمة..

النمر، النمر، متوهجٌ ألِقٌ...

أوه يا بليك[1]، بليك البائس، لو ترى الملك الضرغام! إلى غابة الجدران هذه حيث نحن جميعاً تشدّنا أية حيلة للبقاء، يخطو الملك ببدنه الضئيل ولكن الدقيق المتناسق، الملك الضرغام يخطو جليلاً من أرنبة الأنف إلى الذيل الساعي الهزّاز. ولكن ذلك فقط من الجانب الأيسر. البروفيل الأيمن منه قرصان وحشي شرير بغطاء أكمد على إحدى عينيه أسوةٌ بأسلافه القراصنة.

سَيْرٌ حَذِر. جثوم. انقضاض. الغنيمة: خنفسان أو سرغوف مبتهل. ولكن لا شيء أبشع من صوت وليمته الفاخرة. قرمشة تلذّذٍ نَهِم مع، أقسم لكم، تلمّظ متشامخ بعد أن يتقوّض الجناح الأخير من الحشرة. وبعد تمطّق فمه المُغثي يقوم هذا الأسي وحيد العين بمداعبة بطنه ذهنياً، قد يكون هذا مجرد تخمين. ولكني أقسم أنه حقيقي. أرفع ناظري إلى السقف كي أمحو المشهد.

---

(1) وليم بليك (1757 ـ 1827) شاعر إنكليزي حالم ورسّام ونحّت. من كتب قصائده «أغاني البراءة» و«أغاني التجربة». كان بشيراً بالرومانسية. م.

ثمة، على عارضة السقف، ضارٍ آخر ممطوط في حالة انتظار، إنه وَزَغه، عينان خرزيتان بارقتان في حالة تفتن على الدوام الضحية الغافلة. المصباح الكهربائي ينير الرأس بشدّة ويردّه إلى أسلافه البرونتوصورات، عيناً نُوتيّ قديم وامضتان كبيرتان. تأتي الذبابات إليه وحدة إثر الأخرى دونما مقاومة، تدخل ضمن مجال تينك العينين السحريتين، ينفتح فكاه ويمتصّها عبرهما.

تبدأ خليلته زحفاً بطيئاً نحو السرغوف المبتهل، العينان ضوءان أماميان لدبابةٍ مصفّحة. الآن تمكث دون حراك على قطعة من العارضة قريباً من السرغوف الهزّاز الغافل. مشكلتها في وضعها ذاك كيف تلتف حول السرغوف بسرعة كافية لتلدغه قبل أن يتنبّه ودون أن تفقد تمسكها بالعارضة، فدونها نمرٌ، نمرٌ أقل إتقاداً، يواصل تصيّده المهيب للخنافس. وفجأة يحطّ إلى جواره تماماً شيئان مترابطان: سرغوف ووَزَغة. يفز الضرغام إلى الخلف طيراناً، بتأثير الرعب. الوزغة لا تشعر بالأمان أبداً طالما هي على مستوى الأرض، تستعيد وعيها في الحال ولكنها تسرع وتتسلق الجدار تاركة خلفها مِظلّة بيضاء ضاربة إلى الخضرة رديئة الإطلاق فقد انشلّ طيران السرغوف. من مسافة أمان يستعيد الضرغام طمأنينته ومع ذلك يقوم بتأدية حركات الحذر حتى وهو يقترب من الفريسة المشلولة. سيرٌ حذر، حذر، قرمشة، قرمشة. تلمّظ!

القمّامات لا يتوقفن عن العمل. البقّ المنتن، النمل الطيّار، الصراصير. جيوش النمل التي لا تكلّ تسحب الخنافس الميتة أو المحتضرة التي أهملها القرصان، إلى معتزلاتٍ تحت الأرض. تسير فوق ضفاف ناهدة من رملٍ ناعم برفقة جنود ذوي رؤوس ضخمة، وعلى مداخل دهاليزها توجد كومة من الأجنحة المنسّقة

تحركها النسمات حركات خفيفة فتبدو مثل أشباح حارسة على مداخل العالم السفلي. يخفت رفيف الجوانح حول المصابيح المضاءة. غرقتْ في دلو التسخين أو امتصتْها الوِزاغ أو ازدردها القرصان أو ماتت بتأثير أزيزها المجهد الطائش، خصوبةٌ ضاجّة من قوَّة الطيران هبّتْ تلبي دعوة الأمطار، تتلاشى إلى حشرةٍ أخيرة وحيدة تزحف على المصباح الكهربائي، في النهاية تُنقل الجثة الأخيرة على أكتاف لا مرئية إلى مستودعات خفية، يسقط جناح وحيد على كومة المدخل من أجل خطط بناء لاحقة.

شيء واحد بقي بعيداً عن مهرجان الضوء، إنها فراشة مفارقة. حضور لطيف وكسول ومكسو بالذرور بقيت حيث هي على الجدار غافلة عن اللغط الذي دار من حولها. أخيراً تحتجب عينا الوزَغَة ويتمدد بروز كرشه على العارضة في تخمة واضحة. انتهت جولة ليل المطرة الأولى.

37

يأتي النهار بالرجل ذي الدعابة اللامحدودة، ذكر الضب. رأس بارز من عجينة ورقٍ بلون برتقالي، واضح أنه صنعي. وبدلة نيلية تمتد حتى الذيل الذي يعود برتقالياً حائلاً. لا مجدَ له في مجال الصيد، ويفتقر حتى إلى الفخامة المخذولة للقرصان، تراه يركض بسرعة كبيرة ودون توازن وراء ذبابة فقط لكي يقوم باستدارة كاملة وينخرط في مغازلة عارضة مع أنثى شهوانية، تهينه بسخريتها وتستفزه إليها بذيلها المرفوع وفتحتها الباخِرة وهي محنية الظهر في مزيج من الانتظار والحيطة. سوف يعود إليها ثانية ولكن الآن عبرت فراشة ترفرف بجناحيها على ارتفاع أميال من رأسه. انتصب رأسه إلى اليمين مرّة ثم إلى اليسار، وتدحرجت عينٌ ثم الأخرى في أملٍ بادٍ بلقمةٍ هي أبعد ما تكون عن مدى تناوله.

تسافدا دون انقطاع، وغدا لسرداب مشهداً جنسياً فاحشاً. وكان سوف يغدو أيضاً ملاذاً للضِباب غير أن أمبروزي حين تغلبه روح الضجر يطاردها بالحجارة والهراوة ويقتل أحياناً ثلاثة أو أربعة منها في نوبةٍ واحدة. أسأله. لا، إنه لا يكره الضِباب. يكوّم الأجساد ويشير بفخرٍ إلى حصيلة اليوم.

يقوم برتقالي الرأس الآن بمحاكاة الوَزَغة على نحو سخيف. يندفع متسلقاً شجيرة الليمون ويفرض نفسه على أحد أغصانها، على طريقة الوَزَغة، ثم يُفسد هذا الكمين الوجيز باندفاعه إلى غصن آخر ليكون على مستوى واحد مع الفراشة التي تابعت حومها، بحكمة، بعيداً عن متناوله. إنه، حقيقة، يخفي رأسه

تحت بضع ورقات على هيئة تفتقد أية حكمة من حكم خدع التمويه، طبيعي أنه نسي جلده المحرشف الأزق المتسخ وذيله البرتقالي الصارخ. الفراشة اختفت منذ زمن بعيد، برتقالي الرأس يواصل انتظاره، وقد أعمى نفسه عن الرؤية تماماً بحيلة تمويه في غاية الإحكام.

ينزل أخيراً ويعزّي نفسه بوريقات الخس التي يقضمها بنوعٍ من التلذذ العصبي. عندئذٍ تهبط فراشة - هل حسبتْ البرتقالي بين الأخضر زهرةً من تلك المسافة؟ وتغدو على بعد إنش واحد منه، تدرك خطأها وتجمع نفسها في مسعى للانسحاب ولكن السيف سبق العذل. يلتقط البرتقالي الرأس طرف الجناح، يمضغ بصوتٍ مرتفعٍ هدية السماء هذه التي لم تكن، بالتأكيد، ثمرة مهارة أو حنكةٍ منه، بعدئذٍ يقوم رأسه بحركة سريعة متوترة تمسح كل الاتجاهات. يلتقط نتفة ساقطة من جناح، ثم يعود إلى الخس.

لا شك أن للفولكلور أسبابه التي تفسر حركة رأس الضباء إلى الأعلى والسفل بلا انقطاع. أو تفسر حركة السرغوف المبتهل. مهما تكن الكوارث الرضيّة التي نزلت بأسلاف الضّب والتي لا يزال تأثيرها حتى الآن، فإن الضّبْ سيتطهّر منها ذات يوم في اجتماع ضبّي عظيم. المشهد الآن لتجمع عشائري من شيوخ الضباب الخَرِفين يشمّسون حراشفهم ويدللون بطونهم الحسّية على الدغدغة الخشنة لسطح الجدار، محركين رؤوسهم التي تشبه ثمرات القرع المهروسة، بحركة توازنٍ سكرى كما لو أنها على عربة في موكب ريفي تسرقه من مكانه بين الضواري الأعلى. حين «يتسطّح» فإنه لا يعدو كونه ولداً يلعب الغميضة.

على أية حال، يبدو البرتقالي الرأس على رأس الجدار حيوان

في حالة تحوّل كبير. يبدو قد تحوّل عائداً إلى تلك المملكة قبل الجليدية الخبيئة وهو بين الأشواك الحادّة من شظايا الزجاجات التي تغطّي كل تدرجات الألوان من الزبرجد إلى الكهرمان والأخضر. وحشٌ برمائي ينصب رأسه الحديدي المسطّح فيبلغ بسهولة أعلى قمم الأشجار حين ينهض على قوائمه ليتفحّص السماء والنفايات المستنقعية. تمتزج هذه الرؤوس المخروطية المثلّمة النهاية مع الحرش التكعيبي، مشهد من تدرجات اللون الأخضر في تنويعات من الصبّار المستقيم الحافة، ناميات موشورية تندفع رؤوسها الخشنة لتشكل أفقاً من شعر منتصب. وتدٌ مباغت من البرتقالي والأزرق الفولاذي يقوم بجولات متعرّجة بين الموشورات الكثيفة. ومن حكّ السماء هذا تأتي أغرب موسيقا وَثبٍ، رنين شرقي لأنابيب فارغة حين تضرب حراشف الضّب لوحَ المفاتيح الزجاجية بسرعة عالية، وقد تخلخلت معظم الزجاجات سلفاً في سريرها الإسمنتي. وحين تجري مبارزة بين الوحوش، تكون دائماً ضرباً في جزءٍ منها وهروباً ومطاردة في جزء، يستمر اللحن طويلاً، موسيقى حقيقية من كواكب سيّارة تنتقل عبر مدارات شمسية للنغمات الرقيقة وتتآلف حين تضرب الحراشف مفاتيح متوافقة أثناء صراعٍ بدائي.

تنزلق الشمس وتصبح على مستوى الجدار ثم تغوص شيئاً شيئاً بعيداً عن الرؤية. الآن تتوازى أشعتها الخرساء مع الإسمنت، سمفونية الشفق للضِباب العملاقة، فجر العصر الجليدي الأول.

أنا أجلس أمام موت الألم. سماء نحاسية حمراء بأعماقها الزرقاء الرمادية تعكس المستنقعات البدائية الخبيئة القصية. وقد ابتدأت الأنهار الجليدية نموّها المستسرّ، نوازل جليدية ضخمة

تنمو من الجانب الشديد الانحدار من الوادي، جيش بارد من المخاريط يندفع إلى الخارج في محاولة لا ترحم من أجل الحياة، أي أنه يتوازن نحو جمود نهائي، موشورات كهرمائية وخضراء وزبرجدية وصفراء شاحبة، تأسر الشمس المحتضرة وتضعفها وتدميها عبر مئات الكواسر الضوئية.

صياد يزحف على طول الجدار، المسخ أمبروزي، يدخل. سارعت الضِباب العماليق إلى ملاذٍ لها بين الحراب الجليدية حيث تعلم أنه لا يستطيع اللحاق بها. إنها لا تفهم ولكنها سلفاً تخاف الإنسان. تصدر رهافة حزينة ناعمة على نحو غريب حين تهرب، متتالية من النغمات الكئيبة من أنابيب أرغن عذب، وحين يطاردها الإنسان قافزاً وسائطاً بالسير الجلدي لهراوةٍ صقيلة، ينزاح المزيد من الكتل الجليدية وتسقط في أعماق الوادي مصدرةً رنيناً مؤسياً. أمبروزي الآن متوحّش. يركض أعلى وأسفل الجدار مرغماً الضِباب على التراجع والتقدم خلال الحراب الجليدية. صياد آخر زميل يردّها حين تهرب لتلوذ في الجانب الآخر. تتال سريع من النغمات، أصوات طبول خشنة، هجرة مذعورة للجراشف نحو غروب الشمس. أمبروزي يسيء الظن بفجوةٍ في الزجاج فيتسبب في طيران شرارة. وعالياً على صفحة السماء ينفجر نزاع مهلك في هياجات لون جديدة، تحلل لوني يبهر ويصمّ، ينهمر في شظايا رطبة بدائية من التصادمات المحتشدة الأخيرة للشمس.

ينهض اليعازر ويدخل السرداب الداخلي وينتظر تدحرج الصخرة إلى موضعها الليلي.

38

لا بد أن ألعابي مع الرياضيات جاوزت الحد في لحظةٍ ما. فقد أوغلت في مناطق تضرب أكثر فأكثر في اللامعقول، وعند نقطة معينة وصلت إلى شفا المبادئ العقلية، إلى مناطق مَرَضية بالتأكيد. لا تزال ذكرياتي على تلك المرحلة ضبابية ومخيفة بعض الشيء.

فتنت بالزمن بصفته مقياس، بهيمة حمل، رحم ولحد. وابتدأ الزمان يحيك اختلافات جديدة حول أرقام ورموز تماريني الجبرية. ابتدأ الأمر، كما أظن، بفكرة تفترض أن الزمن يرتبط مع شريكه في اللانهاية، المكان، ارتباطاً وثيقاً. ولم يستدعِ الأمر مني سوى اكتشاف المبدأ الرياضي الصحيح. من المفروغ منه أن هذا المبدأ كان في مدى الإنجاز البشري، فالمسألة مسألة وقت لاكتشافه ليس إلا، والوقت كان سلعة فائضة عندي. ولم أستطع للأسف تذكر صيغة أنشتاين في النظرية النسبية غير أني واسيتُ نفسي بفكرة أنها تتعامل مع جانب ضيق جداً من الزمن. لقد كانت مشكلة مثالية من زاوية استهلاكها للوقت فهي مستحيلة الحل تماماً، أما بالنسبة إلى عقلٍ مصاب سلفاً بميول تشدّه نحو التركيز الحصري المثابر، فإن فكرة ارتباط الزمان والمكان رياضياً في مفهوم اللانهائية، كان أحد أخطر التخيّلات.

كنت دائماً على حافة تحقيق اختراق. فقدت ساعات من نومي أستهلك الوقت خلالها استهلاكاً أنفع للصحة من النوم. حتى الآن أدري بالضبط كيف انتهى ذلك، الخربشة الوسواسية

المسعورة في الليل والحسابات التي تزداد طيشاً في النهار، الطيران الإعجازي للوقت، انمحاء الواقع والبيئة الملموسة والمحيطة بكامله، عدم احتمال الطعام وضياع وعيي بشخصي. لقد حَفَرتْ هذه النزوة المفهومية عميقاً وواسعاً في تربة ذهني وتبرعمت درناتٍ سامة تنفجر من حين إلى حين وتنشر أبخرة مستفزة في ممرات ذهني.

انتهى الأمر على نحوٍ ما. ذات يوم، بعد وقت طويل، فتشتُ في مخبأي عن بعض الأشعار المفقودة واكتشفت كميات كبيرة من ورق التواليت وأوراق علب السجائر ومواد الكتابة الثمينة الأخرى تغطّيها معادلات لم أستطع فهمها، رموز لم أستطع ربطها مع أي مفهوم أو قيمة كميّة ولم أسترجع على الإطلاق متى أو كيف بالتحديد كُتب كل هذا، وفي أية مرحلة من التيهان، ومتى أو كيف خبأتها. خفتُ وأتلفتها جميعاً وابتدأتْ مرحلة مراقبة ذاتية على سلوكي وأفكاري ودوافعي، ورحت أراقب الحرّاس أيضاً لأتحرّى عن أية علامة أو تبدّل في طريقة نظرتهم إليّ.

تدخل أربعة مخلوقات. ميكروبات ولكنها مَحْيِيَّة بموهبة توجيه الأسئلة. عمَّ تبحث؟

ذهني وعيٌ مبطنٌ بالقطن، يمتصُّ كل شيء، لا يبدع شيء، لا يبدع شيئاً. في موات السرداب أجلس تحت الشمس بلا حراك وأنتظر.

ذهب الباحثون. جاؤوا يسألون ويستقصون ويلحّون. أنتم تبحثون عن العصفور الذي طار. لا أحتاج إلى شيء، لا أبحث عن شيء. لا أرغب بشيء.

صرخات، تهديدات، تزلُّف. يا لها من ميكروبات مواظبة. ورقةٌ ما في أقصى الأهمية ترفرف في يدهم. تضاءلوا، حتى جاء المشرف الأول وحده أخيراً. هل تظن أنك تتعامل معي بإنصاف؟ أنت تحمي أحداً ما ولكن هل خطر لك من تدمّر في طريقك هذا؟ لديك عميل هنا. نحن نعلم أنه واحد من الـ...

الملائكة الحارسة بهراواتٍ لاهبة؟ حتى بوابات الجحيم قد تتصدع. طار العصفور، ولن يحطّ الآن. هل يمكنكم أن تضعوا الملح على ذيله؟

كنتُ لطيفاً معك. حاولت ما أستطيع كي أجعل هذا المكان مقبولاً. أشفقت عليك في محنتك وأعطيتك امتيازات... امتيازات! أخيراً ألقى موعظة. غيظي سماوي ولكنّي أعيره انتباهي. أنا أذكره. إنه الرجل المحترم وليس ذاك الصفر الأول، ذاك الخواء المبتسم أصغي:

«بادلتني الخيانة بالثقة. أنت تقول لي الآن إنني أخطأت عندما كنت إنسانياً معك. أنت تعلم في أي ظروف رأيتك هنا. شعرت أنه من غير اللائق أن يخضع أي كائن بشري لشروط كهذه فخففتُها عنك قدر ما أستطيع، ولم أجنِ من ذلك سوى الاستفسارات. لا أعرف من الجواسيس الذين هنا أو من الذي ينشر الشائعات عن تساهلي معك منذ أن تولّيت منصبي هنا. حتى أن هيئة الأركان أرسلت لجنة تحقيق. جاؤوا بروايات تقول إنني أسمح لك بالتنقل بين النزلاء الآخرين وأنك تدير صفوفاً وتدرّس الفلسفات الهدّامة. طلبت منهم أن يذهبوا ويتكلموا كما يشاؤون مع أي عنصر من الخفر. دعوتهم أن يأتوا في الحال، دون مرافقة، إلى حيث أنت محجوز ويحكموا بأنفسهم. رفضوا. لقد تعرّضت للاضطهاد جرّاء المعاملة التي عاملتك بها. آخر رسالة منهم حذّروني بشدّة ألا أسمح لمشاعري الطيبة أن تتغلّب على إحساسي بالواجب. ليتني أستطيع إحضار الرسالة لأريكها. ولكني لم أسمح لذلك أن يقف عقبة في وجه فهمي لأصول اللياقة. أنت كائن بشري. أنت كائن ذكي. يجب أن تُعامل على هذا الأساس. لا بأس إذن. أنا أناشدك بصفتك كائناً ذكياً: هل من الإنصاف بحقي أن تدمّر وظيفتي وتورطني في المشكلات وأنت تحمي رجلاً تعمّد أن يخون وظيفته؟ أنت تقول إنك مقاتل في سبيل العدالة وها أنا أسألك، هل ذاك من العدل؟

ضميرٌ على ضميري! تباً لموظف الإفتاء الضميري، تباً لك! هذا الجحيم امتياز؟

غادر، وبانفعال عالٍ. في هذه الحالة الجديدة من الوجود تفحّص المشرّع بهدوء دعاوى العدالة. علي الآن أن أبدع وصايا جديدة، لدي الوقت. كل من يعتقد أن الوقت طاغية عليه أن يتعلم الصبر، مثلي.

ولكن سرعان ما عاد مرّة أخرى. هذا، عجز بلوتو عن فهمه. فقد بدا شديد الاضطراب، دجاجة مرتعدة. ما هذه المشكلة العويصة التي قطعت أنفاسه في فهرستها؟ بات أكثر إنسانية لدى كل زيارة، وابتدأ هذا يترك أثراً. فالمشرف الأول كان نقياً في مظهره كما في دخيلة ذهنه المتّقد المراقب. أزرار بدلته ملمّعة ونجوم رتبته برّاقة، حزامه وقبعته يبدوان كأن اثنان من الموظفين قد أتقنا تشذيبهما، مِخصَرَتُه متعةٌ لمن يحملها. رجل وَرِع باطني يحب القرآن. الآن يجيء دون قبعته، أزراره مفكوكة وبدلته تتدلى عليه ويبدو بنطاله دون حزام أو حمّالة. جاء دون مخصرته والغبار يعلو حذاءه المستدق الرأس. لا شك أن ذلك ناتج عن المشي من باب إلى باب. أبواب من أية مكاتب؟ وأخيراً لم يكن حليق الذقن، من شعر ذقنه واضح أنه لم يحلق ذقنه من يومين على الأقل وفجأة اتضح لي سبب تهدّل بدلته؛ إن صحة المشرف الأول تتدهور!

ـ جئت أسألك إن كنت قد غيرت رأيك. هل ستزودني بالمعلومات التي أطلبها؟

خرج بلوتو إلى سطح الأرض، ليتأمل كائناً بشرياً. كائن بشري يبكي طالباً النجاة، ويطلب مع ذلك بالمقابل نزول اللعنة بكائنٍ آخر. حدّق بفمٍ مفتوح واندهش، مرة أخرى صدمة وإثارة الإشكالية البشرية. حتى في هذا المكان السحيق، مجرداً من الهوية وإرادة الاختيار، مُقعداً ومقيّداً ومسقطاً من حساب الفاعلية البشرية، وجد بلوتو نفسه مدعواً إلى أن يختار بين مصيرين بشريين. من تجرّأ على استغلال هذا الدين الأخلاقي؟ مرة أخرى إلى دائرة الافتراس البشري بحثاً عن السلامة. خيانة. بديل عن كبش الفداء. الأدنى مرتبة فداءٌ للأعلى مرتبة. الذي لا صوت له

فداءٌ للمنصب. ولكن لم يكن هناك حكم أو إدانة فيهما خوف كبير وحقيقي إلى هذا الحد. وفجأة بدا لي أن هذه مسألة بسيطة، وتافهة، وأنها لا تحتاج سوى إلى خيال عادي. ضحكتُ. أجل، لا نزال نتعرّض للمضايقة من العجائز أنفسهم، الاستبداد القديم إياه.

قال: «لا أفهمك. ولكن يحسن بي أن أخبرك أن هؤلاء الناس على قناعة إنني أنا من هرّب لك الأوراق. والحقيقة إنهم يبحثون بحماس عن الأوراق الأصلية كي يتأكدوا ما إذا كانت من أوراق مكتبي. أعطيتهم كل الأوراق التي صادرناها منك وأريتهم زجاجة حبر «شوي» أو لا أدري ما اسمه. غير أنهم لا يزالون يعتقدون أنني أسهّل لك التهريب. لا يستوعبون كيف استطعت أن تكسر الترتيبات الأمنية. أقول لك، أحياناً أوشك أن أقتنع أنهم محقّون، لأنني لا أرى كيف أمكنك ذلك! فنحن نفتش الخفير قبل وبعد المناوبة. من الذي ساعدك يا سيد سوينكا؟ فقط أبلغني وأعدك ألا يحدث له مكروه.

يا له من صوت غريب. ما هذا؟ صوتٌ تلاشى منذ زمن بعيد، مثيرٌ يحفّز على إعادة الشعور البشري.

سيد سوينكا؟ أجل، كنت قد نسيت. أنا لا أزل سوينكا من الجنس البشري.

ـ «ماشي. أعطني وقتاً للتفكير».

رمى يديه إلى الأعلى.

ـ «للتفكير بمَ؟ هؤلاء الناس خلفي...».

ـ «رجاءً! هذه مسألة عالقة منذ بضعة أيام. الآن أطلب منك فقط بضع ساعات».

ـ «كم ساعةٍ إذن؟ كم ساعة؟».

ـ «ساعتين».

ـ «ماشي، الآن الساعة الحادية عشرة. في الواحدة سأكون هنا وسأصحب رجال الأمن معي لكي يسمعوك بآذانهم، لا أيد أن أسمع، ثم أنقل لهم ما سمعت. فباستطاعتهم اتهامي بالتنسيق معك. سأقول لهم إنك طلبت مقابلتي في الواحدة لكي تعترف لي بكل شيء».

ـ «أنا لم أتطرق إطلاقاً للاعتراف».

ـ «سيد سوينكا. دعني أخبرك شيئاً. آمل، آمل من كل قلبي أن يضعوني عندما يعتقلونني، في زنزانة ملاصقة لزنزانتك. أجل سوف أطلب ذلك طلباً خاصاً. لأنني أريد أن تراني كل يوم وتفكر مرّة تلو المرة بما اقترفت يداك. سأصحب هؤلاء الرجال إلى هنا في الواحدة ولا آمل إلا أن يغلب إحساسك بالعدل.

عند البوابة حيث تجمعت الإثارة كان المسوخ يتواصلون عبر الشقوق، في لحظات أزمة كهذه لا يجرؤ أحد من العناصر سوى المناوب على دخول السرداب، ويستخلصون أن هذا الوضع ليس إلا انتقام سماوي من مدير السجن بجريرة تدميره المحصول، ناسين أو ببساطة غير قادرين على فهم أن حلاقة الأرض كان لها علاقة بأول إشارة لوجود ثغرة في أمن السجن. سمعت النبرة البشرية الخفيضة للتوقع البشري، للرعشة التي تأتي من سقوط رجل آخر.

حدث ذلك. الأكثر منه أنني شعرت وتيقنت تماماً من تأثير رسائلي على العالم الحي. حان وقت إنهاء صومي. انتهت المعركة، انتهى الصراع من أجل شروط حجز إنسانية. ناديت حارسي الذي كان في غمار الثرثرة عند البوابة وأرسلت كلمة للطباخ.

كان الأمر بسيطاً إلى حد السخف، ما أن أقتحم انفعال ذاك الإنسان اللطيف عزلتي المديدة، فطورٌ من اللامبالاة انتشرت تدريجياً وغطت جلد الشعور حتى أنها شوشت الإدراك إلى حين. نام المشرّع وبرز الثعلب متسائلاً كيف استطاعت كلاب الظلم أن تخلق وتتابع معضلة ما كان لوجودها من داعٍ. السجين - الثعلب اشتمّ الهواء خارجاً من جحره الشتوي.

في الواحدة جاؤوا، ضابط أمن ومدير السجن وأمين الخفر وضابط مرشح وبضعة خفر متقدمين كشهود. كان رجل الأمن يبتسم بحبور.

ـ «أنا سعيد جداً يا سيد سوينكا لسماعي أنك قررت أن تتعاون. أؤكد لك أن كل ما سيحدث للرجل هو ببساطة تنبيهه..

قطعته وأعلنت:

ـ «الذي هرّب أوراقي هو أحد الحراس الليليين».

ترقرقت تنهيدة مسموعة، أجل، حرفياً ترقرقت خلال الجميع.

ـ «هل يمكنك إعطاءنا اسمه؟»

ـ «لا أعرفه».

ـ «متى حدث ذلك؟ هل تذكر؟»

ـ «لا».

ـ «تقريباً. أعطنا فكرة فقط، منذ ثلاثة أسابيع؟ أربعة؟ خمسة؟».

ـ «في هذا المكان يفقد المرء إحساسه بالزمن. بعد فترة هنا تكاد لا تفرّق بين الأسبوع والشهر».

البُلْه! هل ظنوا أنهم سيصطادونني بهذه الحيلة؟

- «هل يمكنك وصفه؟».

- «صعب. جرى الأمر بعد إقفال الأبواب فلم أستطع أن أراه بالكامل».

- «كيف تعرفت عليه إذن؟».

- «من خلال المحادثة. كان يسألني دائماً عن صحّتي وهكذا، بعد حوالي ثلاثة أيام خطر لي أنه يمكن أن يفيدني في هذا الاتجاه».

- «أهو شاب أم عجوز؟».

- «صعب تحديد ذلك، يمكنني القول إنه في أواسط العمر».

- «هل باستطاعتك وصف وجهه؟ لا بد أنك رأيت وجهه من فوق تلك الحافة».

- «أوه، كما تعلم الضوء في الممر ضعيف وهو كان يضع على رأسه القبعة باستمرار وهذه تلقي ظلاً على وجهه. إذا نظرت إلى مصباح الضوء...».

- «ولكنك بالتأكيد كنت على معرفة جيدة به فأنت لا تستطيع ببساطة أن تسلّم أوراقك لرجلٍ قابلته للتو، لا بد أنكم تحادثتما طويلاً ولا بد أنه ترك لديك انطباعاً بأنه رجل يُعتمد عليه تماماً. حقاً، يا سيد سوينكا، أنت لا تنتظرنا أن نصدق أنك أعطيت رسائلك إلى رجل غريب عنك تماماً».

- «لِمَ لا؟ لم يكن هناك خطر فيما كتبت. مجرد نزوع بشري للتواصل مع العالم الخارجي. خاطرت. كان من المحتمل أن يكون الرجل مزروعاً».

ـ «لكنك لم تَرَ شيئاً من وجهه. ملامح عامة على الأقل».

ـ أوه، أجل رأيت.

ـ من أية قبيلة كان؟

ـ كنا نتكلم إنكليزية مكسّرة.

ـ لكنك بالتأكيد...

ـ أنا لست قبائلياً. لا تهمني قبيلة الرجل.

تشاور الغستابو وإدارة السجن لبعض الوقت. الاقتـراح التـالي يمكن أن يخطر في بال أحمق مخدور.

ـ «لا بأس، افترضْ أننا رتبنا استعراضاً لتحديـد الهويـة. هـل يمكنك التعرف عليه؟».

ـ «بسهولة..» مضغتُ وتذوقتُ اللحظة على نحوٍ مبـالغ فيـه. منذ زمن طويل لم تتح لي فرصـة أن أتفـوق علـى الغـستابو لـذلك تركت الإثارة تموت تلقائياً ثم أضفتُ:

«إذا سمحتم لي قبـل ذلـك بمقابلـة طبيـب عيـون. منـذ سـنة أطالب بمعالجة عيني. الآن لا أستطيع التعرف حتى على أبي».

ـ «يا سيد سوينكا...!».

ـ «الآن، اسمـعْ. لا تريـدونني أن أتبلّـى رجـلاً بريئـاً ألـيس كذلك؟ اسأل المدير فنحن متفقان في آرائنا حول العدالة».

40

كيف أصف صفحة نظيفة عذراء من ورق الطباعة؟ تابلويد من مساحة غير ممسوسة، لا تحمل أي علامة أو ثنية أو شائبة؟ ما الكلمة التي يمكن أن أستخدمها كي أحيط تماماً بهذا الإحساس؟ ربيع؟ راحة بعد أن ضاع الأمل والتصق اللسان إلى جذوره؟ خمرة؟ لا، الخمرة، حتى بعد سنوات من الحرمان منها، لا يمكن أن تقارن مع رائحة والشعور بصفحة ورق من قطع الربع في نقائها البكر. كأختٍ صغيرة يحبها المرء إلى حد بعيد، يحب أن يراها في ثياب ناعمة (طباعة أنيقة) وأقراط فضية صغيرة، كأختٍ تلبس من أجل المناولة، رقيقة وحساسة، مقدسة أكثر من أم المسيح ومعبودة أكثر. ولكن لم تكن صفحة واحدة فقط، بل مئات الصفحات. وقد جلستُ هناك مرغماً على ترقيمها... 50، 51، 52، 53، 54... 103، 104، 105... 207، 208، 209... شيء متعب. كتبت في زاوية الصفحة بأنعم خط ممكن. ولكن ذلك كان أيضاً ضرباً من الغباء. فالترقيم يمنعني من أن أستخدم أياً من هذه الأوراق في رسائل ممنوعة. وقف أحد العناصر فوقي بينما كنت أنجز هذا العمل الإجرامي المملّ. من الرقم 219 رجعت إلى 120 وهي زلّة قد تبدو طبيعية لو اكتشفتْ. لم تكتشف. في النهاية وصلت إلى الرقم 375 وطلبت من العنصر أن ينقل هذا الرقم إلى المشرف الأول، فالرزمة تزعم أنها 500 ورقة. قلتُ إنني لم أشأ ذكر ذلك حتى تُخضع للتفتيش ولكن هل لاحظت أن غلاف الرزمة ممزق؟ لم يكد يغادرني حتى ابتدأت أفرز الأوراق المرقمة

مرتين. لم يكن من داعٍ للعجلة. فقد قُبل الرقم.

ولكنني لم أصف بعد جمال خصلة نقاءٍ من قطع الربع، شاطئ واسع الامتداد بعد أيام من تحطم سفينة في عيني الناجي الوحيد؟ ربما. ولكن عندئذٍ لا بد أن وجود الحطام قد استمر طويلاً حتى زرع الشكوك في ذهن هذا البائس حول هويته البشرية. لا بد أنه نكص عبر الأصول الأميبية المبكرة للإنسان، ماهى نفسه مع مختلف الطفرات المحيطية ولُفِظ إلى الشاطئ، مجرد هيولى خارجية يعوزها أن تطمئن من بصمته على الرمال. أجل، أجل، أظن أننا نقترب من كنايةٍ مناسبة أخيراً. غير أن رائحة هذه الرزمة البكر لا تنتمي إلى تجربة بلوغ كهذه إنها تنتمي انتماءً محضاً إلى الطفولة، رائحة الخبز الساخن في مخبز، وعذوبة حزمةٍ من العشب المجزوز بعد المطر، وأوراق الليمون، والجِدَّة حين تفتح علبة عطوسها، المذاق الأول لشفتين مراهقتين، هكذا كان الشعور.

لم يكن ثمة ورقٌ فحسب، كان هناك أقلام رصاص وأقلام حبر وأقلام بيرو من كل الألوان. مُصنّف، مصنّف مغلف إذا سمحت! اثنان وليس فقط واحد. وهناك ورق كربون، كربون من أجل النسخ! لحظة، إذا سمحوا بالكربون فهل يمكن.. لم أجرؤ على استيعاب الأمر، هل يمكن أن تتأخر تلك؟

أتى ذلك على ما تبقى مني. آلة كاتبة! وفي الحال أعطيت الموافقة، ولكنها أرادت أن تعرف أيّ طراز أريد.

آلة كاتبة. لا أدري كم من المرات كررت هذه الكلمة، فقط لو بحوزتي آلة كاتبة.

والكتب والمجلات، كتب طازجة، تبدو كما لو أنها وصلت للتو من فرنٍ على ناصية الشارع. كتب! رأيت هذه الأشياء: كتب! ولكن السجين ليس كائناً بشرياً، إن صيرورته سجيناً هي بذاتها عملية انمساخ لا بل انمساخ مباشر. يكفّ عن كونه إنساناً، يقترب، كما أظن، من إبداع جديد هو الرادار البشري. تنمو له عيون حيث لا توجد عيون، يصبح سطح جسده بالفعل كتلة من العيون. أثناء انشغال المشرف الأول بعدّ قائمة الكتب والمجلات التي سأنقلها إلى زنزانتي، كنت أضع بدل المجلة الواحدة اثنتان أو ثلاثة. كان يتلو أسماء ولكن مع كل اسم كان ينضاف ثلاثة مجلات وثلاثة كتب إلى الكومة. كان بوليفيموس حاضراً ولذلك كانت المهمة سهلة. وحين انشغلوا بملابسي دسست بضعة أقلام على غفلةٍ منه.

أخذت زوجتي الزيارة من رئيس الفرع (ي) نفسه. لم تكن مدة الزيارة محدَّدة ولم يعلن عن عدد الزيارات المسموحة. كانت على أساس أن تقضي ليلتها في كادونا وتطمئن عن صحتي وعن كل ما شاع عني. لم أتمنَّ أن تعود ثانية. السلامة في السجن حالة من العزلة لا تطيق المزيد من انتهاكات العالم الحي. طلبت منها أن تذهب ولا تعود. ولكني طلبت أيضاً شحّاط. اتفقنا أن تحضره لي اليوم التالي وتتركه مع المدير. افترقنا.

بعد ساعة واحدة من مغادرتها، جاءت مجموعة من الخفر وكنست كل ما سمحوا لي به في الزيارة. كل شيء! لقد توقعت ذلك. لا أدري كيف، لا تفسير سوى أنني قد عشت طويلاً في أذهان هؤلاء الجلادين وهم يحيكون تفاهتهم، جعلت الشر الذي فيهم يخرّب ويأكل نفسي جزئياً، فقط كي أستطيع التخمين. غالبت

نفسي رغم قوة الإغراء ولم أفتح المذياع. الحارس المناوب زاح يحوص ويرمي تلميحات خرقاء عن برامجه المفضّلة، وماذا تبثّ الآن المحطة الفلانية... تجاهلت الأحمق. أقسى ما في الأمر أن أتجاهل رغبتي الشديدة في أن أضع نفسي على تماس مع عالم صغير من الموسيقى التي كان كياني متعطّشاً لها منذ زمن طويل بشوق لم أعهده من قبل. خبّأت بضع مواد بأن انتزعت الصفحات الداخلية من المجلات المسجّلة عندهم. مزقتها. وكنت أعلم أيضاً أن هذا التفتيش ليس شاملاً فهم قادمون فقط لمصادرة المواد التي سمحوا بها مؤخراً لحمار غافل. دسستُ هذه الأوراق تحت البساط.

سمحتُ لنفسي بخطاب عظيم أدنتُ فيه هذه الخيانة وطلبت مقابلة المشرف الأول.

شرّف المشرف في حينه. من نظرة واحدة إليه امتلأت بالشفقة على دوره. إنها التعليمات. تلك الوالدة المجهولة والعديمة الملامح لكل أفعال الخسّة: التعليمات! ولكني لم أستطع مغالبة الحاسة السادسة التي تحسستْ الخطر في مكتبه. سألته، هل تلقيت هذه التعليمات بينما كانت زوجتي هنا؟ بينما كنتُ معها في المكتب؟

اعترف بذلك.

سألت ما إذا كانت تلك التعليمات تقضي أيضاً بأن يستغبيني؟ تلك التمثيلية كلها، تدوين المواد: كتب، ورق، مجلات. هل كان ذلك جزءاً من أوامر القيادة العليا؟ أن تحيي آمالي ثم تحطمها بدم بارد وتعيدني إلى حياة بدائية كحياة النبتة؟ هل كان ذلك لمجرد العرض على العالم الخارجي؟

ابتدأ يحتج...

أنتم عرضتم تهريجاً رخيصاً! أردتم أن تغادر زوجتي وهي مطمئنة إلى أنني أتلقى معاملة إنسانية بين أيديكم. كنتم تمثلون طوال ساعتين. تأكدتم أنها رأتني أتجه إلى زنزانتي أحمل كتباً وأوراقاً وحتى مذياعاً. وبعدئذٍ يأتي مرتزقتكم ليكنسوا كل شيء، أريد أن أعلم يا ملازم (أ) إذا كانت هذه جزء من تعليماتك.

دُهِش المشرف الأول وصعقني، فقد كان التدبير بمجمله من بنات أفكاره. لقد تلقى في البداية ملاحظة من الفرع (ي) ومن دائرته في لاغوس بأن يُسمح لزوجتي برؤيتي وإحضار هذه المواد لي. ولكنه استلم صبيحة يوم الزيارة رسالة من قيادته العليا تنصّ على ألا يسمح بأي تغيير في شروط حجزي.

حار فيما يفعل، فقرر أن يعمل شيئاً ما نيابة عن أسياده. الموظف المدني المنضبط ملازم (أ) ازدادت حساسيته بفعل السمعة السيئة التي وصلت إلى دائرته جرَّاء تعامله مع قضيتي. هذا الولاء لدائرته أملى عليه أن يترك زوجتي تذهب وهي تشعر بالرضا عن شروطي الجديدة في المعتقل. في الحقيقة الأوامر التي تلقاها من قيادته العليا كانت تمنع الزيارة. ولكن هنا، لحسن الحظ، كان قد تلقى تعليمات متناقضة. أنا أيضاً كنت معتقلاً يحقّ للبوليس في أي وقت الوصول إليّ. وكانت زوجتي قد وصلت يصحبها موظف أمن ولم يكن أمام ملازم (أ) من خيار إلا أن يخرجني لمقابلة زائري. ولكنه في قرارة نفسه عزم بهدوء أن يصادر كل المواد التي أحضرتها زوجتي حالما تدير ظهرها.

لحظة ترجّلت زوجتي من التاكسي أمام بوابات السجن. ومعها الشحّاط دُسَّت ملاحظتي في يدها. لقد بالغ جلاّدو السجن هذه المرة في قيمة أنفسهم. طارت زوجتي عائدةً إلى لاغوس وبحثت

عن رئيس الفرع (ي) الذي بدا له الأمر لغزاً. ما هي بالضبط علاقة دائرة السجون بهذه القضية؟ لقد أكّد لـزوجتي أنـه لم يعتـرض ولا يعترض أبداً على السماح لي بالكتـب أو مـواد الكتابـة. وأن تكـون شروط اعتقالي مريحة بالقدر الممكن. وأقسم أنه كان يتخيـل أنـني أتلقى المعاملة نفسها التي يتلقاها أي معتقل آخر. وأخيراً عبّـر عـن دهشته من أنني محجوزٌ في منفردة طوال تلك الفترة.

صـدقته ولا أزال أصـدّقه. فهنـاك أشـياء كـثيرة لا يعرفهـا /ييسوفو/ حتى في دائرته فمـا بالـك بالـذراع الـسياسي للغـستابو الذي يديره / ييسا أديجو/. ما قام به /ييسوفو/ وبتأثير مباشـر هـو أن وضع إدارة السجون في مكانها الطبيعي. وحـين أقـول هـذا مـن المهم أن أميّز بين الساديين البيروقـراطيين الـذين يـسكنون القيـادة العليا للإدارة الـذين هـم في الواقـع وكـلاء للنـشاطات الحكوميـة المشؤومة، وبين مـوظفي الـسجن المجهَـدين الـذين في معظمهـم أناس أسوياء ومخلوقات كفؤة وإنسانية. مـن المهـم أن نتـبين ذوي الطبيعة السادية الذين أصدروا التعليمات المضادة لتعليمات الفـرع (ي) في آب 1969 والذين خدموا في لجنة واحدة هـدفها تقـويض العقل. أمثال كيم سالم، وييـسا أديجـو، وجيـوا أدزاجـي. في كـل المسائل التي تأثرت بها في المعتقل فإن هذا الثلاثي الشرير يضطلع بمسؤولية كبيرة.

41

«جهّز نفسك». قال بوليفيموس «نحن ذاهبون إلى المشفى».

القافلة مؤلفة من ثماني سيارات، خمسٌ منها تعود للأمن وثلاث لإدارة السجون إحداها السيارة الخاصة لمدير السجن. لم أستطع إحصاء عناصر السجن ووحدة البوليس ذوي اللباس المدني الذين تقيأتهم السيارات أخيراً. ما أن توقفت السيارة الأولى في موقف السيارات، في وقت متأخر من بعد الظهر وهو وقت مُنتقى على اعتباره قليل الازدحام، حتى انفتحت أربعة أبواب كالبرق وفاضوا منها ورشحوا عبر سلالم وطوابق وممرات المبنى ثم اختفوا عبر ثقوب المفاتيح. لقد أشبعني هذا العرض أيّما إشباع، منذ زمن طويل لم أروّح عن نفسي بفن رقص معتبر وإن كان من تنفيذ تشكيلة من البوليس. بلطف ولكن بحزم ردّت عين الطبيب الاختصاصي عددهم في غرفة المعاينة إلى مستوى مقبول.

الخَفَر المساكين الذين ساهم بهم مدير السجن في هذه النزهة العظيمة لكشف المومياء للمرة الأولى، حراس القصر المساكين هؤلاء كانوا باهتين ومغلوبين وفاقدي التوازن إزاء الدراويش[1] باللباس المدني. فقد خسر المدير مجادلته أمام بوابات السجن حين ألحّ أن هذا الظهور الأمني الهائل لم يكن ضرورياً بل إنه محرج. سيارات اللاندروفر المخلّعة الأوصال لا تواكب سيارات البيجو الأنيقة الخاصة

(1) هكذا في الأصل. م.

بجماعة الأمن وحتى سيارة الصالون الخاصة بمدير السجن انكمشت على نحو ما بتأثير عبير السلطة الفائح من سلك المخابرات.

بعد خمسة أيام وزيارتين لاستكمال الفحوصات تقلّصت اكسسوارات السلطة التي كنت أحاط بها إلى مجرد سيارة لاندروفر وسيارة بوليس ويبدو أن هذا بأمرٍ من الرجل الكبير نفسه. احتجّيت على نقص الاعتبار هذا وهدّدتُ بألا أتعاون ما لم يعاد تصنيفي كرجل خطير إلى سابق عهده. وعد الضابط أن يثير الموضوع مع الجهات المختصَّة.

كانت نقطة الحضيض في تدهور اعتباري في الزيارة الخامسة، الأخيرة. لم يرسل الأمن سيارة واقتصرت مرافقتي على شخص واحد جاء سيراً على الأقدام. عندها كانت الزيارة لطبيب الأسنان. دخلنا سيارة الصالون السَّاعلة الخاصة بالمدير مصحوبين بعنصر الأمن الذي يبدو عليه الملل. شكوت إلى المدير أن رجال الأمن ابتدؤوا يقلّلون من شأني. ولكن إهانتي لم تنتهِ عند هذا الحد، فبينما كنت على كرسي طبيب الأسنان انطفأت الأضواء فجأةً اعتقدت أن عنصر الأمن سيثب للاضطلاع بمسؤوليته، يسحب مسدساً ويأمرني أن أبقى ساكناً أو ببساطة يرمي نفسه علي تحسباً من أية حركة مفاجئة. غير أنه ببساطة ترك غرفة الجراحة وخرج إلى حيث يوجد ما يكفي من الضوء ليواصل قراءة جريدته. حتى أنه أغلق الباب! إنه لمن المحزن أن يكفوا عن التعامل معي كرجل خطير.

ظلّ المشرف الأول مغموماً نظراً للتأخير الذي حصل في عنايتهم بصحتي. وراح يندب تحت تأثير صحوة ضميره وحرصه الكبير على صورة دائرته (كان من المفترض أن يجري هذا منذ البداية وبذلك كنا تلافينا كل شتائم الصحف الأجنبية وبعض الناس هنا أيضاً).

تخطيط قلب، ضغط دم، عيّنات دم، اختبارات بول، منعكسات عصبية... في الزيارة الثانية الأخيرة للمشفى أمطرتْ. كان الطوفان يقظةً حقيقية غريبة. كنت نسيت أن الريح والطوفان من قاطني الفضاءات المفتوحة.

كانت هذه ماء ربيعية نظيفة، مُفَعَّلة في كون لا نهائي، وليس مجرَّد سُمّ بارد من فتحة دائرية حديدية في السماء. حتى الآن أغلقتُ ذهني على أي اقتحام من هذا الاتساع المديد الجديد، ووصمته على أنه غريب وخطِر ومعادٍ للمستقبل الذي يمتد بعد هذه النزهة الوجيزة في حرية كاذبة. أنكرت الاعتراف حتى بوجود نساء في الشوارع أثناء عبورنا، أنكرتُ أن جسدي قد فتح ثغرة فيزيائية في جدران السجن. ربما يسعى الرجال السَّمجون للانتقام بطرقٍ أخرى كي يصلوا بي إلى الاستسلام، حين أخضع أخيراً للضغط العام من هذا الجانب الوحيد. ولذلك بقي خروجي نذيراً مُلتبساً. رفضت أن أستقبل متعة الإحساس باستنشاق هواء أقل انحباساً.

إلى أن اقتحمتْ الأمطار حاجز العزلة. عاصفةً منعشة اخترقت كل الدفاعات الفيزيائية والذهنية، كسرت الكبسولة وحررت الرائحة العذبة اللذيذة للحرية. استسلمت لها جاعلاً منها قوة ألف عزيمة مقاتلة اندفعت تتالى. بللتني بالماء حتى الجلد وساطتني الرياح والمطر. وبينما نحن نهرع عبر ممرات المشفى المكشوفة الطويلة دُهِشتُ فجأة أمام ظاهرة هذه الحركة العنيفة الحرَّة والمضبوطة مع ذلك، حركة العناصر وحركتنا وتناقضها مع مسير الموت الأول ذاك إلى قبرٍ صنعي... كان بوليفيموس بجسده المُضنى يسرع أمامنا شاداً ثوبه إليه بمعركة خاسرة مع الريح،

عندئذ خَبرتُ قناعةً بحدّة ويقين الحدس المتشائم في رأس السنة، ولكن هذه المرة بإلهام متفائل. إنها تتعلق بالحرية ولكن ليس بنيل الحرية إنما كان تأكيداً متقداً للروح الحرة، معرفة أن أعدائي خسروا الصراع لسبب هذا الحب. وأنه لا يهم في النهاية إلى متى يستطيعون الاحتفاظ بجسدي وراء الجدران، فإنهم لن ينجوا في المحصلة من الهزيمة التي هي مصيرهم. على أيدي كل المتحالفين والملتزمين بمبدأ الحياة الذي لا تغلّه أغلال.



Wole Soyinka

The man died

صعقتني العبارة في بادئ الأمر، بدت غريبة ومع ذلك لها ألفة خاتمة حكاية تربوية، شعر هزلي "وكأن الكلب هو الذي مات" بطريقة نطق من يتعلم مبادئ اللغة. عينا الجراح فوق القناع، أو دهشة جلاد أخطأ في تقدير قوته العضلية. سمعت الصوت بنبرات مختلفة عديدة من الماضي والمستقبل وبدا لي أن هذا هو فعلاً الشرط الاجتماعي للطغيان: مات الرجل، مات الكلب، ماتت القضية. مات الإنسان داخل كل من يبقى صامتاً في وجه الطغيان.

جسدي مجُهَدٌ لا يطيق أبسط صوت. نهض رجلٌ ومضى إلى قرب الصمت مستفسراً، آخرون يسهرون في أسرّتهم، بضعة رجال ينضمون إلى الذي بجوار السرير. بعد لحظة أسمع همهمة صلوات. تتواصل الصلوات إلى أن تنفتح الأبواب. يدخل أحد العناصر، يتوقف، يصرخ لرئيسه. سرعان ما تحلّ تلك الساعة حيث "يستيقظ كل الموتى". حين يدور المفتاح في قفل زنزانتي أسأل الخفير: ماذا حدث للموجوع.

"مات الرجل" قال.



